فردريك وايسجربر

عَلى عَتَبَة المَغْرِب الحَدِيث

ترجمة
عبد الرحيم حزل

دار الأمان
الرباط

عَلى عَتَبة المَغْرِب الحَدِيث

الكتاب	:	على عتبة المغرب الحديث
المؤلف	:	الدكتور فردريك وايسجربر
المترجم	:	عبد الرحيم حزل
الناشر	:	منشورات دار الأمان
العنوان	:	4، زنقة المامونية - الرباط
الهاتف	:	05-37-72-32-76
الفاكس	:	05-37-20-00-55
البريد الإلكتروني	:	libdarelamane@yahoo.fr
الطبعة الثانية	:	(2011/1432)
رقم الإيداع القانوني	:	2010MO1460
ردمك	:	978-9954-502-15-0
الطبع	:	مطبعة الأمنية - الرباط

فردريك وايسجربر

على عتبة المغرب الحديث

ترجمة
عبد الرحيم حزل



العنوان الأصلي

D. F. WEISGERBER

Au Seuil du Maroc moderne

Ed. La porte, Rabat, 1949.

مقدمة الترجمة

لا تخفى فائدة هذا الكتاب عن المهتم بتاريخ المغرب، ولاسيما في لحظته المفصلية المتمثلة في انهيار المخزن ووقوع البلاد فريسة للمستعمر في مطلع القرن العشرين، وما تلاه من تغيرات جذرية في تسيير شؤون المملكة وعلى وضعية المغرب الداخلية وصورته الخارجية. ولعل قسطاً كبيراً من أهمية هذا الكتاب يعود إليه من موقع مؤلفه السياسي والإعلامي وسعة اطلاعه على شؤون المغرب، واتساع نطاق حركته في جهاته المعروفة والأخرى التي يعود إليه فضل التعريف بها في ذلك الأوان.

يُجمل الكتاب خمس عشر سنة من تجربة مؤلفه الدكتور فردريك وايسجربر (الألزاس 1946 - الرباط 1868) في المغرب ومن تاريخ البلاد. فقد كان نزوله في مدينة طنجة سنة 1896. ثم انتقل بعدها للاستقرار في مدينة الدار البيضاء بدافع - لم يصرح به ابتداء - من الاستكشاف للمغرب العميق. وكان يغلب عليه وقتها الاشتغال بالطب. وهي المهنة التي ستكون وسيلته في أواخر 1897 لزيارة المعسكر الشريف في «صخرة الدجاجة»، لمرض ألم بالصدر الأعظم باحماد.

هذه الصدفة العجيبة ستتيح للمؤلف أن يدخل المحلة السلطانية. فيضير يستطلع تكوينها - نراه يجسد أركانها في رسم - وطريقة عيشها وأسلوب المخزن في تأديب القبائل المتمردة ومعاملة أسراها. وهي المعطيات التي أفرد لها القسم الأول من كتابه الواقع في ثلاثة أقسام.

فصل المؤلف في هذا القسم التمهيدي الحديث، انسجاماً ومسار تجربته في المغرب، في تصوير المدينة التي كانت له المستقر؛ الدار البيضاء فأفاض في رسم خصائص ساكنتها من بدو ومن حضر، وظروف العيش فيها عند الأهالي والأوروبيين سواء بسواء. ثم انتقل إلى الحديث عن المحلة السلطانية والمخزن المركزي والجيش الشريف والحركة السلطانية. وختم على هذه الفصول بتمهيد لمشروعه الاستكشافي للبلاد؛ وهو النشاط الذي أسفر عن وضعه لمجموعة من الخرائط التي سيتوسل بعضها الجيش الفرنسي في غزوه للمغرب. فقد باتت أوروبا – يقصد فرنسا – يومها كما قال، لا تتحمل أن تكون على أبوابها مملكة في صورة ذلك «الضريح المبيض»!!

وإذا كان المؤلف قد أسمى القسم الأول من كتابه «**أفول النظام القديم**» فقد عاد ليقفي عليه بقسم ثان أسماه «**من الغروب إلى الفجر**»؛ غروب المغرب القديم الذي رأينا صوراً لكثير من مناحيه ومظاهره في القسم الأول وفجر المغرب الحديث، الذي هو عنده مغرب الحماية. وكذلك تصرح الفصول المؤلفة لهذا القسم بهاجس البناء على ما قبله. وقد جاء القسم الثاني مشتملاً على فصلين صارخين من عنوانيهما بهذا الهاجس عند المؤلف للانتهاء من مغرب والانتقال إلى آخر؛ إذ جعل أولهما عن «**بداية النهاية**» وجعل الثاني عن «**غروب المغرب القديم**». ولعل استهلال هذا القسم، من أول جملة فيه، بالحديث عن وفاة باحماد ما يصرح بهذا الهاجس الذي ظل يتملك على المؤلف مقاربته لشؤون المغرب؛ هاجس الهدم ومحاولة «البناء».

ثم ننتقل إلى القسم الثالث؛ الموسوم «**فجر الحماية**»، وهو أكبر أقسام الكتاب، لاشتماله على أربعة عشر فصلاً من جملة فصوله الأربعة

والعشرين. وقد جاءت الفصول المكونة لهذا القسم تقريراً وافياً بالمراحل الممهدة للحماية، كما نلمسه في عنوان الفصل الأول فيه - الفصل الحادي عشر - **«من لندن إلى الخزيرات»** وفي عنوان الفصل الذي بعده **«أزمة 1907»**. ثم جاءت الفصول التالية استعراضاً لأهم أطوار التحول السياسي والعسكري الذي صارت إليه البلاد في ذلك الوقت، وترسم مختلف الأطوار التي مرت بها القضية المغربية على الصعيدين الداخلي والخارجي. فقد عرّفنا المؤلف في الفصل الثالث عشر بالقائم بالغزو الفرنسي **«الجنرال داماد»**، وخاض في الفصل الرابع عشر في تفاصيل الصراع الدائر يومذاك بين السلطانينِ مولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ. واستعرض بإسهاب أطوار دخولَ الفرنسيين لمدينة فاس في الفصلين الخامس عشر **«احتضار المخزن»** والسادس عشر **«إغاثة فاس»**. وفي الفصلين السابع عشر والثامن عشر المجملين معاً لما أسماه المؤلف **«ذكريات شخصيات»** تخص السنتين 1910 و1911 استكمالٌ للعرض الذي جاء به للملابسات الأخيرة التي حفت بنهاية المغرب المستقل وتنازل السلطان مولاي عبد الحفيظ عن العرش. وفي الفصلين التاسع عشر **«توقيع معاهدة الحماية»** والعشرين **«مذابح فاس»** تصوير مستفيض للظروف التي حفت بإقامة نظام الحماية الفرنسية وللتبعات المباشرة التي ترتبت عن هذا الحدث ذي الدلالة الكبرى في تاريخ المغرب الحديث.

وأما الفصول الأربعة المتبقية من الكتاب فقد جاءت لتكون بمثابة ملحق أو تذييل عليه. فبينَا يصور الفصلان الثاني والعشرون عن **«تمرد الهيبة»** والرابع والعشرون عن **«احتلال مراكش»** آخر التفاعلات العسكرية والسياسية للتوقيع على عقد الحماية، جاء الفصلان الآخران يعرّفان برمزين من رموز الاختراق الفرنسي للمغرب؛ من الخارج **«الجنرال ليوطي»** ومن الداخل **«عيسى بن عمر»**.

وفضلاً عن الفائدة السياسية التي يمثلها هذا الكتاب، باعتباره سجلاً بالسنوات الأخيرة من حياة المغرب المستقل، وتأريخاً موسعاً بأطوار الصراع الداخلي على السلطة وملابسات الصراع الخارجي الدائر بين القوى الأوروبية العظمى على الظفر بموطئ قدم في الخريطة المغربية التي كان يجري الإعداد لها في ذلك الإبان، و بياناً بالمراحل الأولى للاستعمار الفرنسي، فضلاً عن ذلك كله يعتبر هذا الكتاب مرشداً فريداً للراغب اليوم في التعرف إلى معيش المغاربة في بداية القرن العشرين، وصور التحولات الطارئة يومئذ على المجتمع المغربي في شتى مناحي الحياة فيه.

ويعتبر كتاب «**على عتبة المغرب الحديث**» كذلك من الوثائق الأساسية في تاريخ المغرب السياسي الاقتصادي والعسكري. وفي هذه الاعتبارات مجتمعة مصدر الأهمية التي تمثلها ترجمته لتقريبه من القارئ المغربي أول المعنيين بقراءته وتمحيصه ونقده.

ويجدر بنا التنويه في الأخير إلى ملحوظة أثارتنا بشأن اسم المؤلف. فقد وجدنا من أسماه «**فيليكس**» (انظر على سبيل التمثيل كتاب جون لوك پيير «**الدار البيضاء وفرنسا، التقاء ذاكرتين**»، الدار البيضاء 2002)، ومن أسماه «**وايسجربر**». وقد آثرنا الاختيار الثاني، وشجعتنا عليه في البدء كثرة وروده في الكتابات المتعلقة بالمؤلف، ثم حسمت اختيارنا له الأطروحة التي أنشأتها عنه ابنته لورونس وايسجربر سنة 1982، وأسمتها «**الدكتور وايسجربر، طبيباً وجغرافياً وإدارياً ورائداً بين رواد التحديث في المغرب**».

عبد الرحيم حزل

مراكش، دجنبر 2010

استهلال

«أيها المغرب المظلم تشبث بأسوارك، متحصناً بها من كل جديد. وأدرْ ظهرك لأوروبا، واثبُتْ على أشيائك البالية. أطِلْ نومك ما طال بك الزمان وأمعن في حلمك البالي العتيق، ليكون هنالك بلد واحد على الأقل يستطيع فيه الناس أداء الصلاة...

وليحفظ الله على السلطان أقاليمه المتمردة وخلاءاته المفروشة وروداً وصحاريه المتميزة بروقاً وسوسناً لتكون فضاء رحيباً يجوبه فرسانه الصناديد بجيادهم المطهمة؛ يشن فيه حروبه جرياً على ديدن أسلافه، ويحصد رؤوس المتمردين».

بيير لوطي

طنجة، 4 ماي 1989.

لطالما شغفت، شأن بيير لوطي، بسحر المغرب القديم الخلاب. وأصختُ السمع، كجرْي كاتبنا الكبير، في انفعال وتأثر، إلى أنغام الكمبري الرقيقة الخافتة، وإلى شَكاة الغيطة الخشنة القوية. وافتُتِنت مثله باللطف والضيافة المغربيين، واستهواني التجوال الطويل فَوق صهوات الجياد خلال الأحراش الخالية، وأخِذْتُ بلغز مدن المغرب القديمة الهامدة وبساتينه المهجورة وخرائبه.

ولكم طال بي ذلك الاستمتاع حتى أعمى بصيرتي عن الهوة من الجور والجشع والظلم والفظاظة والفساد والبؤس الفاحش التي تتختفى وراء تلك المشاهد الكاذبة. حتى إذا وعيْتَ، صرتُ وليس في بالي غير فكرة واحدة، متعارضة أتم تعارض مع تفكير كاتبنا الكبير : أن أرى المغرب وهو يسير إلى مزيد من العدل ومزيد من الرفاهية ومزيد من الحرية...

وصرت أبذل قصارى جهدي لتحقيق هذا الحلم. فقد اشتغلت بالاختراق السلمي، قبل عشر سنين من خروج هذه التسمية إلى الوجود. وعملت في حدود ما سمحت لي وسائلي على التعريف بالمغرب واجتذاب اهتمام أبناء جلدتي الفرنسيين إليه، وسخرت جهودي في الإعداد للمراحل الثلاث الأساسية في عملية التهدئة : مرحلة الدار البيضاء ومرحلة فاس ومرحلة مراكش...

والكتاب الذي بين يديك، عزيزي القارى، يغطي خمس عشر سنة من تاريخ المغرب؛ وهي الفترة التي تفصل بين ميلاد حلمي وتحققه. إنها صفحات أريد بها أن أرسم أهم معالم المغرب القديم؛ تلك المعالم التي صارت اليوم إلى تلاش وامحاء. كما يسعى إلى ترسم وقائع احتضار المغرب الطويل والعسير وتجلية بعض الأمور المتعلقة بإقامة نظام الحماية. وصفوة القول إنه يروم توفير بعض المعطيات المسعفة للطامحين في المستقبل إلى التأريخ لمهمة فرنسا في المغرب.

وليس هذا الكتاب، كما هو الشأن في كل عمل بشري، بالمحكم أو الخالي من العيوب، ولربما واتتني الفرصة مرة أخرى للعودة إليه بتقويم ما شابه من عيوب واعتوره من أوجه النقص. لكنني أزعم أنه في الهيئة التي هو عليها عمل يحق لفرنسا أن تفخر به.

القسم الأول

أفول النظام القديم

الفصل الأول

الدار البيضاء قبل خمسين سنة

انتزعني صوت اصطدام سلسلة المرساة بالكبْلية من نوم يغلب عليه الهياج والاضطراب، ونبهني زعيق الصافرة أننا ألقينا المرساة للتو في ساحل مدينة الدار البيضاء.

وقد كان قدِّر عليَّ في الفترة نفسها من السنة التي قبلُ - وتحديداً في ليلة رأس السنة 1895 - أني سيقترن مصيري بشمال إفريقيا. وكنت وقتها طبيباً أستقل سفينة «بيلروفون»* التابعة لشركة «أوسيان س. س. كو»* في ليڤربول كانت في طريقها إلى باطاڤيا. وحدث أن اصطدمت سفينتنا بسفينة «إميل هيلويز»* التابعة لشركة «شيافينو»*، فكان في ذلك الاصطدام غرق هذه السفينة ومقتل بعض ركابها. واضطررنا نحن إلى البقاء عشرة أيام في الجزائر. فلما عدت من الشرق الأقصى، بعد أن راودتني الرغبة حيناً أن أسعى وراء الثروة في كلونديك التي كان الناس قد بدأوا يتحدثون عنها حديثهم عن «إلدورادو» جديدة، استحوذت على نفسي ذكرى الجزائر ما جعلني أؤثر لإقامتي واحداً من البلدان الدافئة. غير أني رأيت الجزائر وتونس قد حازتا قدراً من التحضر، وخامرني شعور أن فرنسا سوف لا تلبث أن تبسط نفوذها إلى المغرب، وأنه سيكون في

* Bellerophon
* Océan S.S. Co
* Emile-Héloïse
* Schiaffino

إمكاني أن أعمل في هذا البلد وأحقق الريادة فيه. وعلى ذلك كان مجيئي إلىمدينة طنجة. ثم لم ألبث أن زهدت في هذه المدينة التي كانت تعمرها المفوضيات؛ فقد وجدتها يغلب عليها هي الأخرى الطابع الأوروبي. وقر قراري في نهاية الأمر على المجيء لأتخذ مقامي في الدار البيضاء؛ فهي المدينة الوحيدة من بعد طنجة، بين مدن المغرب التي بدا لي عدد الجالية الفرنسية فيها كافياً ليضمن العيش لطبيب ليس له من موارد أخرى غير حرفته؛ فهي جالية تغني هذا الطبيب عن السعي إلى توثيق الأواصر بالأهالي، في بلد كنا لا نزال قليلي معرفة به.

وقد كنا تركنا مدينة طنجة منذ أسبوع، وتوقفنا مرتين؛ لثلاثة أيام قبالة مدينة العرائش ومثلها قبالة مدينة الرباط، من دون أن نفلح في الاتصال بالبر. ثم واصلنا طريقنا باتجاه الدار البيضاء.

ظل الجو عاصفاً مكفهراً. فرتبت هندامي في عجل ومشقة وصعدت إلى سطح السفينة. فرأيت سفينتنا ترسو لوحدها على بعد نحو ميلين من الساحل الذي بدا لي من ذلك الموضع شديد الاختلاف عن التصور الذي كنت أحمله له.

كان بين السماء الرمادية الخفيضة والبحر الصاخب يمتد شريط أصفر على هيئة صليب، تنتصب فيه حشاف سوداء قد تخللتها صخور بارزة، وينتهي طرفاه بنتوءات صخرية. وتلوح عن بعد تلال خفيضة قرعاء تمازجها خضرة. في هذا المجال القليل جاذبية يقوم قبالتنا تماماً نصف دزينة من صوامع وقباب ويقوم ركام من مكعبات المباني البيضاء بطول سور مبقع قد حصّن بأبراج. وفي وسط ذلك السور تنفتح باب قيل لي إنها باب المرسى، ويُرى على يمينها بعض المراكب الجانحة عند المون في منأى من اضطراب الأمواج. وإلى اليسار يقوم حصن صغير تعلوه الراية الحمراء

الدالة على القراصنة المغاربة القدامى... فما أعظمه من تعارض بين هذه اللوحة المتجهمة المنفرة وبين الصورة المشرقة التي رأيت فيها الجزائر بخليجها الأزرق ومدرجها المتألف من بيوت بيضاء وإطارها الذي تشكله تلال مشجرة تبرز خلالها متلألئةً جبال جُرْجُرة.

لم يُؤذن لنا بدخول المرسى ولا سنحت فرصة للنزول من السفينة في ذلك اليوم. وزيادة في الحيطة والحذر أمر القبطان بإلقاء مرساة ثانية وظلت المحركات تحت الضغط، لتمكن للسفينة أن تقلع إن حدث ما ينذر بالخطر.

في اليوم الذي بعدُ بدا البحر أكثر وداعة. لكن البر ظل متصاماً عن النداءات المحمومة تطلقها صافرة سفينتنا. وبدأ القبطان يتساءل تراه سيضطر إلى التجاوز كذلك عن الدار البيضاء وأن ينزلني وأمتعتي في مدينة مازغان [الجديدة] أو في مدينة أسفي أو في مدينة موغادور [الصويرة] أو ربما مضى بنا حتى جزر الكناري. واستولى الحنق على المطعمي إذ بدا له أنه سيضطر، وقد نفد ما بحوزته من لحوم طرية وفواكه وخضار، إلى أن يطعمنا من المصبرات باهظة الأثمان.

فلما كان اليوم الثالث انفرج الجو وأخذت الشمس تلوح من بين السحب فارتأت سلطات المرسى أن تستجيب إلى نداءاتنا التي كانت تزداد إلحاحاً. ففي حوالي الساعة العاشرة رأينا مجموعة قوارب تتجه صوبنا يتقدمها زورق تعلوه راية صفراء تقترب بين اختفاء وظهور في خضم من الأمواج.

اقترب العون الصحي من سفينتنا حتى سار بمحاذاتها، ثم ارتقى سطحها. فلما أنهى إجراءات التفتيش استخبرت منه عن فندق وعن الوسيلة للوصول إليه، فرد مستغرباً:

صورة جوية لمرسى الدار البيضاء من إنجاز الكولونيل ساكوني سنة 1907

- فندق! لاوجود لأي فندق، لكني أرحب بك في بيتي إن قبلت أن تشرفني بالنزول فيه. ويمكنني أن أهيء لك مقابل دورو واحد (أربعة فرنكات في ذلك الوقت) في اليوم ضيافة بسيطة لكن لائقة. إنك في ما أعتقد المسافر الوحيد إلى الدار البيضاء؟ سأنزل أمتعتك إلى قاربي.

وما كاد ينقضي نصف ساعة حتى كنا أمام باب المرسى مبللين حتى النخاع، بعد رحلة مضطربة أتممنا الأمتار الخمسين الأخيرة منها محمولين فوق ظهور الرجال. وجنبني مضيفي من الإجراءات الجمركية ولذلك فلم يكد يمضي وقت يسير حتى كنت أنعم بالراحة في الطابق العلوي من منزله، القائم في ملتقى الشارعين اللذين يعرفان اليوم باسم «القبطان بروڤو» و«قنصلية إسبانيا».

أمضيت في هذا السكن أسبوعين، انتقلت بعدهما أحمل أثاثاً مؤقتاً إلى منزل صغير من أربع غرف يتوسطها صحن وتتصل بها أرض مسورة ومرأب صغير يقوم مقام الحظيرة؛ والمجموع بسومة كراء شهرية لا تتعدى 8 دوروات (حوالي 30 فرنكاً).

كانت مدينة الدار البيضاء محاطة بالأسوار من كل جانب. وكانت تضم حوالي 25.000 من الأهالي، خمسهم من اليهود. وتقطنها جالية أوروبية يقارب عدد أفرادها 500، باحتساب النساء والأطفال؛ 400 منهم إسبان و30 فرنسيون ومثلهم أنجليز وألمان و10 بين برتغاليين وإيطاليين. وتلك كانت أكثر الجاليات الأوروبية عدداً في المغرب، بعد الجالية المقيمة في مدينة طنجة. وقد كانت الغالبية العظمى من الأوروبيين يتكلمون اللغتين العربية والإسبانية فضلاً عن لغتهم القومية.

المدينة تتوزع إلى ثلاثة أحياء. فمن حول دار المخزن تقوم المدينة العتيقة، وهي سكنى البورجوازية الإسلامية، والقناصل الأوروبيين

ورعاياهم والأسر اليهودية الميسورة. وعلى شمال باب الكبير (وهو باب كان يقوم بقرب برج الساعة ولم يعد له اليوم وجود)، يقوم حي اليهود (الملاح)، ثم إلى الشمال على امتداد ما بين باب مراكش إلى سيدي علال القيرواني يقوم التناكْر، وهو حي يتألف معظمه من نوالات قد اتخذت من فروع الأشجار والنبات وفيها تتكوم البروليتاريا من الأهالي الذين يقبلون على المدينة من القبائل المجاورة، أو يفدون عليها من قبائل سوس.

كانت الدار البيضاء تخضع لإمرة حاكم مدني وعسكري هو في الوقت ذاته قايد على المدينة وعلى قبيلة مديونة. ولم تُدخل فرنسا لقب «الباشا» إلا في وقت متأخر.

كان يقوم في وسط المدينة موضع صغير يخص إسبانيا ظل على حاله لم يكد يتبدل عنه إلى اليوم؛ ذلك هو القسم من الشارع الذي يصل القنصلية الإسبانية بالساحة المثلثة الصغيرة التي تقوم قبلها. ويقوم إلى جوار منزل العون الصحي البحري بناء «لوسيركولو ديل بروكريسو»* الذي أصبح يعرف اليوم باسم «لوبوتي ريش»*. ويقوم قبالة القنصلية صالون إسباني للحلاقة وهو مكان اجتماع يكاد يكون رواده بقدر رواد النادي المذكور، ومنزل ضون مانويل أ. المالك لما صار يعرف بعدئذ بضيعة «أميو»*، ثم «ضيعة التجارب»، التي لاشك أن ثمنها يصل على أيامنا إلى ملايين كثيرة، لكنه لم يجد في ذلك الوقت من يدفع فيها 20.000 بسيطة. وفي الوسط من الساحة الصغيرة تقوم قنصلية إسبانيا، وإلى جوارها منزل الطبيب الملحق بهذه القنصلية والكائن في ردْب صغير.

---

* Le Circulo del Progreso

* Le Petit Riche

* Amieux

لحق التبدل بعدئذ معظم ما تبقى من المدينة القديمة. وأما رسم الشوارع فقد لبث على حاله لم يكد يطرأ عليه تغير. بيد أن هذه الشوارع بقيت محاطة بجدران عمياء لا تنفتح فيها غير أبواب البيوت المنفرة، ولا يتخللها غير أكواخ حقيرة يؤوي إليها الأهالي أو مداخل بعض الفنادق المكوم عندها ما تحمل القوافل من جلود وأصواف وحبوب. ولاوجود في هذه الفنادق لأي شرفة، وما ينفتح فيها من النوافذ قليل جداً. والطرقات تمتلئ في الصيف تراباً وتغص في الشتاء بوحل أسود. وتكتظ أزقة المدينة ودروبها على الدوام بالقذارات؛ فالناس ههنا يعملون بمبدإ «كل شيء إلى الشارع». ولاوجود في المدينة كذلك لأي إنارة عمومية؛ فإذا حل الليل لم يعد للمرء أن يتجول إلا وهو مزود بقنديل؛ فبدونه لا يأمن على نفسه أن تطوله رصاصة من بندقية عساس أو يتعرض لبعض الحوادث المزعجة الأخرى من قبيل ما وقع لي ذات ليلة، وكنت عائداً في وقت متأخر نسبياً من «نادي أنفا» فقد اصطدمت بحاجز وأردت أن أتخطاه فوجدتني فجأة وقد ارتفعت إلى علو شعرت معه بالدوار لأجد نفسي بعد ذلك ملقى في الوحل. فقد كنت إنما تعثرت في عنق جمل كان ينام متمدداً وسط الطريق، وحسب ركلتي له أنني أدعوه إلى النهوض.

ظلت الشوارع تعج بحشود الناس والدواب، ولاسيما في مواسم الأصواف والزروع، لا تزاحمهم العربات قط. ولم تكن توجد في المغرب يومئذ طريق تسلكه تلك العربات، بل إن مبدأ الطريق نفسه كان مجهولاً فيه. وقد رأيت أول عربة تنزل مدينة الدار البيضاء، وكانت عربة أنجليزية تحدث من الضجيج أكثر مما أصبحت تحدث في ما بعد السياراتُ أو الطائرات.

كانت الحياة في هذه المدينة سهلة يسيرة؛ فلم يكن كراء أجمل البيوت فيها يزيد عن 50 فرنكاً في الشهر، ويؤدى للخادم بين 10 فرنكات

إلى 20 فرنكاً، وسعر الكيلوغرام من اللحم، أكان لحمَ بقر أو لحم غنم، 4 فلوس، وسعر الدجاجة 8 فلوس، والبيضة بين سنتيمين وثلاثة وببضعة فلوس يمكنك أن تملأ قفة من الخضار والفواكه. وسعر الشعير يتراوح بين 4 فرنكات و10 للقنطار، ويمكن للمرء أن يشتري حماراً بما بين 15 و20 فرنكاً، وشراء بغل أو حصان رَكوب متواضع يكلف بين 30 و50 فرنكاً ويمكن الحصول ابتداء من 200 فرنك على دابة جيدة للركوب.

لذلك كان الأوروبيون يمتلكون جميعاً إسطبلات قد امتلأت من تلك الدواب فهو أمر ضروري لكل أولئك الذين هم كثيرو تنقل. وهم يولون بعضهم كرم الضيافة، وقد وطّنوا أنفسهم على أن يجتنوا من البلد كل ما يسنح لهم فيه من متع، وبقية أوقاتهم يقضونها مترقبين ما يرد عليهم من رسائل.

لم يكن يوجد في المدينة بعدُ مقهى، بل كان بها ناديان يقومان مقام المقهى؛ ذانكما هما «النادي المتوسطي» لأنفا الواقع في الشارع الذي يوجد فيه مقره الحالي لم يُبدَلْ عنه، و«النادي الإسباني»، الذي سبق حديثي عنه. والناديان يقيمان بين الفينة والأخرى، أمسيات راقصة. ومن حين لآخر كذلك كانت بعض مجموعات «زارزويلا»* أو مجموعات الراقصات الإسبانيات، تأتي لتنصب مسارحها في بعض الفنادق الشاغرة. ويأتي المولعون برياضات الخيل في فصل الربيع، وهي تكون بوجه عام مناسبة للاحتفال بأعياد الفصح ليقبلوا على ألعابهم في براح يتخذونه حلبة للسباق في عكاشة (التي أصبحت تعرَف اليوم باسم «الصخور السوداء») ثم يجعلون ليومين أو ثلاثة يركضون بأحصنتهم ويقبلون على شتى ألعاب الفروسية، ومن جملتها اللعبة الظريفة «لاكوريدا دي سورتيخاس»*، أو سباق الحلقات؛ وهي لعبة مقصورة على الشبان؛ بأن يمر الفارس فوق

* Zarzuella

* La corrida de sortijas

صهو جواده في قفز ثلاثي تحت ما يشبه منصبة على جانب الطريق ويرفع الحلقات المعلقة فيها والمزينة بالكثير من الأشرطة. والفائزون يجعلون تلك الحلقات فوق الكتف اليسرى ليهدوها إلى المتفرجات الجميلات ذوات الأكمام المنتفخة.

فإذا حل شهر يونيو رأيتَ الشاطئ، المقفر في ما عداه من الشهور، وقد امتلأ خياماً يؤوي إليها طالبو الاستحمام في البحر. ومعظم أوروبيي الدار البيضاء يركبون الجياد، وإلا فالبغال؛ وقد يخرجون في نزهات أو يخيمون لعدة أيام عند شلال وادي حصّار، أو في غابة البرتقال، «العرصة»، على ضفاف وادي المالح، وقد ربما توسموا كفاية من الأمن فتراهم يخرجون في جولات تطول بهم أسبوعاً أو اثنين، يقصدون خلالها الرباط أو بساتين البرتقال في مهيولة، في أعالي أزمور.

وكان للصيد كذلك هواته الكثيرون؛ إذ كان البلد يحوي من الطرائد أكثر مما يحوي منها اليوم. فقد كان يعج بالأرانب والحجل والدجاج القرطاجي والدراج والشنقب والسماني. وكانت الخنازير تكثر حيثما وجدت الأدغال، ولم تكن الحبارى الكبيرة بالنادرة، وكان الضربان يتردد على الجروف والأودية المنخفضة، وقطعان الغزلان تجوب السهوب الداخلية في ضواحي سطات ودار ابن احمد، والفهود والأوشاق والضباع تأتي في بعض الأحيان من غابات زعير لتصطاد في الأراضي المتاخمة. وقد يتفق للمرء أحياناً أن يقع في مدينة الدار البيضاء على جلد أسد اصطيد في جبال الأطلس المتوسط وإن كان هذا من الأمور القليلة والنادرة. وقد كنت شاركت أولاد حريز الصيد في غابة السوالم المترامية الأطراف تخترقها السبيل الساحلية الممتدة من الدار البيضاء إلى أزمور، فقتلنا في ثمانية أيام مائة خنزير ناهيك عن الثعالب والذئاب والطرائد الصغيرة.

وكان يحف بالمدينة حزام من المقابر والبساتين، تترامى بعده الضاحية بأراضيها الخالية من أي طريق ومن أي عمود للتلغراف ومن أي نصب كيلومتري ومن أي نزل. لكنها أرض بكر قلما خدشها المحراث، فظلت على مظهرها الصارخ تؤلفه الزهور البرية؛ فهي تمتد في فصل الربيع تحت حوافر الجياد بساطاً باذخاً لا يحده البصر.

الفصل الثاني

السكان الحضر

ما كانت الدار البيضاء بالمدينة الحضرية ذات الساكنة المدينية على غرار فاس والرباط أو تطوان، ولا كانت بالمدينة المخزنية التي للسلطان فيها قصر يقيم فيه، على غرار فاس ومكناس والرباط ومراكش. فهذا جعل المدينة لا تستجيب بسهولة إلى الدراسة التي تروم المجتمع البورجوازي ولا هي تسعف على دراسة الأوساط الحكومية. فقد كانت الدار البيضاء مدينة ذات ساكنة مسلمة معظمها من البدو المتألفين من قرويين ارتحلوا إليها إما فراراً من عسف القياد القرويين وشططهم، أو دفعهم إليها البؤس أو اجتذبهم السعي وراء الكسب. وقد أصاب بعضهم حظاً من الثراء عن طريق التجارة، فصاروا يكونون بورجوازية صغيرة، وأما السواد الأعظم من السكان فقوامه بروليتاريا تتألف من صغار الحرفيين وأصحاب الحوانيت والعمال اليدويين والحمالين وعمال القوارب والصيادين والخدم. والأرستقراطية المغربية ذكية ومتعلمة ومهذبة ومتأنقة، لكنها بوجه عام متراخية ولامبالية، وكثيراً ما تكون متعصبة. وهي غير ممثلة في مدينة الدار البيضاء بغير عدد قليل من الموظفين وبعض كبار التجار المنحدرين من فاس أو من الرباط. بيد أن ذلك لا يمنع من القول إن الدار البيضاء قد توفرت لها جميع دواليب المدينة وأجهزتها الإدارية.

فالقايد؛ ذلك العامل المدني والعسكري والقاضي في المضمار الجنائي هو المتحكم في القوة العمومية، ويتولى قمع الجرائم والمعاقبة على الجنح.

وقد جرت العادة عند معظم الناس، في ما يعرض لهم من قضايا تدخل في المجال التجاري ومجال الالتزامات، على عدم التوجه إلى القاضي، وهو المختص بهذين المجالين، بل إن معظمهم يقصدون القايد يطلبون تدخله الإداري. ويساعد القايد في عمله خليفةٌ أو مساعد وعدد من المخازنية أو رجال الدرك والمقدمية أو رؤساء الأحياء والعساسة أو الحراس الليليين الذين يأتمرون بإمرة قايد الدور أو رئيس الدوريات وعريفة أو عريفات وهن المكلفات بشرطة النساء. ويستفيد القايد من مزاولة وظيفته أرباحاً طائلة. فهو يبرئ أو يجرم من غير محاكمة ولا حسيب أو رقيب. وقد تم التخلي عن العقوبات القديمة كالقصاص وقطع اليد أو الرجل أو هما معاً والتعذيب بالملح... إلخ.، ليس عن باعث إنساني بل لأنها أصبحت لا تعود بنفع على من يأمر بها. وأصبح القايد يلقي بمرتكب الجريمة من الجرائم أو الجنحة من الجنح - أو من يزعمهما له - في السجن من دون أي شكل من أشكال المحاكمة وربما يكون قد انتزع منه قبل ذلك اعترافه بما يُتهم تحت ضربات السير، فكل هم القايد أن يبتز أسرة الضحية أكثر ما يمكن من المال قبل أن يفرج عنه.

والقاضي، أو قُل القاضي الشرعي، المكلف من لدن السلطان بتطبيق القانون القرآني (الشرع) هو المختص وحده بالشؤون العقارية والأمور المدنية للمسلمين، كان هو وحده الذي يقضي في الناس، يساعده عدد من العدول يقومون مقام كتاب المحكمة والكتاب الموثقين، ويتولون تحرير العقود، وعون أو مشاوري. ويرتكب معظم القضاة كذلك أسوأ أنواع الشطط؛ فلذلك تسمع الناس يرددون في ما بينهم مثلاً عربياً يقول إن واحداً من سبعة قضاة يدخل الجنة*. وقد كان هؤلاء القضاة يسلكون جميع السبل ويلجأون إلى شتى الوسائل لإرجاء البث في ما يعرَض عليهم

* (هـ. م) الأصل في الحديث: «القضاة ثلاثة، إثنان في النار وواحد في الجنة».

من نوازل بغرض ابتزاز المتظلمين. وإذا اتفق لهم أن أصدروا حكماً من الأحكام بعد طول تسويف كان في معظم الأحيان لصالح من يدفع أكثر.

وأما بقية الموظفين في المخزن الشريف فمنهم المحتسب، وهو أشبه بأمين التجار، وله اختصاصات متعددة، وأمين المستفاد أو مدير المداخيل العمومية، وناظر الأحباس وهو مندوب عن السلطان لتدبير المؤسسات الخيرية، وبومارث وهو مصفي التركات الشاغرة وأمناء الجمرك، ورايس المرسى أو قائد الميناء. وكلها وظائف غير معوض عنها، ومع ذلك فالناس يطلبونها ويسعون للفوز بها لما تعود من الثروات الطائلة على متقلديها. فهي تعود بالثروة على المحتسب بما يقبض من رشاوى عن تحديد أسعار السلع الغذائية، وعلى أمين المستفاد أو ناظر الأحباس؛ بما يختلس من الأموال الحكومية والأموال الوقفية، وعلى بومارث لاستئثاره بقسم من الأموال التي يقوم عليها محاسباً، وعلى أمناء الجمرك بما يعقدون من تسويات مربحة مع التجار.

وقد يخيل إلى المرء أن الأوروبيين كانوا متضايقين ومنزعجين من وجودهم في هذا الخضم من الفساد، والواقع أن ذلك لم يكن حالهم. فقد آل الأمر بمعظمهم إلى التعود على هذا الوضع، ثم إذا هم قد أخذوا في الإفادة منه وأمعنوا فيها إمعاناً، وإن لم يحجموا عن إبداء استيائهم من قابلية المغاربة للإرشاء، ولاسيما عندما تكون الرشوة تخدم جانب منافسيهم. وما أكثر أولئك منهم الغاضبين من تدخلنا المتحسرين على زوال النظام القديم.

كان عدد الأوروبيين المقيمين في المغرب في أواخر القرن التاسع عشر يقدر بخمسة آلاف شخص؛ يقيم ثلاثة أرباعهم في مدينة طنجة ويتوزع الربع المتبقى إلى بضع مآت، أو بضع عشرات، على مدن ساحلية أخرى.

وأما المدن الداخلية كفاس ومراكش والقصر* فلم يكن عدد الأوروبيين مجتمعين فيها تزيد في أعلى تقدير عن ثلاثين نفراً، يرتدي أكثرهم اللباس البلدي ليَلا يثيروا إليهم الانتباه.

وكان معظم الأوروبيين ينعمون برغد العيش، وقد اجتمع بأيدي الكثيرين منهم عدد غير قليل من خدم البيت، بيد أن ذوي الثروات الطائلة يظلون بينهم قلة قليلة؛ وكان الحديث يروج عن واحدة من تلك الثروات العظيمة قد اجتمعت لأحد كبار مستوردي الأقمشة القطنية فالناس يتحدثون عنه بإجلال ويقولون إن ثروته بلغت مليوناً. وقد أقرت اتفاقية مدريد للأجانب بامتلاك عقارات في المغرب، لكن ظل شراؤهم العقارات مرهوناً بموافقة المخزن التي لم يكن يمنحها أبداً. وقد جرى تذليل هذه الصعوبة على الوجه التالي : فالتاجر الأوروبي الذي يكون في حاجة إلى منزل للسكنى ومستودع لسلعه وبضائعه يتفق مع الأمناء على بناء محل يفي باحتياجاته، ثم يصبح له مستأجِراً مقابل سومة كرائية سنوية لا تزيد عن 6% من قيمة المبالغ المنفقة على بنائه. وقد كانت أشغال البناء يومئذ زهيدة التكاليف؛ فتشييد بناية كبيرة قلما يتجاوز العشرين ألف فرنك، فيما لا تزيد سومة الكراء الشهرية عن مائة فرنك. وبقي أمر الكراء على حاله حتى بعد أن صارت أسعار البيوت إلى ارتفاع مهول. بيد أن مستغلي هذه البيوت كانوا يلبثون على الدوام مجرد مكترين. ثم أصبحوا في ما بعد مالكين لها، وكثيراً ما كان هذا الأمر يضر بأملاك الدولة التي خسرت بسببه ملايين تعد على الأرجح بالمآت.

وكان الأوروبيون يتوزعون في نظر المغاربة إلى ثلاث فئات : الباشادورات (أو السفراء والوزراء) الذين يعيشون في مدينة طنجة حياة الترف والبذخ

* (هـ. م) القصر الكبير. وحيثما وردت من هذا الكتاب.

ويملكون من السلطة ما يستطيعون به أن ينادوا على فرقاطة مسلحة بالكثير من المدافع لدعم مطالب أبناء جلدتهم. وثانية هذه الفئات يكونها في مدن أخرى القونصوات (وهم القناصل أو الأعوان القنصليون)، ورئيس المسيحيين «أبناء جلدته»، الذي يمنح بطاقات الحماية. وثالثة هذه الفئات هم التجار؛ أي تجار الجملة من مستوردين ومصدرين، ويمكن لهؤلاء أن يكونوا حماة من تعسفات القياد. وتلك الفئات تمتلك جميعاً بعض السلطات التي ربما أمَّل المسلم في الإفادة منها. فهذا جعل الأوروبي يحظى بشيء من الاعتبار، وقد ربما صار ينادى عليه باسم «سيدي»، وهي كلمة توجب الخضوع والطاعة لمن يدعى بها. وقد انتهى الأمر بكلمة «التاجر» التي كانت من قبل تجعل تحية لهذا الأوروبي، إلى أن أصبحت علامة احترام له واعتبار. وقد كان المغربي يعرف كذلك من الأوروبيين الطبيب وهو أشبه بالساحر المبْرئ، ويعرف الأب الفرانسيسكاني الإسباني، وهو أشبه بالولي المسيحي، لكنه كان لا يزال يجهل بالعسكري الغازي، كما كان يجهل بالبروليتاري الأوروبي، الذي يكون في بعض الأحيان قليل تهذيب. ولم يكن للمغاربة بعد علم بغير بعض العمال وبعض السباخين الإسبان الذين كانوا يعيشون وإياهم في وفاق.

ومما كان يزيد في الاعتبار الذي يكنه المغربي للأوروبيين تلك الحصانة التي يتمتعون بها. فهم في المغرب، كما في البلدان «غير المسيحية» يخضعون لنظام الامتيازات الذي يجعلهم تحت سلطة قناصلهم وسلطة ممثلي القوات الأجنبية في مدينة طنجة. وقد كانت المحكمة المختصة من الناحية المبدئية بالبث في ما ينشب بين الأوروبيين والأهالي من نزاعات هي التي يتبع لها المدعى عليه؛ مع تضييق أساسي وهو أن المغربي الذي يريد أن يقيم دعوى أمام المحكمة القنصلية ينبغي أن يلقى المساندة من القايد وأن يكون ملزماً بالرضوخ للحكم، فيما لا يُستطاع إخضاع الأوروبي

لحكم القايد أو حكم القاضي. فهذا ترتب عنه أن الأوروبيين سواء أكانوا على خطإ أو على صواب، يكونون هم الرابحون في معظم القضايا و - ينبغي أن نقولها - ما أكثر أولئك منهم الذين كانوا يمعنون في استغلال هذا الوضع التفضيلي، فتراهم عند أقل نزاع مع أحد الأهالي يطلبون من القايد أن يسجنه، وقد كان هذا الأخير يؤثِر تلافي المشكلات والبقاء على وفاق مع المسيحي تحسباً لما قد يسبب له من المنغصات؛ ولذلك تراه يذعن له ويمتثل امتثالاً لا يكاد يزيغ عنه. وقد يبلغ الأمر في بعض الأحيان بالشريكين المتواطئين إلى الاتفاق على ابتزاز مال الضحية.

ويتسم سلوك الأوروبيين المقيمين في المغرب عامة باللياقة، وأما الأعمال الشائنة التي يقترفونها، كبيعهم بطائق الحماية؛ أي حماية بعض عديمي الذمة من الأوروبيين لمحمييهم المغاربة من القياد والاستغلال السفيه لمبدإ المسؤولية الجماعية للقبائل والمخالطات القائمة على الاحتيال والتدليس والربا بجميع أشكاله، فلم تكن تلك الأعمال قد بلغت من العظم مبلغها في ما بعد، وحتى لقد بات يعسر على الفرنسيين أنفسهم أن يحاربوها. فقد أصبح المغرب يومئذ يضم عدداً غير يسير من «رواد التحضر» الذين كانت «تربية المواشي بالاشتراك مع المخالطين الفلاحيين» تشكل وسيلتهم الوحيدة في العيش، فكانوا يرفعون إلى مفوضيتهم في بعض الأحيان المطالب والاحتجاجات الشاذة الغريبة؛ وحتى لقد طالب واحد منهم ذات يوم بتعويض كبير بذريعة أن زوجته أجهضت من رؤية أفعى وأن المخزن لم يفعل شيئاً لإبادة الحيوانات الضارة!!

ويتوزع يهود الدار البيضاء، كمثل يهود المغرب، بوجه عام إلى فئتين متمايزتين : البليشتيم (أو النازحون من فلسطين) - الذين يتكونون على الأرجح من مزيج من اليهود الذين جاءوا إلى المغرب خلال الاجتياحات

العربية، والبربر المتهودين، والسيفارديم الذين أُخرِجوا من إسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي. وقد كان معظم اليهود المنتمين إلى الفئة الأولى يقطنون المدن والقصبات الداخلية ويتكلمون العربية أو الأمازيغية حسب المنطقة التي فيها يوجدون. وأما اليهود المنتمون إلى الفئة الثانية فقد استقروا في مدينتي تطوان وطنجة، وظلت لغتهم هي الإسبانية يمزجونها ببعض الألفاظ القديمة والمهجورة. وأما المدن الساحلية الأخرى فاليهود فيها خليط من العنصرين معاً.

وقد طرأ على وضع اليهود في المدن الساحلية تحسن ملحوظ بفضل التفوق الذي كان لعناصر السيفارديم أو الفوراستيروس وبفضل وجود الأوروبيين الذين كان كثير من اليهود قد صاروا يتشبهون بهم في ملبسهم وكذلك بفضل الجهود المحمودة التي بذلها الأنجليزي الخيِّر السير موسى مونتيفيور، وبفضل الجمعية الأنجليزية اليهودية والتحالف الإسرائيلي العالمي. وعلى خلافه كان وضع اليهود في المناطق الداخلية؛ إذ كانوا لا يزالون يتعرضون للإجراءات والمعاملات المذلة المحقرة. وكان يُزج بهم داخل ملاحات ويسوَّرون بحيطان عالية؛ حيث يحبسون كل مساء من غروب الشمس فإذا هم يعجون فيها عجاً في خضم من القذارات. فكان الطاعون والكوليرا والتيفوس والجدري تتواتر عليهم فتوقع فيهم الوفيات الكثيرة. لكن الطبيعة التوالدية لجنسهم والاختلاط الذي فيه يعيشون كانا يجعلانهم لا يلبثون أن يعودوا ليملأوا ما يقع فيهم من فراغات؛ فقد كانوا في تزايد واكتظاظ لا يفتران ولا يتوقفان.

وأما اللباس الذي كان اليهود ملزمين بارتدائه فقد كان ذا لون قاتم ويتألف من قفطان وبرنوس أسودين أو في لون غامق، وسروال وبلغة سوداء. وينبغي لليهودي، ولاسيما في المدينة الإسلامية إذا مر بقرب

مسجد أن يخلع نعليه. وكان محظوراً عليه أن يركب حصاناً أو يحمل سلاحاً. وهو يكلَّف بأحط الأعمال والسخرات، كتنظيف الحفر التي كانت تقوم مقام المراحيض ومباشرة الجيف. والأطفال المسلمون يسبون اليهود لا يخشون عقاباً. وينبغي لليهودي أن يدعو باسم «سيدي» أحط أفاق يدفعه بشدة أو يسبه من المسلمين. وعلى الرغم من ذلك كله فقد نجح بعض اليهود بفضل الخدمات التي كانوا يقدمونها بصفة الصيارفة إلى الشخصيات الرفيعة وإلى السلطان نفسه في الارتقاء إلى أوضاع وتقلد مناصب هامة. وكانت الجهود التي أخذت تبذلها المدارس المسيحية في الملاحات البائسة نفسها القائمة في المدن الداخلية لمحاربة الجهل والقذارة قد بدأت تؤتي أكلها. فقد بدأ عدد كبير من اليهود من الجنسين يتكلَّمون اللغة الفرنسية وينطقونها النطق السليم. فقد عرفت شاباً يهودياً لم يسبق له أن غادر مدينة فاس، ونادراً ما كان يترك الملاح، ولا اتفق له أن رأى منذ فتح عينيه إلا القلة القليلة من الأوروبيين، ومع ذلك فقد كان منغمساً في دراسة فلسفة أوغست كونط الوضعية.

ويقوم حزان اليهود في الملاحات مقام مقدم الأحياء عند المسلمين فهو يتولى في هذه الملاحات شؤون الشرطة، ويخضع لسلطة عامل المدينة. واليهود تابعون من الناحية القانونية لحاخاماتهم ويأتمرون بالشريعة الموسوية في المسائل المدنية. وأما في ما عدا ذلك فإنهم يخضعون للقياد والقضاة الذين يقومون على أمور المسلمين.

ولا يمكن لليهود أن يعيشوا في الجبال التي يسكنها البربر وبين ظهراني الشلوح في سوس أو درعة إلا أن يكون لهم سيد يكونون له أقناناً فهو يستغلهم ويذلهم لكن يوفر لهم نوعاً من الحماية. وقد كانت العادة جارية في الأطلس المتوسط على أن الدية المقدمة في قتل اليهودي تكون 100 مثقال، أي ما

يقارب 25 فرنكاً في ذلك الوقت. وكان اليهود في جميع المناطق يعيشون في حالة من البؤس والوضاعة آلت بهم هم أنفسهم إلى أن أصبحوا مقتنعين بدونيتهم. فكان لهذا الأمر بعض العواقب الشاذة والغريبة عليهم؛ ومن ذلك أنهم صاروا لا يخشون الأسود. فقد رسخ في أذهانهم، كما المسلمين أن ملك الحيوانات يحتقر طريدة في مثل وضاعتهم، ولذلك تجد حارس الأسود في قصر السلطان من اليهود. وهي حصانة كان اليهود يشتركون فيها مع النساء. فإذا اضطر أحد البدو إلى المرور بمنطقة يشاع فيها وجود الأسود لم يخش على نفسه شيئاً إن هو اتخذ لحمايته بعض اليهود أو نساء من الدواوير المجاورة. وإذا اتفق له أن وُجد لوحده في مواجهة ملك الحيوانات ولم يجرؤ على مهاجمته وضع بندقيته وامتثل لـ«مول» البلاد وهو على اقتناع بأنه سيتفضل بأريحيته فيحفظ عليه حياته!

والملاح يوجد في مدن فاس ومكناس ومراكش على مقربة من قصر السلطان، الذي يقوم على توفير بعض الحماية لليهود مما يمكن أن ينولهم من تجاوزات بعض المسلمين. وما كان يقع عليهم من استغلال المخزن في الأوقات العادية أهون مما يستهدف الفلاح. فقد أسقطت عنهم الجزية فما عادت الضريبة الوحيدة الواجبة عليهم تزيد عن الهدية الإجبارية في الزرابي والأقمشة النفيسة والحلي ومختلف المنتجات التي يقومون بصناعتها؛ وهي هدية يقدمونها للسلطان في الأعياد الدينية الإسلامية.

وكما كان الشأن في العصر الأوروبي الوسيط فإن التعصب الديني أدى باليهود إلى الإنعزال بأنفسهم في بعض الحرف؛ فكان منهم الخياطون والبرادعية والصائغون والمشتغلون بالمعادن، لكن أكثر ما يكونون تجاراً وسماسرة وصيارفة ومرابين. وكان المسلمون بما جُبِلوا عليه من غفلة وتراخ يقعون لقمة سائغة بين أيدي اليهود. فقد كان شراء المحاصيل بالكامل

والبيوع بالوفاء والتسليف لأجل لا يتعدى الأسبوع والتسليف بضمان رهون بآجال قصيرة للسداد من الأمور الجارية بينهم. وغالباً ما تكون تلك القروض بفوائد تصل إلى 500%. وقد كان يتفق خلال ما يعتور المخزن بين الفينة والأخرى من ضعف، ولاسيما في الفترات المضطربة التي يحدث فيها خلو العرش عقب وفاة السلطان، كان يتفق للرعاع من المسلمين أن ينقضوا على الملاحات نهباً، ويستغل المدينون من المسلمين تلك الاضطرابات للانتقام من دائنيهم اليهود بقتلهم وإتلاف عقود ديونهم.

ولن يكتمل هذا الرسم الإجمالي لساكنة المدن إلا بالحديث ولو بإيجاز عن السود، وقد كانوا قلة قليلة في البوادي لكنهم يشكلون في التجمعات الحضرية نسبة غير هينة من السكان، وهي نسبة تزيد خاصة في مدينتي مكناس ومراكش. ويعود هؤلاء الزنوج بأصولهم إلى السودان قد جلبتهم القوافل أو ولدوا في المغرب. وقد توقفت تجارة الرقيق بصفة تكاد تكون نهائية منذ أن كان احتلال السودان. وبدأ يقل ما كان يُجلب من عبيد «بامبارا» وسواهم. ثم صار يُسعى إلى التعويض عما كان يأتي من تلك القوافل بالاختطافات التي صارت تقع في سوس ودرعة على الأطفال من الحراثين ذوي البشرة الضاربة إلى السواد، على الرغم من أنهم مسلمون وأحرار وأن في تحويلهم إلى رقيق خروجاً عن المبادئ والأخلاق الإسلامية.

وكان أكبر أسواق العبيد هما الموجودان في مدينتي فاس ومراكش. لكنني لم أقف على غير سوق مراكش. وهي عبارة عن ساحة مربعة مسورة بحويط. ويوم زرت تلك السوق رأيت نحو عشرين من العبيد قد احتشدوا وسط تلك الساحة، ووقف المشترون فوق حافة ذلك الحويط فهم يطلبون العبيد والإماء الذين يرغبون في تفحصهم عن كثب فيؤتى بهم إليهم.

وكان التجار - وأوْلى بي أن أسميهم نخاسين - يعرضون بضاعتهم لكن ينبغي لي أن أقول إنه قد كان يراعى بعض الحشمة والحياء سواء في طريقة العرض أو في طريقة الفحص. فقد كان المشترون يكتفون بلمس الأجزاء المكشوفة من أذرع أولئك العبيد وسيقانهم وتفحُّص أسنانهم. ثم يجعلونهم يركضون حول ذلك الحويط لكي يطمئنوا إلى حالة قلوبهم ورئاتهم. وقد كان سعر العبيد البالغين يتراوح بين 200 و500 فرنك، فيما يصل سعر الإماء اللواتي هن في مقتبل العمر إلى ضعف هذا المبلغ. وأما ذوو الشأن من المولعين بهذه التجارة فقد كانوا يتفرجون على جياد العبيد داخل البيوت.

وقد كان شكل الرق الغالب في المغرب هو المتمثل في خدم البيوت. ومن المؤكد أن وضع العبيد في هذا البلد قد كان أخف وأهون من حال الزنوج العاملين في مزارع أمريكا، بل إن عبيد المغرب كانوا أفضل حالاً حتى من العمال الصينيين ومن الكاناك الذين صاروا يقومون مقامهم. فقد كان العبيد في المغرب يحظون على وجه العموم بالطعام الجيد واللباس اللائق والمعاملة الحسنة، وما أكثر ما كانوا يُعامَلون كأنهم أفراد من الأسرة ولذلك فنادراً ما تراهم يتوقون إلى الحرية التي لم يعرفوها لها طعماً. وما أكثر ما تراهم كذلك يرفضون هذه الحرية عندما تمنح لهم أو عندما يتذوقونها، فإذا هم يطلبون أن يعودوا إلى ما كانوا فيه من أغلال. غير أنه قد كان يتفق لبعض السادة أحياناً أن يعلموا عبيدهم بعض المهن، وقد يحررونهم بعدئذ مقابل فدية يؤدونها لهم خلال بضع سنين. وكان يمكن للعبد الذي يسام سوء المعاملة أن يتقدم بشكوى إلى القاضي يطلب فيها إعادة بيعه. وعلاوة على ذلك فإن الرق في المغرب لم يكن يعني بالضرورة الإذلال الدائم الذي لاخلاص منه؛ فقد عرفنا من الحراثين من تقلدوا أسمى المناصب في أجهزة المخزن.

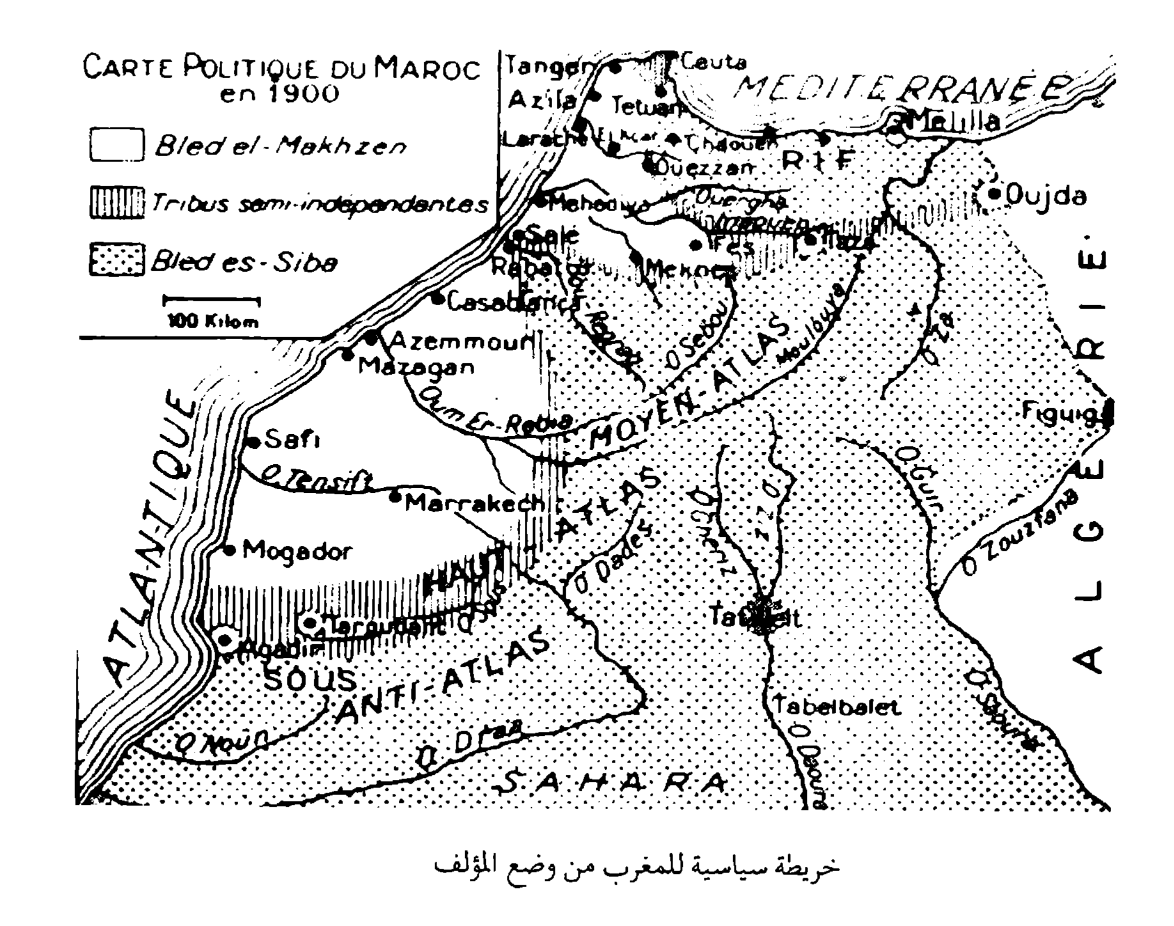
الفصل الثالث

السكان البدو

إذا كانت الدار البيضاء لا تسعف كثيراً في دراسة المجتمع الحضري فإنها تعتبر مرصداً متميزاً لمعاينة الأوساط القروية التي تحيط بها والتي منها تنحدر معظم ساكنتها. والدار البيضاء تقع وسطاً بين مديني طنجة والصويرة وفي جوار قبيلتيّ زعير وأزمور الداخلتين في منطقة السيبة. وتقوم مركزاً لاثنتي عشرة قبيلة تشكل اتحاد الشاوية، وصلة وصل بين قبائل الغرب في الشمال وقبائل الحوز في الجنوب وهي القبائل التي تشكل مجتمعة معظم بلاد المخزن، أو القسم المخضع من الإمبراطورية الشريفة.

والمغرب بلد معظم ساكنته من البربر. ففي الشمال منه يوجد البربر الأقحاح أو الريفيون، ويوجد البرابر في وسطه والشلوح في جنوبه. وقد كان إسلام البربر إسلاماً سطحياً، لكنهم لم يتعربوا، وهم يشغلون ثلاثة أرباع مساحة المغرب، بما فيها جبال الريف والأطلس وقسم من السهول المجاورة؛ حيث أفلحوا طوال ألفي سنة في مقاومة كل اختراق أجنبي والذود عن استقلالهم وحماية لغتهم، وتقاليدهم ومعتقداتهم المخالفة في معظمها للإسلام المحافظ.

لكن ليس الشأن كذلك عند ساكنة السهول الأطلنتية وساكنة قسم من حوض ملوية. فقد مرت عليها غارات عقبة بن نافع وموسى بن نصير في القرنين السابع والثامن الميلاديين مرور الأعاصير، وإن لم تترك لمرورها من أثر غير القرآن. ثم كان الاجتياح الهلالي الكبير الذي تعرضت له في



خريطة سياسية للمغرب من وضع المؤلف

القرن الحادي عشر، فألقى إلى المغرب بمآت الآلاف من العرب وأدخل تغييراً بيّناً على عادات سكانها. فقد امتزج الأهالي بالفاتحين وأخذوا عنهم لغتهم واكتسبوا عاداتهم. واكتمل اعتناقهم للإسلام برد الفعل الذي قابلوا به الغزو البرتغالي والإسباني لسواحل المغرب في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

غير أنهم ظلوا من الناحية العرقية برابر أقحاحاً. فقد ورثوا العناد والخشونة عن أسلافهم الأصليين، وعنهم أخذوا كذلك مظهرهم الخارجي. فلا يقف المرء عندهم إلا استثناء على تلك الوجوه العقفاء من النوع العربي وهي الشائعة في بقية بلدان شمال إفريقيا وأشد شيوعاً في بلاد المشرق ولا تطالعه تلك الوجوه ولو عند القبائل التي تزعم لنفسها أنها من ذات الأصول العربية الأصيلة؛ كقبائل تيكنة وعرب سايس أو أمالات وجدة ولا تصادفه تلك الوجوه حتى عند تلك القبائل التي تتسمى بأسماء الأقوام التي جاءت من اليمن أو من الحجاز؛ من قبيل سفيان والخلط وطليق ورياح.

والمغرب يتوزع من الناحية السياسية بين بلاد المخزن وبلاد السيبة. وكثيراً ما يُحمل هذان الوسمان التباساً على المنطقتين الناطقة إحداهما بالعربية والثانية بالأمازيغية. فأما بلاد المخزن فتمتد على ما يقرب ربع مساحة المغرب؛ أي على حوالي مائة ألف كيلومتر مربع وتضم نصف ساكنته؛ أي أنها تضم مليوني نسمة. وهي تشمل معظم القبائل المستعربة وبعض قبائل الشلوح، ولاسيما في الجنوب من المملكة. وأما بلاد السيبة فتمتد على الأرباع الثلاثة الأخرى من المغرب أي على 300.000 كيلومتر مربع وتضم النصف الآخر من ساكنته، أي مليونين من الأمازيغ الأقحاح وبعض القبائل العربية أو المستعربة التي تتنقل بين الأطلس والصحراء.

والجميع في بلاد المخزن يقر بالسلطان ملكاً مطلقاً وقائداً روحياً ودنيوياً. وقد كانت سائر دواليب الحكومة الشريفة وتنظيمها الإداري والعسكري والقضائي والضريبي تسير سيراً طبيعياً في هذه المناطق. فالقبيلة، تلك الوحدة الإدارية، يقوم على تسييرها في هذه البلاد قايدٌ يعينه السلطان، ويقوم القايد هو الآخر بتعيين خليفته أو مساعده وكتابه وجباة الضرائب والشيوخ الذين يمثلون السلطة في أقسام القبيلة وفي الدواوير. ويكون لكل قبيلة من الناحية المبدئية قايدها، وأما في الواقع فإن سلطة القايد تمتد في معظم الأحيان لتشمل قبائل كثيرة، عدا أن بعض القبائل تكون تتوزعها قيادات عديدة.

ويميَّز في قبائل بلاد المخزن بين قبائل الكيش والقبائل المسماة النايبة. فأما القبائل الأولى، والتي سوف نعود إليها بالحديث المستفيض في ما يقبل فهي قبائل عسكرية قد خوِّل لها استغلال الأراضي التي جرى توطينها عليها. وأما ما عداها من القبائل فقد كانت تؤدي لنايبة، وهي نوع من الكراء تؤديه هذه القبائل عن الأراضي التي تنتفع منها بصورة جماعية، عدا أنها تؤدي الضرائب الشرعية. وأما مبلغ تلك الضريبة العقارية وموعدها وعدد المرات التي تؤدى فيها فأمور ترتهن بمشيئة السلطان وهوى القياد.

فإذا تلقى القايد رسالة في شأن الفريضة؛ أي الأمر بدفع مبلغ معين عن النايبة، غير المحددة والواجبة على القبيلة، عمد إلى مضاعفة مبلغ تلك الفريضة بتوجيه الأمر الشريف إلى شيوخه، ويفعل هؤلاء مثل فعله عند تقسيمهم الضريبة على الكوانين الداخلة ضمن فخداتهم. ويؤول الأمر بالملزم بأداء الضريبة إلى أن يسدد أربعة أضعاف المبلغ الذي أوجبه عليه المخزن المركزي وأربعة أضعاف ما يؤدى فعلياً لبيت المال. وهذا أمر لا يغيب عن بال السلطان، لكنه يجد فيه منفعته، فتراه يقوم بمصادرة أموال القياد بعد موتهم، أو عندما يرى أنهم قد أكلوا من الأموال حتى أتخموا.

وأما أسلوب القياد في العمل فهو في ما عدا ذلك أسلوب يجد له الكثير من التسويغات؛ بحكم أنهم قد اشتروا الوظيفة التي هم فيها وأنهم لا يؤدى لهم عنها من أجر. وحيث إن الظفر بمنصب القيادة يعود إلى أكبر مزايد فقد كان كثيراً ما يكلف هؤلاء تولي تلك القيادات الأموال الطائلة ناهيك عن الرشاوى يقدمونها للوزراء وموظفي القصر. وعموماً فقد كان يتحتم على القياد أن يخضعوا للمرابين من أجل الوصول إلى أهدافهم. وقد عرفنا منهم واحداً - ولم يكن الوحيد - أوصى عليه أحد الأوروبيين ليتسنى له أن يستغل منصبه في القيادة.

فإذا عاد القايد الجديد من هؤلاء إلى قبيلته لم يكن نصب عينيه غير هدف واحد : أن يستعيد ما أنفق من أموال ويستغل وضعه ما طال له المقام فيه للإثراء مما يغنم له زبانيته. ولم تكن النايبة هي الوسيلة الوحيدة للوفاء بهذا الغرض، بل كانت هنالك وسائل أخرى كثيرة نذكر منها التويزة؛ وهي أن يقوم القايد بحرث أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الجماعية للقبيلة وزرعها بطريق السخرة، ويستعمل فيها بذوراً يحصل عليها من القبائل التي تدخل تحت سلطته. وكذلك يشترك القايد مع قطاع الطريق وسراق المواشي ويعمد إلى التذرع بشتى الذرائع لاعتقال الأشخاص الذين يتوسم فيهم القدرة على دفع الفديات العظيمة أو يخرج فيهم إلى السلب الصراح.

لقد كان الشطط في استعمال السلطة والظلم وأشكال الابتزاز والاغتصاب هي كل الوجوه التي تتجلى بها السلطة، ولم يكن يمنعها غير الخوف من المخزن المركزي، إذ يقوم في بعض الأحيان بتجريد القياد الذين أفرطوا في «الأكل»، أو الخوف من تمرد القبائل. وقد كانت هذه القبائل تتحلى عامة بصبر عجيب. لكن كان يتفق لبعضها، حتى من

تلك الداخلة ضمن بلاد المخزن أن تضيق ذرعاً بتلك التجاوزات فتمتنع من أداء الضريبة وتخرج إلى التمرد؛ بيد أنه تمرد يظل في معظم الأحيان محصوراً في مواضعه. فالقايد يطلب بعض الجنود من المخزن فيجتاح أرض القبيلة العاصية ويغصبها قطعان الماشية وينهبها المحاصيل ويعتقل من أفرادها ويقطع رؤوس بعضهم. ثم يكون التفاوض، أو يكون أحياناً عزل القايد المبغوض. فتعود القبيلة إلى الطاعة وتؤدي الضريبة وتزيد عليها الغرامة. ولا تلبث الأمور أن تعود إلى سيرتها الأولى.

وقد يحدث في أحيان أخرى أن يتسع نطاق العصيان ليعم منطقة من المناطق. فإذا القبائل تطرد قيادها أو تقتلهم وتنهب قصباتهم وتخربها وتعلن دخولها في السيبة. فيخرج السلطان حينئذ في حرْكة على رأس محلة عظيمة لتأديب المتمردين. كذلك حدث في سنة 1897 على أثر تمرد الرحامنة الذي صار في استشراء حتى عم مناطق السراغنة وتادلة وقبائل الشاوية في الجنوب. ولقد واتتني الفرصة بالمشاركة في تلك العملية الحاذقة التي وجهها السلطان على رعاياه من المتمردين، وسوف أعود إلى الحديث عنها في الفصول القابلة.

وعلى خلاف ما ذكرنا تماماً هي الوضعية في بلاد السيبة، التي وإن كانت تقر في عمومها بالسلطان قائدها الروحي، فإنها لا تسلم بسيادته الدنيوية ولا تتحمل لديها أياً من أجهزة الإدارة االشريفة.

والوحدة السياسية عند الأمازيغ هي الجماعة؛ أي الاتحاد القائم بين عدد معين من الأسر ذات الأصل المشترك، وتعيش في دوار، أو في قصر أو في دشر، ويحكم هذه الجماعاتِ مجلس للشيوخ أو الأعيان يتولى جميعٍ الشؤون من مدنية، وجنائية وسياسية، ومالية ويقضي بين الناس وفقا للعرف الأمازيغي. ويلقب الرئيس المنتخب لهذا المجلس بـ«أمغار»، أو

بـ «الشيخ الرئيس»، لكنه لايكون في معظم الأحيان غير منفِّذ للقرارات التي يتخذها المجلس المذكور.

وتنقسم العشائر الأمازيغية إلى صفوف، أو أطراف متعادية تتنازع السيادة وكثيراً ما تقاتل بعضها بالخناجر. غير أن وجودها وسط عشائر معادية يجعلها تعقد مع عشائر أخرى، ولو من البعيدة عنها أحياناً تحالفات هجومية ودفاعية سرية تعرف باسم اللف. وربما عقدت تلك التحالفات مع القبائل المستعربة من ساكنة السهول. ومن قبيل ذلك أن قايد كندافة كان يدخل ضمن لف يشمل بعض فخدات الرحامنة، وأن قسماً من الشياظمة في ناحية الصويرة كان يدخل في لف المتوكي. وقد يكون لا يزال لهذه العصب والرابطات وجود إلى اليوم. وأمكننا أن نلاحظ خلال الحرب العالمية حدوث تقارب بين بعض القبائل في المناطق الساحلية من الحوز تابعة لقايدي الجنوب الكبيرين. وكان تدبير هذه الانشقاقات وهذه التوافقات في أساس السياسة التي ينتهجها المخزن نحو بلاد السيبة ونحو قبائل بلاد المخزن. ولئن لم تعد هذه السياسة باللازمة اليوم لزومها في الماضي، فإنها لا تزال مفيدة للفرنسيين عظيم الفائدة؛ فهي تسمح لهم بفهم بعض الحركات وإبطال بعض المؤامرات وتجنبهم الوقوع في الكثير من الأخطاء.

والعشائر الأمازيغية تكون في حالة حرب دائمة في ما بينها، لكن ما أن تستشعر خطراً من الأخطار الخارجية يتهددها حتى تجنح إلى الهدنة في نزاعاتها الداخلية. فتتداعى الجماعات حينئذ بنار توقد في أعالي الجبال وتجتمع في مواضع معلومة لتعقد في ما بينها الاتفاقات تبعاً لطقوس خاصة كتبادل رجالها البرانس في ما بينهم. ثم ينتخب أفراد تلك الجماعات رئيساً للحرب يقومون له بالطاعة والخضوع خلال المدة التي يستغرقها

ذلك الخطر المشترك. وتُجعَل في عمامة هذا الرئيس، أو في الشريط الذي يحف به رأسه، طاقة عشب، أو قنزعة، تقوم له علامة على القيادة. لكن سلطة هذا الشيخ تنتهي عامة بانتهاء تلك الحرب.

كذلك كانت الحالة الاجتماعية لقبائل البربر في الشمال؛ الريفية كقبائل بني وراين وآيت يوسي وآيت سغروشن وسواها. وقد درجت قبائل أخرى في وسط المغرب على الإقرار وراثياً بسلطة القادة الدائمين كموحى أو حمو، قايد التحالف الكبير لزايان؛ ذلك الرجل الشبيه بفرسنجيتوركس أمازيغي. ثم إن الشلوح في الجنوب كان أكثر خضوعهم لقياد الأطلس العظام الذين كانوا يولَّون من قبل السلطان.

ويعتبر الأمازيغ من الناحية الدينية على إسلام غير مكين؛ فلا يكاد الطلاء الإسلامي يغطي معتقداتهم البدائية، ناهيك عن التمائم التي لا تزال تجد لها عندهم نماذج كثيرة قد كتب لها البقاء، وتقديس الشرفاء والأولياء أمواتاً وأحياء، وهي أمور يحرمها الإسلام المحافظ، لكنها عندهم من القوة كأنها عبادة أوثان حقيقية. ولو أرسلت بعض القبائل الأمازيغية إلى السطان هدايا في بعض الأعياد الدينية فإنما تفعل للإفادة من مكرمات تلك الهبة اللدنية، البركة التي تصدر عن شخص الشريف المتوج.

ثم إن البربر يكونون على استعداد دائم لأن يرسلوا إلى السلطان بالمؤونة وبالمقاتلين في ما يخرج إليه من جهاد الكفار، غير أنهم لم يكونوا يقعدون عن الانقلاب عليه إن هو تعرض لاستقلاليتهم أو أخل بأداء وظائفه في الدفاع عن دار الإسلام، وتكون ثورتهم عليه أشد وأعظم إن هو سلم البلاد إلى الغزاة.

ولئن كان نفوذ الشرفاء والأولياء أمراً ثابتاً في جميع أنحاء المغرب فإنه يزيد قوة في بلاد البربر. فزواياهم تعيش على الصدقات التي يمدها بها

المنتسبون إليها وعلى استغلال ممتلكاتها وهي تكون في معظمها شديدة الاتساع. وهذه الزوايا أشبه بالأديرة اللادينية؛ فهي تقوم أماكن للتعبد ومدارس ومأوي وملاجئ ما جعل لها الإشعاع الواسع. بيد أن تأثيرها مع ما يصير له قوة عندما يثيرها اجتياح الغزاة، لا يلبث أن يضعف متى عن لها أن توظفه لفائدتها. والحال أن هذه الزوايا كانت ولا تزال مقسمة بفعل ما يعتمل فيها من تنافسات عميقة. ولذلك فكما أن فرنسا في حاجة إلى سياسة لتعامل بها الألفاف، فإن حاجتها كذلك في سياسة تعامل بها الزوايا، ليس للعون الفعلي الذي يمكن أن يجده الفرنسيون منها، وإنما كذلك للضرر الذي يمكن أن تجنبهم إياه، لكن بشرط أن يتحاشوا التعرض لها بسوء.

ولا تتداخل حدود بلاد المخزن مع حدود بلاد السيبة. فالمغرب المطيع تفصله عن المغرب السائب مسافة متنوعة السعة، هي شبيهة بمنطقة نفوذ ليس للسلطان عليها غير سلطة محدودة، وهي سلطة لا يفتأ مداها يتسع أو يضيق باستمرار لفائدة السلطة الشريفة أو ضدها.

وكان قياد المخزن لا يزالون يقومون بعمل فعال في بعض القبائل الواقعة في هذه المنطقة الوسيطة، فيما لم يعد لهم دور كبير يقومون به في قبائل أخرى. وهنالك فئة ثالثة من القبائل حيث أصبح السلطان يقتصر على تنصيب القياد الذين تختارهم الرعية بمطلق الحرية. وقد كانت بعض هذه القبائل تؤدي الضرائب الشرعية، لكنها لا تدفع النايبة قط، وبعضها يتلقى المؤونة من المخزن لقتال القبائل المتمردة.

والمخزن يتخذ له الإقليم الذي تشغله هذه القبائل شبه المستقلة والموزع على السهل والجبل، ستاراً يقوم من خلاله بسوس سهول الغرب والحوز الخفيضة واستغلالها، وهي التي يستمد منها معظم موارده. وقد تأكد

للسلاطين استحالة أن يبسطوا الأساليب التي يتبعونها في سوس القبائل المطيعة إلى البلاد المتمردة. وقد يفلح الأقوى من بين هؤلاء السلاطين أحياناً في تحريك ذلك الستار عن موضعه والنيل من التكتل الأمازيغي لكن لم يخطر ببال سلاطين المغرب قط أن يزيلوا ذلك الحد؛ فقد كان يستجيب عندهم إلى ضرورة سياسية.

الفصل الرابع

محلة السلطان

كان نزولي بالمغرب أواخر سنة 1896. وقد أقمت منذئذ في الدار البيضاء وفيها لبثت فيها مدة قاربت السنة، مشتغلاً بالطب في ظروف لو قصصتها على أطباء اليوم لقابلوا كلامي بالسخرية. وقد كان لي زميلان في هذه المهنة وكانا يلقيان هما الاثنان الدعم والمساعدة؛ أحدهما من الحكومة الإسبانية، والآخر من جمعية بعثات في لندن. وكان الزبناء الأوروبيون قليلي عدد، وقد درج اليهود على الاشتغال بالعلاجات الطبية، فهم يكتفون فيها بالأسعار الزهيدة (لا يتعدى عائدهم السنوي عن الأسرة الواحدة 20 إلى 25 دورو). وكانوا شديدي التساهل في تحصيل مستحقاتهم. وأما المسلمون فلم يكن قد أصبح من عادتهم بعد أن يقبلوا بكثرة على الأطباء الأوروبيين، وأحرى أن يؤدوا لهم مقابل ما يتلقون من علاجات. لذلك كانت العوائد المالية على هؤلاء الأطباء هزيلة.

وقد صار الأهالي منذ بعض الوقت لاحديث لهم إلا عن حرْكة السلطان المعلومة التي نزل فيها على الرحامنة ومسفيوة والسراغنة وآيت الربع و«أكلها»، ثم جاء ينصب محلته في صخرة الدجاجة جنوبي الشاوية وعلى مضارب امزاب وبني خيران وورديغة المتمردة. وكان الجميع يتحدث في وجل عن القمع الشديد الذي كان ينزله الصدر الأعظم أحمد بن موسى المعروف بباحماد الرهيب، بالقبائل العصية. وقد أمكنني أن أتحقق أثناء جولة لي في مدينة الرباط من صدق ما كانوا يلهجون به في هذا

الأمر وخلو حديثهم من المبالغة والتهويل؛ إذ وقفت على سجون الأوداية فوجدتها تعج بالمساجين الجوعى ورأيت باب الأحد مكللاً بأربعين من رؤوس المتمردين.

في تلك الأثناء؛ أي في أواخر شهر دجنبر من سنة 1897، أرسل حاكم الدار البيضاء في طلبي، فلما جئته سألني في نفاد صبر إن كنت مستعداً للتوجه فوراً وفي الحال إلى المعسكر الشريف؛ حيث كان الصدر الأعظم في حالة شديدة من المرض، وعرض عليّ أجراً يومياً من مائة بسيطة، فضلاً عن المؤنة لي ولمن معي من رجال وما بيدي من دواب.

لست في حاجة إلى أن أصف لكم سرعة استجابتي إلى تلك الدعوة التي ستتيح لي أن أذهب لرؤية السلطان وبلاطه وجيشه، وأن أجتاز منطقة كانت لا تزال لم يقيض لها الاستكشاف. عدا أن تلك الدعوة كانت تعفيني من وضع فاتورات بالأتعاب وتتبُّع سدادها.

وفي عشية رأس السنة خرجت أريد المعسكر، وبمعيتي خادمان قد ركبا بغلين وحمالان ودابتاهما وفارس أمدني بي الحاكم ليكون لي مرشداً وخافراً. فكانت رحلة شديدة العناء كثيرة الاضطراب، بفعل سوء أحوال الطقس أولاً، ثم بسبب انعدام الأمن في منطقة يعيث فيها اللصوص من البدو وقطاع الطرق من الجيش الشريف. وما بلغنا المحلة إلا في مساء 27 دجنبر.

ما كدنا نرتقي المرتفع الأخير الذي يفصلنا عن المحلة حتى توقفت بحصاني فجأة مأخوذاً بالمشهد العظيم الذي لاح لناظري. فقد بدا لي تحت أقدامي في مدرج فسيح تحوطه مرتفعات صخرية تجمعٌ هائل من الخيام الرمادية تصاعد منها أدخنة نيران المعسكر ممتزجة بخليط من الضجيج والضوضاء يحدثها الرجال والدواب. إن ما رأيت كان أشبه بمدينة من

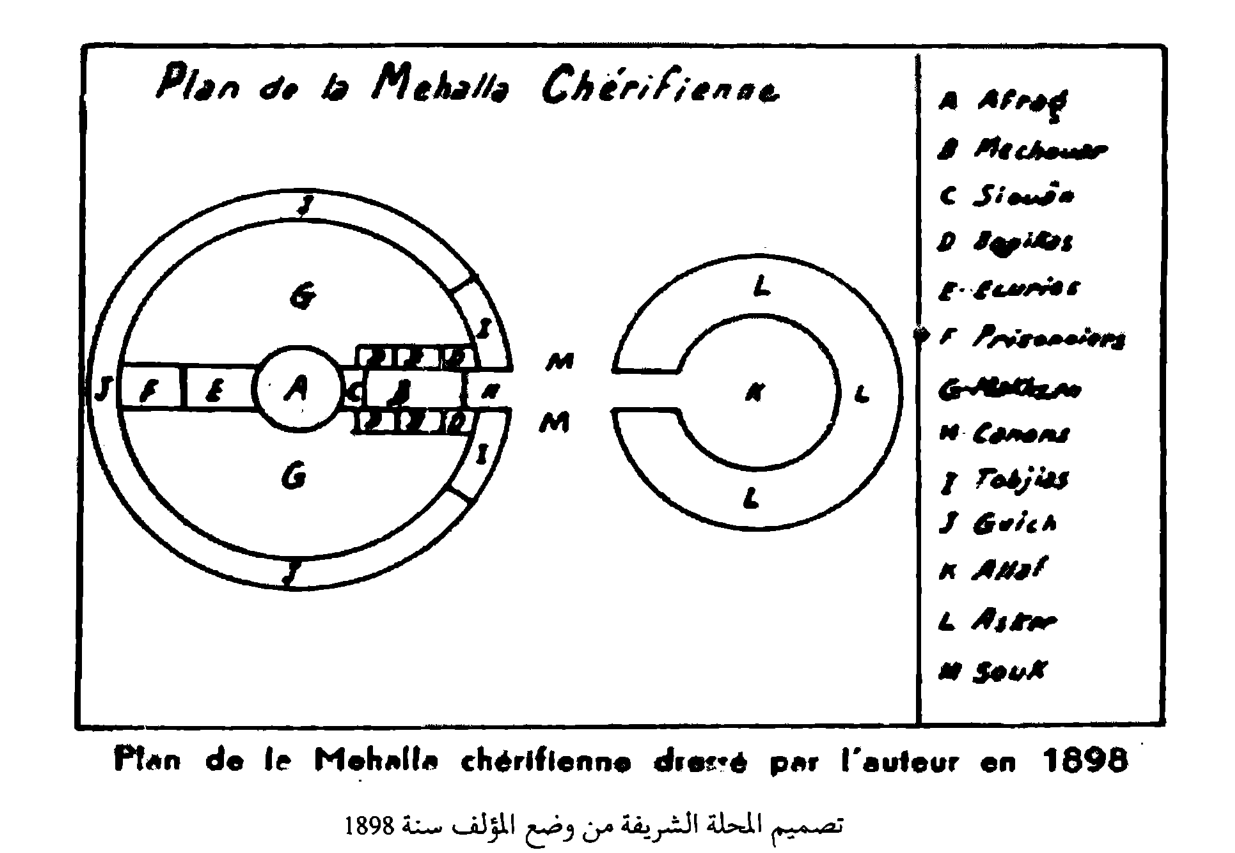
قماش قد اكتنفتها ظلال الغروب، ولم تعد تلمع فيها غير الكرة المذهبة التي تعلو الخيمة السلطانية، بما ينعكس عليها من أشعة الشمس الغاربة.

سبقني الفارس الذي جعله الحاكم برفقتي ليخبر بقدومي. فلما جئت المخيم وجدت خيمتين قد نصبتا لأجلي، يقوم على حراستهما مخزنيان من مخازنية الصدر الأعظم، قد جعلا لخدمتي، ومؤونة وافرة للترحاب بمقدمي قد اشتملت على خروفين ودزينة دجاج ومؤونة وافرة من الكسكس الجاف والخضر والفواكه والبيض والزبدة والعسل والشاي وقدر وافر من السكر وعلب الشمع والفحم والشعير لإطعام دوابي.

لم تكن التقاليد المرعية تسمح لي بمقابلة السلطان إلا بعد ثلاثة أيام من وصولي ؛ فهذا أتاح لي متسعاً من الوقت للتعرف على موقع المخيم. ولقد ظل مظهره مصدر استغراب لديّ، لكن لأسباب أخرى غير تلك التي أثارتني فيه أول الأمر.

كانت المحلة تعسكر في المكان نفسه منذ ما يقرب من شهرين، وإذا الأرض، بما تهاطل عليها من الأمطار الغزيرة، التي لا تتوقف، وما وطئها من أقدام آلاف الرجال والدواب واتسخت بها، ما عادت سوى بركة هائلة من الوحل العفن النتن يُغرق الخيام. وما عاد بمقدور المرء أن يخطو خطوة واحدة في هذه الأرض إلا أن يكون راكباً. بل إن الجياد نفسها كانت في بعض الأحيان تغوص حتى تطويها تلك العجينة المغثية، تطفو فوقها مآت من جثث الإبل والجياد والبغال المتعفنة والمنتفخة في مشهد غاية في القبح والشناعة.

وزادت هذه الوضعية سوءاً بعد وصولنا. فقد أمطرت مدراراً حتى لم تكد تفتر للحظة، وكانت الحرارة تتراوح في هذا الموقع البالغ ارتفاعه 800 متر ما بين 0 و10 درجات مئوية. وكانت العواصف كثيراً ما تقلب خيامنا وقد تطوّح بها بعيداً وتتركنا عرضة لوابل من الأمطار الصقيعية.



Plan de le Mehalla chérifienne dressé par l'auteur en 1898

تصميم المحلة الشريفة من وضع المؤلف سنة 1898

تتكون المحلة من قسمين متمايزين : مخيم المخزن ومخيم العسكر. فأما المخيم الأول، وهو أكبر الاثنين، فيقوم في الناحية الغربية على هيئة دائرة من حوالي 4 كيلومترات مربعة. وتقوم في الوسط منه قبة السلطان الكبيرة فوق ربوة صغيرة؛ وهي قبة فسيحة أشبه بسيرك متنقل تعلوها كرة ضخمة مذهبة. وتحف بها من كل جانب خيام الحريم الصغيرة التي تؤوي إليها عشرون من الإماء اللواتي اصطحبهن السلطان معه في حملته. وتتصل هذه الخيام في ما بينها وتتصل بخيمة السلطان بمجازات. ويحيط بالخيام كلها أفراكْ، وهو حزام دائري من القماش في علو مترين إلى ثلاثة أمتار.

وفي الجهة الشرقية من «أفراك» يمتد ما يشبه الفناء؛ ذلك هو المشور تحف به خيام تقوم مقام البنايق أو مكاتب يأتيها الوزراء وكتابهم لتصريف الشؤون الخاصة بوزاراتهم. وفي مؤخر أفراكْ يقوم «السوان»، أو بنيقة السلطان، بيد أنه كان لا يظهر فيه إلا نادراً جداً. وتحد المشور رحبة المدفعية قد نُصب فيها ثلاثون مدفعاً من مدافعَ الميدان من كل الأنواع مصوبة جهة المشرق، وتقود إليها سبيل عريضة تقوم على جانبيها خيام الرماة.

وإلى المشور، قرب المدافع، تأتي القبائل لتقديم البيعة والولاء، وإليه يقتاد السجناء ويؤتى برؤوس المتمردين المقطوعة، يقوم بتمليحها اليهود المكلفون بهذه المهمة ثم يرسل بها إلى مختلف جهات المملكة لتعلق فوق أبواب المدن، فتكون شعاراً للغلبة وعبرة ورادعاً لمن تسول له نفسه أن يخرج على السلطة الشريفة.

وعلى الجانب الآخر، الغربي، من أفراكْ يوجد «الروا»، وهو فضاء فسيح تُعقَل فيه جياد السلطان وبغاله فتلبث في العراء. وتمتد خلف الروا أرض مكشوفة مخصصة هي الأخرى لسجناء الحرب.

وما تبقى من الحيز الداخلي من المخيم يخصص لخيام موظفي المخزن وللكثرة الكثيرة من خدام بيت السلطان؛ من خدم الخيام وخدم الكسوة والجزارين والطباخين وخدم الحمام وخدم الشاي وخدم المظلة وخدم البندقية وخدم القوس وخدم الأعلام والعازفين والسائسين والحمارين والعبيد، إلخ*. وجميعهم يأتمرون بأوامر قياد يوجد بينهم الجلاد ويتميز بوجهه البهيمي وعمامته الصفراء الهائلة. وأما جوانب معسكر المخزن، أو ما يسمى بـ«الريف»، فتشغلها مختلف القوات المجندة من الكيش وبعض القبائل التي تحظى بامتياز العسكرة وإياها.

تقام خيام العسكر على مسافة صغيرة ناحية الشرق من خيام المخزن. وفيه تعسكر مختلف قوات المشاة النظامية في دائرة عريضة يصل قطرها إلى حوالي نصف كيلومتر، من حول فضاء فارغ تقوم في وسطه خيام العلاف وهو القائد العام للجيش.

تقوم بين المعسكرين سوق قد توفرت لها جميع عناصر السوق الأهلية من تجار وكتاب عموميين ومجبرين وحكائين وبهلوانيين ومروضي أفاع إلخ. وفي هذا المكان تعيش كذلك المومسات والقرويات اللائي جئن في أثر أزواجهن السجناء عيشة البؤس والإملاق. وتتراءى لنا من فوق المرتفعات المجاورة الخيام الصغيرة التي تقيم فيها «النوايب»، وهي مراكز متقدمة للقوات المساعدة تساهم بها قبائل النايبة، وتُستبقى للمدة التي تستغرقها الحرْكة.

وقد أمكنني أن ألاحظ في ما بعد أن هذا التنظيم الذي توجد عليه المحلة كان تنظيماً ثابتاً لا يتغير وأنه يكفينا أن نرى الجامور؛ تلك الكرة المذهبة التي تشرف على قبة السلطان، والتي تحتل أعلى نقطة في المخيم لنهتدي إليه في يسر وسهولة.

* (هـ.م) يعرَفون باسم «الحنطة».

يمكن للمحلة أن تضم حوالي عشرين ألف شخص؛ بينهم خمسة عشرة ألفاً من الجنود، يتوزعون ثلثاً من فرسان «الكيش» وثلثاً من المشاة النظاميين وثلثاً من القوات المساعدة.

أقمت في رفقة العسكر بقرب مدخل المعسكر، ولم أكن أعرف بعد غير العلاف، الذي كنت أتلقى منه مؤونتي، وقد جاءه الأمر من أخيه أن يمدني بكل ما أحتاج إليه وأن يسهر على سلامتي. ولقد أدى المهمة على أحسن وجه. فقد كان يؤمن الحراسة لخيمتي في الليل؛ مسخراً لها ستة جنود؛ فهم يلبثون مقرفصين من حولها في ثلاث مجموعات. وجعل لحراستي في النهار فارسين فإذا عنَّ لي أن أبتعد قليلاً عن المخيم رافقني ما لا يقل عن اثني عشر من الحراس قد أُعطيت إليهم الأوامر بأن يلازموني ولا يغفلوا عني طرفة عين.

وفي يوم 30 من شهر دجنبر جاءني اثنان من مخازنية الصدر الأعظم في الصباح الباكر لمرافقتي عند سيدهما. فلما جئته وجدته في خيمة يتخذها له مكتباً وهو يقلب النظر في كومة هائلة من الرسائل حملها إليه الرقاصة. ثم توقف عما بين يديه لبرهة، فرحب بي وأمر لي بسطرمية من الحلفاء محشوة بالتبن، ثم عاد إلى إتمام عمله. وظل مستغرقاً فيه لما يقارب الساعتين، وهو ما أتاح لي أن أنعم النظر إليه. فقد كنت أتوقع أن أرى أمامي ما يشبه نمراً آدمياً، بيد أني رأيت باحماد الرهيب بسحنته الخلاسية وشيبه، وهيئته الدحداحة القصيرة والسمينة ووجهه الضامر ذي الملامح المجهدة بفعل المرض. لكن كلامه الموجز والقاطع، مع ما فيه من تهذيب كما هو حاله على الدوام، وحركاته الرصينة وثيابه الطويلة الفضفاضة فاقعة البياض كانت تجعله شخصاً لا يعدم هيبة ووقاراً.

جلس مقتعداً أريكة واطئة وقدامه ركام من الرسائل المطوية بالطول والمختومة بالشمع الأحمر. وإلى جواره جلس كاتبان جلسة القرفصاء الكاتب الذي إلى يمينه مكلف بشؤون الغرب والذي إلى شماله بشؤون الحوز. فكان الصدر الأعظم يتناول الرسائل واحدة واحدة، فيزيل عنها ختمها ويجيل فيها بصره بسرعة ويؤشّر عليها بقلمة إشارات خاطفة، ثم يلقي بها أمام الكاتب الذي عن يمينه أو الكاتب الذي عن يساره تبعاً لمصدر كل رسالة.

وها هو ذا قد ألقى بالرسالة الأخيرة حيث الركام الخاص بالحوز. ورفع إليّ بصره وتفحصني للحظة ثم انفرجت أساريره القاسية، وتراءى طيف ابتسامة في عينيه. ثم مد إليّ يده، واستفسر عن رحلتي وعن مستقري وسألني رغباتي، مبدياً اهتماماً كبيراً بها جميعاً. وظل طوال ذلك اللقاء الأول ممسكاً بيدي لم يتركها إلا ليسمح لي بتفحصها.

وعلى الرغم من أن باحماد كان يشكو من مرض «برايت»، فإنه لم يركن إلى الراحة، وما كان يسنح لي أن أراه قط إلا في الصباح الباكر جداً، أو بعد الثامنة مساء، وأما نهاراته فقد كان يكرسها كلها لتصريف شؤون الدولة.

وبعد ذلك صار يتعهدني بكثير من العطف، ويفيض عليّ من آيات المجاملة ويغدق عليّ من الهدايا. ففي يوم زيارتي الأولى له خصني بخيمة أجود من تلك التي كانت بحوزتي؛ فهي خيمة مزدوجة القماش وقد احتوت على حشايا وزرابي. ثم توصلت منه بعد ذلك بلباس من الذي يُجعل لقايد الرحا وكل توابعه، ثم أهداني بعد ذلك جواداً وعليه سرجٍ فخيم، وأمدني في الأخير بستة بغال جيدة لحمل الأثقال لتكون لي بديلاً عن الدواب المكتراة التي كنت رددتها إلى الدار البيضاء.

لزمني أن أمضي بضعة أيام لأفهم كيف يتسنى الحصول على الطاعة من منطقة من المناطق وكيف تتم «تهدئتـ»ـها. ثم صرت أدرك كيف يتحقق هذا الأمر. فقد كانت المحلة تنزل على مقربة من القبيلة المراد معاقبتها، أو تنزل في وسطها، ثم تأخذ في دفع أذرعها كأنها أخطبوط في جميع الاتجاهات، على هيئة سوقات وفيالق بأعداد لا يستهان بها، تشرع في الإغارة على القبيلة فخدة بعد فخدة، ثم تأتي إلى المعسكر السلطاني بالسجناء وقطعان الماشية والحبوب التي أفلحت في الاستيلاء عليها.

عندما وصلت إلى صخرة الدجاجة كانت تلك الكتائب قد حولت نواحيها إلى صحراء شاسعة؛ فلا ترى فيها ساكناً و لا رأساً من الماشية ولا مطمورة من الحبوب؛ فالناس يتقاسمون الحبوب التي كانت السوقات العسكرية لا تزال تفلح في الحصول عليها وتأتي بها في قوافل، والدواب تقنع بالكلإ الفقير الذي كانت تقع عليه في التلال المجاورة، فهي لذلك كانت تنفق بالمآت وتتكوم جثثها فتنشر الوباء في المعسكر.

وبَيْنَا كنت أتجول ذات يوم على ضفاف الجدول الذي يحف بالمعسكر في صعيد وادي المالح الذي يصب في البحر بالقرب من فضالة، إذ وجدته مختنقاً تماماً بما تكدس فيه من جيَف، ورأيت «الكرَّابة»، المكلفين بتزويد الجنود بالماء الشروب، كيف كانوا يملأون قربهم في اطمئنان وخلو بال من مصب ذلك الماء النتن. وقد تدخلت لدى الصدر الأعظم في هذا الأمر فأمر بالإقلاع عنه.

كان البؤس عاماً، لكن يحدث بين الفينة والأخرى أن تشط إحدى السوقات في حملتها حتى تبلغ المناطق الجبلية للأعشاش والمداكرة التي يلوذ بها البدو بقطعانهم، فتعود إلى المعسكر محملة بالغنائم والرؤوس المدماة في القرابيس وفوق أسنة الرماح، وتدفع أمامها زرافات من المساجين وقطعاناً

من الماشية. فإذا جاءت المعسكر أقيمت الحفلات على شرف الجنود الظافرين الذين حملوا إليه رفاهية عابرة لن تعمر لأكثر من يومين.

وكان المخزن في بداية تلك الحملة يدفع ثمانية دوروات عن كل سجين وأربعة دوروات (أي حوالي 15 فرنكاً) عن الرأس تُقطَع للمتمرد من المتمردين ثم ما عاد يدفع اليوم غير نصف ذلك المبلغ، بيد أن المقابل الحالي لا يزال كافياً لإثارة حمية الجنود.

كان «البرّاح» يطوف بالعبيد المأسورين، وربما كان بينهم بعض النساء والأطفال البيض من الأحرار، على الخيام خيمة خيمة، فيبيع منهم لأعلى مزايد. وأكثر ما يكون المشترون من موظفي المخزن. وقد اتفق لي أن رأيت واحداً منهم اشترى بدوية في مقتبل العمر ودفع فيها عشرين دورو.

وأما السجناء من الذكور البالغين فقد كانوا يوضعون في زرائب تقام خلف إسطبلات السلطان لوقت يطول أو يقصر، في انتظار أن تؤدى عنهم الفديات المطلوبة، أو ينقلوا إلى سجون مراكش أو الرباط أو الصويرة. واتفق أن ضم معسكرنا في بعض الأوقات قرابة ستمائة من هؤلاء التعساء، قد أوثقوا إلى بعضهم بسلسلة متينة مررت خلال حلقات غل حديدي تطوق أعناقهم. وقد لُفت تلك السلسلة على السجينين المشدودين إلى طرفيها على هيئة محور، فكان أولئك التعساء شبه العراة، بل إن منهم من كان عارياً تماماً، يلبثون مشدودين لصق بعضهم ومقرفصين، وهم يرتعدون في حمأة من الوحل والبراز، وتحت وابل من الأمطار الطوفانية والبرد القارس. ولم يكن يقدم إليهم من الطعام غير بجماط فقير من الحنطة المجروشة. ولا كانت تفك عنهم تلك السلسلة غير مرة واحدة في اليوم ليوزع عليهم من ذلك البجماط، وتُنتهز تلك الفسحة لإزالة الهالكين من بينهم. وقد أسرّ إليّ القايد المكلف بحراستهم أنه قد هلك منهم في ما لا يزيد عن أربعة

أيام نحو مائة سجين؛ قضى معظمهم اختناقاً. وقد كانت لي تدخلات لدى الصدر الأعظم أسفرت عن بعض تحسين في تلك المعاملة للسجناء ومدهم ببعض الثياب. بيد أن تلك التدخلات لم تجد نفعاً في تغيير العادة المتأصلة في استعمال تلك السلسلة اللولبية.

ثم كانت آخر غزوة، وتلتها آخر مأدبة فاخرة، في 15 يناير أو نحوه. وعاد البؤس المدقع. وحتى لقد آل الأمر بالناس إلى أن أصبحوا يقتلون الحيوانات المهددة بالهلاك من جراء المرض أو من شدة الجوع، وحتى لقد صاروا يطعمون لحوم الماشية التي كانت تنفق قبل أن يتسنى لهم ذبحها على الطريقة الشرعية.

لم يبق للناس غير مورد وحيد؛ إنه النهب يوقعونه على القوافل القليلة التي كانت لا تزال تجرؤ على المغامرة بالمرور بنواحي المعسكر. فكان الجنود يجوبون تلك الأنحاء في عصابات كأنهم ذئاب جائعة، والويل للمسافرين أو التجار المسالمين الذين يقعون بين أيديهم! فقد كانوا يعمدون إلى قتل الجمال ليطعموا لحمها، وأما أصحاب القوافل والمسافرين فإن أقل مقاومة تبدر منهم كانت تؤدي إلى قطع رؤوسهم لتنضاف إلى رؤوس المتمردين. ومن قبيل ذلك أننا شهدنا ذات يوم من جاء برأس رجل في مقتبل العمر هو ابن لأحد القياد، وقد كان ترك المعسكر بعد أن أمضى فيه بضعة أيام إلى جوار والده. وعلى هذا النحو اختفى كذلك جمّالان كنت أرسلتهما إلى الدار البيضاء ليأتياني منها ببعض الأغراض وشيء من المؤن.

واستحالت التجارة، وانقطع التجار عن المجيء إلى المحلة فعرفت أسعار المواد الأساسية كالسكر والشاي والسميد والملح والشمع إلخ... ارتفاعاً مهولاً أو انعدمت بالكلية. فكانت المجاعة بكل ما تحفل من أهوال.

ورأى الصدر الأعظم في آخر الأمر أن المنطقة «هدأت» كفاية؛ فلقد عم الخراب البلاد وهلك السكان، ومن بقي منهم جاءوا، وقد انحدروا إلى أحط دركات الفاقة والعوز، لتقديم فروض الطاعة تحت تهديد المدافع فحصلوا على عفو السلطان، بعد أن أدّوا آخر ما بقي بحوزتهم من قروش في مساهمات وغرامات وفديات.

وعاد الأمن والاستقرار إلى بني خيران وورديغة والأعشاش، ولم يبق للمحلة إلا أن «تأكل» مختلف فخدات امزاب والمزامزة قبل أن تدخل مراكش.

الفصل الخامس

المخزن المركزي

صرت بفضل مقامي في صخرة الدجاجة أنفذ إلى دواليب المخزن وأتعرف على أهم ممثليه، باستثناء السلطان نفسه، الذي كانت أول رؤيتي له يوم أن كان يجري طيُّ خيام المعسكر استعداداً للرحيل.

ولد مولاي عبد العزيز في 24 فبراير 1878؛ فكان يومها يقترب من العشرين. وقد كان طويل القامة متناسق الهيئة رقيق المحيا مليحه، تمازجه سمرة ويحف به بعض زغب وتزينه لحية ناشئة. لكن ملامحه الرقيقة وذقنه شديد الانحدار تنم عن طبع فاتر قليل حيوية. ومولاي عبد العزيز ابن لأمة شركسية ما جعله يظل على الدوام أكثر أبناء مولاي الحسن الاثني عشر إيثاراً عنده، حتى لقد عينه خليفة له في الملك.

توفي مولاي الحسن في تادلة في 7 يونيو 1894. وقد بقيت وفاته طي الكتمان لعدة أيام بفضل مكيدة دبرها سي أحمد بن موسى. وأسرع البلاط والجيش يخفرون رفات السلطان يحسبونه مريضاً في محفة مقفلة وتوجهوا به إلى الرباط؛ حيث كان مولاي عبد العزيز، وهو يومئذ في السادسة عشرة من عمره ينتظر والده.

ودبر سي أحمد بن موسى انقلاباً جريئاً، فاعتقل الصدر الأعظم واستأثر بمقاليد الحكم، وتم له بفضل الدعم الذي لقيه من الجيش ومن غالبية شرفاء فاس وعلمائها، وبسبب ما كان عليه الأخوان الأكبران للأمير الصغير من افتقار إلى الشعبية، أن يحصل على البيعة لهذا الأخير. وبذلك

تأتى له أن يحد من الاضطرابات تطبع في العادة فترة خلو العرش التي تعقب عامة وفاة السلاطين.

لقد صار قياد السطان الشاب بيد هذا الرجل الذي نصب نفسه وصياً عليه. وكان أولَ فعلَ مولاي عبد العزيز أن توجه إلى ضريح مولاي إدريس مهد الأسرة الشريفة ومثوى مؤسسها، ثم توجه بعد ذلك إلى مكناس ومنها إلى فاس. فكان حيثما حل تتلقاه الحشود بالهتاف. فلما اطمأن إلى خضوع مدن الشمال وقبائله، توجه إلى مراكش التي كانت مقر إقامته الدائمة إلى ذلك العهد. وهناك، وبينما كان سي أحمد يحكم المغرب حكم السيد المطلق أمضى مولاي عبد العزيز السنوات الثلاث الأولى من حكمه في كسل وخمول. فقد لبث منعزلاً بين حريمه لا يُنتزع من وسطهن إلا كما يُخرج القديس من مثواه ليُعرض على شعبه في الأعياد الدينية. فلم تكن تربطه بالعالم الخارجي غير علاقات رسمية محدودة تخضع لمراقبة شديدة. وقد كان سي أحمد يتلقى أمير المؤمنين وسليل البيت النبوي، على مرأى من الناس بآيات الاحترام فيما هو قد أبقى عليه في جهل تام بشؤون الدولة.

أورث مولاي الحسن ابنه إمبراطورية تنعم بالهدوء، في الظاهر على الأقل؛ فلم يتكلف السلطان الطفل في بادئ الأمر مجهوداً كبيراً ليحفظ عليها هذا الوضع. فقد أوكل إلى بعض القياد من غير ذوي النفوذ ببعض العمليات العسكرية الهينة، فأفلحوا بها في إعادة الاستقرار الذي اختل بفعل نشوب بعض الفتن المحدودة في بعض المواضع. لكن جاء الوقت الذي رأى فيه الصدر الأعظم ضرورة القيام بشخصه بحملة واسعة النطاق. ولم يشأ أن يغفل عن السلطان الشاب فاصطحبه معه في تلك الحرْكة. بيد أن مولاي عبد العزيز لم يأت في تلك المناسبة بشيء يذكر، وبقي فاقداً لأي مفعول مثلما كان شأنه إذ هو في مراكش.

أما الصدر الأعظم، وهو يعتبَر من الناحية الرسمية، الوزير الأول وموجه السياسة الداخلية للمملكة، فقد كان في واقع الأمر هو سيد المغرب الحقيقي والوحيد. وباحماد هو ابن سي موسى وزير مولاي الحسن وحفيد سي أحمد وزير سيدي محمد. وقد كان في مبتدإه عبداً لمولاي عبد الرحمان ثم صار حاجباً ومؤتمناً لمولاي الحسن، الذي أخذ منه عهداً بأن يولي من بعده ولده الصغير مولاي عبد العزيز.

ولقد رأينا كيف برّ بقسمه. فقد جاء مدينة الرباط يحمل جثمان سيده فكان أول عمله أن اعتقل ولديّ السلطان الأكبرين؛ سيدي محمد ومولاي عمر، واعتقل الصدر الأعظم الحاج المعطي الجامعي ووزير الحربية سي محمد الصغير، وجردهما من أموالهما وألقى بهما في السجن. ثم اتخذ لنفسه لقب الصدر الأعظم، واستأثر بالوصاية على العرش، وأسند كل ما عداها من المسؤوليات الوزارية إلى رجال من المخلصين له، أو من غير القادرين على الاعتراض على مشيئته، والذين صيرهم أدوات طيعة يُعملها في تنفيذ سياسته.

كان باحماد يتمتع بطاقة لا تفتر، وكان شغيلاً لا يكل أو يتعب، وكان شغوفاً بالسلطة نهماً إلى الثروة، وكان عديم الذمة مع شدة حرص على فرائض الدين، وكان ماكراً قاسياً، شديداً على أعدائه، لطيفاً بمن يختص من الأناسي بصداقته. وقد كنت واحداً من هؤلاء.

لم تكن لباحماد معرفة بأوروبا؛ فقد كان يحسب الفرنسيس والنكليز والبروس والطليان والصبنيول والبرتقيز، إلخ... لا يزيدون عن قبائل متضاربة في بر النصارى. لكن يمكن لهؤلاء الكفار مجتمعين أن يصيروا مصدر خطر ولذلك ينبغي مداراتهم ومراعاة جانبهم. وقد كان يلجأ إلى وزيره في الشؤون الخارجية ليتدبر ما يطرأ من أمور مع هؤلاء الكفار بما يخدم جانب الإسلام.



مولاي عبد العزيز

وفي المقابل كان باحماد بحكم نشأته في مدرسة مولاي الحسن، خبيراً بسوس القبائل والزوايا الدينية وخبيراً بما بينها من اءتلاف أو اختلاف وقد كان يجيد الإفادة من ذلك كله في حذق ومهارة، بما يضمن له الهيمنة على البلاد.

ولم يكن باحماد بالرجل المحبوب إلا من مجموعة صغيرة من أتباعه المتعصبين له، فيما كان الجميع يرهبونه ويتعملّون له. وقد كان يعيش في خوف دائم من أن يتعرض لاغتيال أو تسميم؛ فلم يكن يداوم على النوم في مكان واحد ولا كان يطعم إلا من الأطباق التي تأتيه مختومة من مطابخ أخيه سي سعيد بعد أن يكون حضر بنفسه تهييئها وتذوقها قبل ساعة من حملها إليه.

وأما الموظفون المخزنيون الأربعة الآخرون الذين في مرتبة الوزير فهم وزير البحر، الذي يعود لقبه إلى الفترة التي كان المغاربة يشتغلون فيها بالقرصنة. بيد أنه كان يضطلع بمهام وزير للعلاقات الخارجية، وهو من يُكلف رفقة النائب أو ممثل السلطان في طنجة بالمفاوضات التي تكون مع الموظفين الدبلوماسيين المعتمدين في المغرب، ووزير الشكايات وهو مكلف بتلقي الشكاوى الصادرة عن القبائل أو عن الخاصة في موظفي الدولة والتحقق منها وتبليغها إلى السلطان؛ أي أنه يرفعها في هذه الحالة إلى الصدر الأعظم. وأمين الأمناء أو رئيس المتصرفين وهو شبيه بمدير المالية بل أشبه بالخازن العام، تقتصر مهامه على تجميع إيرادات بيت المال وتقييد المصاريف من دون اهتمام بوضع ميزانية. ويأتي في الأخير العلاف الذي يخالف الأوروبيون الأصول إذ يترجمون لقبه بوزير الحربية، وما هو في واقع الأمر سوى أمين للصندوق مكلف بتدبير رواتب الجنود الذين يخضعون لسلطة القياد المؤتمرين مباشرة بأوامر السلطان.

وإجمالاً فإن المخزن المركزي، الذي يعود تأسيسه إلى عهد السلطان الموحدي يعقوب المنصور في أواخر القرن الثاني عشر، كان على شبه كبير ببلاط ملوك فرنسا في ذلك العهد نفسه، ولم يكن يصعب أن نقع فيه على المكافئ التقريبي للقهرمان والقائد العام والكردينال والحاجب الأكبر، إلخ.

وأما وزير البحر فهو عبد الكريم بن سليمان وهو رجل خلاسي جميل المحيا بشوشه لا تفارقه البسمة، وتحفه لحية رمادية قصيرة، وهو على كثير من من اللطف والأريحية. والرجل شديد الحذق في الإفادة من الصراعات العالمية وفي مواجهة الدول الأوروبية بعضها ببعض، مع تقديم تنازلات غير ذات أهمية لمندوبيها وتسوية مطالب رعاياها والإنصات في وقار إلى نصائحهم؛ فقد كان لطيفاً مع الجميع، وإن ظل اعتماده دائماً لكن من دون أن يبديه كثيراً، على بريطانيا التي خلصت المغرب في 1844 ثم في 1860 والتي كانت سياستها العريقة تقوم على حماية استقلال البلاد المجاورة لمضيق جبل طارق وضمان وحدتها الترابية. وقد كان باحماد مدركاً لجهله بشؤون الدبلوماسية الأجنبية فكان يتبع آراء بن سليمان ويركن إليها.

وأما وزير الشاشية، سي علي المسفيوي، فقد كان في السابق جابياً في خدمة مولاي عبد العزيز وقاضياً في البلاط، ورأس من قبل سفارة مغربية إلى باريس. وهو شيخ جميل المحيا بشوشه، ذو لحية كلحية الأنبياء ويُعرف عند الجميع بالحكمة والاتزان. وقد استشارني ذات يوم في وقْر مزمن أصاب أذنيه، فأفلحت في معالجته منه في رمشة العين بأن أخرجت من كل واحدة من أذنيه قطعة قطن طويلة كان أدخلها فيهما اتقاء لتيارات الهواء. وقد أبدا لي عظيم الامتنان على أن جعلت في مقدوره أن يعود إلى استعمال عضو بتلك الضرورة لأداء مهامه، وأجزل إليَّ الشكر بكثرة ما أرسل إليَّ من حلاوي مصنوعة من العسل.

وأما أمين الأمناء، سي عبد السلام التازي، فقد كان من قبل تاجراً إذ اشتغل بتجارة القطن في مانشستر، وكانت له أسفار كثيرة إلى البلاد الأوروبية. والرجل شيخ متفتح الذهن كان من عادته أن يرخي عوارضه ويضع نظارة بدون ماسكتين، ويدخن سيكارات ضخمة، أشبه ما يكون بجول فيري. وقد كانت وظيفته تتمثل في ضم الضرائب والوظائف ومختلف أنواع المكوس إلى بيت مال المسلمين - وهو عملياً بيت مال السلطان، وأخذ المبالغ التي تُطلَب منه في تموين بيت السلطان وتموين الجنود وإخراج المبالغ المسخرة لبناء القصور الشريفة وأداء التعويضات التي تطالب بها المفوضيات لأجل رعاياها.

وقد كانت مداخيل بيت المال تأتيه من الضرائب الشرعية المتمثلة في الزكوات والأعشار الواجبة في الدخول الفلاحية، ومن النايبة وهي نوع من الضريبة العقارية يعود تقديرها إلى مشيئة السلطان، الذي تخضع له جميع القبائل الداخلة في بلاد المخزن، في ما عدا قبائل بلاد الكيش، ومن الهدية وهي هدية إجبارية نقدية وعينة تقدمها القبائل والمدن للسلطان في الأعياد الدينية والمكوس وهي حقوق الجمرك والأبواب والأسواق والأتاوات المؤداة عن استغلال مناجم الملح وعن صيد سمك الشابل وعن شركات التبغ والكيف والتركات الشاغرة، وحصص تناسبية تُقتطع عن التركات الأخرى التي لا تعود بكاملها إلى الورثة، وناتج الغرامات التي عوضت معظم العقوبات القانونية، والغرأمات الجماعية التي تنزل بالدواوير والقبائل في حالة وقوع سرقة أو قتل في أراضيها، والفديات الفردية والإسهامات الحربية التي تُنزَل بالقبائل في ما يُتفق من حرْكات وعائد بيع الوظائف العمومية ومصادرة الأموال التي يكتسبها الموظفون من غير وجه حق، وهي مصادرة تقع إما عند وفاتهم أو عندما يرى المخزن أنهم قد «سمِنوا» كثيراً على حساب الرعية.

ومن المتعذر تكوين تصور دقيق عما تنتج كل هذه الموارد من الدخول. والمؤكد أن ربعاً، أو يزيد، من المبالغ المحصلة من المدن والقبائل، هو كل ما كان يدخل بيت المال. لكن على الرغم من الاختلاسات التي كانت تقع من الموظفين وعلى الرغم من غياب المراقبة فإن مالية المغرب كانت متوافرة. فقد أكمل مولاي الحسن للإسبان أداء مبلغ 120 مليون بسيطة برسم التعويض عن حرب تطوان (1859-1860)، وحرب مليلية (1893) وترك لولده بيت مال قد احتوى على 60 مليوناً.

وقد كنت أقصد أمين الأمناء لقبض راتبي، ولم تعترضني من صعاب. فقد كنت أرسل إليه بوصول، فيرسل إليّ بأكياس من الدوروات. وقد اتفق لي أن في بادئ الأمر أن تفحصت محتوى واحد من تلك الأكياس وكم كانت دهشتي كبيرة وأنا أجده يحتوي بانتظام على دوروات زائدة. وحسبت أن في الأمر خطأ فرددتها إلى الأمين، فعلمت منه بعد ذلك أنهم لا يعدون الدوروات بل يزنونها ويضيفون إلى كل كيس حفنة لتوفية الوزن. وقد كانت تسديدات المخزن تتم كلها على هذا المنوال، بحيث إن المرء إذا استلم كيساً موسوماً بـ 100 دورو كان موقناً من اشتماله على ما لا يقل عن 102 أو 103 من تلك الدوروات. وكثيراً ما يجده قد اشتمل على ما بين 104 و105 عندما يكون المخزني المكلف بالوزن رائق المزاج وربما اشتمل على أكثر من ذلك العدد عندما يكون هذا المخزني يطمع في الحصول على منفعة من الشخص الموجه إليه ذلك الكيس.

ويأتي في الأخير العلاف، سي سعيد بن موسى، الأخ الأصغر للصدر الأعظم، وهو رجل عظيم الهيئة شديد الإقبال على الملاذ. وقد كان يقترب من الأربعين؛ شديد الذكاء، وإن يكن متراخياً ومتكاسلاً كأنه جرد سنجابي ومتعجرف كأنه طاووس. ومن المؤكد أن الرجل لا يعي شيئاً

مما يدخل في مهامه، لكن مصدر المكانة التي يتبوأها من خضوعه المطلق لأخيه. وهو يمضي معظم وقته في مراقبة ما يحضرً من أطباق لأجل الصدر الأعظم، وتذوق ما يقدم إليه من أطعمة. وما يتبقى له من الوقت يمضيه في التلاعب بأعداد القوات - إن كان لها وجود، وهو أمر ضعيف الاحتمال - بما يمكن له أن يستحوذ على رواتب الفارين من المشاة النظاميين. على أني لم يكن لي شخصياً أي مطعَن في الرجل بل العكس هو الصحيح. فبفضل التعليمات الصارمة التي تلقاها من باحماد، لم يعوزني شيء على الإطلاق، حتى عندما بدأت البلاد تعرف الندرة في كل شيء؛ فقد أمكنني بالتقتير قليلاً على نفسي أن أقدم يد العون إلى كثير من جيراني الأقل حظوة.

وعلاوة على الوزراء كان المخزن المركزي يضم كذلك موظفين سامين يقومون على القصر السلطاني؛ فيهم الحاجب وهو أشبه بأمين القصر وحارس الخاتم الشريف وقايد المشور، وهو رئيس التشريفات وعامل دار المخزن وقائد الحرس الشريف، وفيهم كذلك كبير المحلة أي قائد المعسكر وكبير الطبجية أي رئيس الرماة.

وأما الحاجب سيدي إدريس بن موسى، وهو الأخ الثاني للصدر الأعظم فهو رفيق مرح. إنه رجل مفرط السمنة، وهو الآخر شديد الوفاء لأخيه الأكبر، قد جُعِل في أنسب مكان يتيح له إطلاعه على دقائق ما يصدر عن السلطان من أفعال أو يأتي من حركات أو سكنات وإعلامه بما يحاك من مكائد الحريم. وإليه تعود كذلك الإمرة في خدم الداخل والعبيد من الذكور. وأما الإماء فكثيرات العدد قد جعلن تحت إمرة العريفات وهن خادمات قد تجاوزن سن الأربعين ويحظين بثقة السيد.

وأما قايد المشور، سي إدريس بن المعلم، فهو رجل أسود طويل القامة عظيم الهيئة ذو صوت جهير، يقوم ناطقاً باسم السلطان في المناسبات الرسمية، وهو كذلك من يُدخل عليه السفراء، وإليه تعود الإمرة في موظفي المشور والأقسام الخارجية من دار المخزن والمشاورية المكلفين بإدخال الراغبين في مقابلة السلطان أو مقابلة الوزراء، والمسخْرية أولئك الفرسان المكلفين بحمل الرسائل.

هذا الطاقم من الخدم، سواء منهم العاملون في الداخل أو في الخارج يُتخذ من قبائل الكيش، وهم في معظمهم من الفرسان، ويشكلون حرساً للسلطان من نحو ألفي فارس.

وأما كبير المحلة المكلف بأمن المعسكر، ذلك الفارس الشاب الأنيق سي المهدي المنبهي، فهو مخزني ذو حظوة ومنزلة عند الصدر الأعظم حتى لقد عينه قايداً على قبيلته، ثم زاد إليه هذا المنصب ليكون في مقدوره أن يحيطه علماً فوراً وعلى الدوام بكل ما يحدث داخل المحلة. ثم صار المنبهي بعد ذلك أهم شخصية في جهاز المخزن.

ويأتي في الأخير القائد الأكبر لسلاح المدفعية، مولاي أحمد الصويري. وهو شيخ حفي، شديد اللطف، يحظى من التقدير والاعتبار كأنه شريف من الأشراف، وقد كان عاين في سني شبابه القصف الذي تعرضت له مدينة الصويرة من سفينة «بيل بونت»*، وقد بدأ، في قريب من هذا العهد يكتسب معارفه في مجال سلاح المدفعية.

ويشارك الكثير من الشرفاء والأولياء في الحرْكة، ونذكر من بين أهمهم وأعلاهم منزلة مولاي الأمين وسي محمد الأمراني. فأما الأول فهو شقيق جد السلطان، وأما الثاني فهو صهره. والرجلان يتمتعان بشهرة القائدين الحربيين، وبن داود ولي بجعد، الذي يدعي انتسابه إلى الخليفة عمر.

* Belle-Ponte

وأما القياد العظام فيمثلهم خاصة سي عيسى بن عمر العبدي العامل على عبدة واحمر وآسفي، وهو سيد عظيم بكل ما لهذه الكلمة من معنى. وعلى النقيض منه هو سي عبد المالك المتوكي، القايد الأمازيغي العجوز؛ ذلك الفظ الماكر المحتال المقعد من فرط داء المفاصل، وسي الطيب الكندافي المجرَّح الوجه ندوباً، الأقرب بمظهره إلى أن يكون رجل كنيسة من أن يكون رجل حرب، والباشا ابن داود، باشا مراكش، الملعون من المسلمين الأتقياء لتهتكه وتهالكه على المشروبات الروحية واستخفافه برمضان شهر الصيام.

الفصل السادس

الجيش الشريف

يقوم البناء المخزني برمته على أربعة أعمدة تشكلها قبائل الكيش وهي شراكة والأوداية والبْواخر والشراردة. وهذه القبائل ذات الأصول المختلطة هي كل ما تبقى من قوات أعظم شأناً، كان العلويون قد سخروها لهم في الاستيلاء على السلطة وضمان البقاء فيها. وقد كانت تلك القبائل هي أساس الجيش والخزان الذي تتخذ منه الحكومة موظفيها أشبه بالأرستقراطية العسكرية والإدارية. وكان الواحد من المخازنية، حتى أقلهم شأناً، من المكلفين ببعض المهام داخل قبائل النوايب، يحوز لقب القايد ويتمتع بشتى أنواع الحقوق.

وأهل الكيش مقاتلون أو موظفون أباً عن جد، وهم على استعداد دائم لخدمة المخزن المركزي، ويكون لهم الحق في المقابل في الإعفاء من الضرائب الواجبة على الأراضي التي منحت لهم في المناطق المجاورة للمدن العتيقة الأربع : فاس ومكناس والرباط ومراكش، فضلاً عن العرائش وطنجة.

وهم متأهبون للقتال عند أول استدعاء، وتمد قواتهم، ومعظمها من الخيالة، السلطان بعشرة آلاف من الفرسان. فإذا انتهت الحرْكة صُرفوا فعادوا إلى مساكنهم، في ما خلا أولئك الذين هم معدودون من الموظفين الإداريين والحرس الشريف أو الجندرمة الملحقين بعمال المدن أو ببعض القبائل المشاغبة.

فأما شراكة فينحدرون من شرق المغرب ومن منطقة تلمسان وقد جعلهم مولاي رشيد، مؤسس الدولة العلوية، في شكل كيش، مع فرقة عربية من الجيش السعدي السابق، وعناصر بربرية أخِذت من قبائل مديونة وهوارة وبني سنوس.

وأما الأوداية فقد كانت من إنشاء مولاي إسماعيل؛ ولا يدخل في تكوينهم غير عرب معقل الذين أخِذ بعضهم من تخوم الصحراء، وأخِذ جزء منهم من الجيوش السعدية المخالفة لعرب جشم، الذين كان عليهم اعتماد المرينيين.

وكان البواخر كذلك من إنشاء مولاي إسماعيل، وهم يتكونون من زنوج أخِذوا من كافة مناطق المغرب، ومن الحراثين الذين جاء بهم هذا السلطان من حملاته في أقصى جنوب المغرب. والبواخر أشبه بالمماليك والانكشارية، وقد أمكن لمولاي إسماعيل بفضلهم أن يبسط سيطرته على البربر في جنوب مكناس، لكنهم أصبحوا يشكلون خطراً كبيراً على من جاء بعده من السلاطين، بحيث لم يجد سيدي محمد بن عبد الله بداً من تشتيتهم، ومن بقي منهم كانوا يُجعلون في السوقات العسكرية في مكناس والمهدية.

وتأتي في الأخير الشراردة، وهي قبيلة تنحدر من حوز مراكش، وقد كانت خرجت إلى التمرد، فعاقبها مولاي عبد الرحمان بن هشام بنقلها إلى الشمال، ودمر زاوية الشرادي، التي لا تزال أطلالها شاخصة عند ملتقى وادي تانسيفت ووادي نفيس.

وتشكل هذه القبائل سوقات عسكرية عند أطراف المدن العتيقة في الشمال؛ كفاس ومكناس والرباط، وتعمل بصفة خاصة على قمع قبائل البربر المتمردة التي تحيط بها. وأما في الحوز حيث السكان عموماً أكثر

انقياداً وحيث لا توجد غير حامية واحدة من المخازنية في مراكش، فإن المخزن يعتمد على بعض القبائل ذات الوفاء الثابت نسبياً، كعبدة واحمر والمنابهة وحربيل وآيت إيمور، التي لا تدخل ضمن الكيش، لكن سوقاتها تتمتع بامتياز العسكرة وإياها في ما يُتفق من تنقلات السلطان.

وقد كانت كل قبيلة من القبائل تشكل عدداً من الرحي، المتألفة من حوالي خمسمائة من الفرسان يقودهم «قايد الرحا»، أو قايد المعسكر يساعده خليفة. وينقسم الرحا إلى خمس مجموعات، يقودها «قايد الميا» أي «قائد المائة» وأربعة مقدمين.

وقد كان المخازنية يرتدون ثياباً طويلة عريضة ويعتمرون شاشيات مخروطية لا تزال تراها على رجال المخزن، وشتان ما بين تلك الثياب والزي الحالي للحرس الشريف. وكان سلاحهم يتكون من بندقية طويلة قاذفة للحجارة تم الآن استبدال الكثير منها بقرابينات من نوع «كولت»* أو «قنشستر»* وسيف ذي شفرة مستقيمة وسكين من نوع الكمية أو الخنجر. وتكون الجياد ذات جمال نسبي حسب أصلها ومنشئها، وهي تتميز بميزات الحصان المغربي وتحمل عيوبه. وأما السرج الذي يغطي الجواد من الغارب إلى الكفل بلبداته السبع المتراكبة وهيكله الخشبي الثقيل المغطى بالجلد وركابه الثقيل وشكيمته الخشنة فقد كان سرجاً غريباً وسيئاً. والمخزني، وهو فارس جلود صبور، لا يكاد يمهر في غير تمرين واحد، هو في الوقت نفسه هوايته المفضلة؛ تلك هي لعبة البارود التي تقوم تمثيلاً للهجوم.

---

* Colt

* Winchester

ويعود إنشاء جيش المشاة النظامي، أو العسكر، إلى وقت قريب نسبياً. فقد أنشأه سيدي محمد وهو يومئذ ولي للعهد، إبان معركة إسلي؛ التي تولى خلالها قيادة 25.000 من الفرسان و1.000 من المشاة. حتى إذا لقي الهزيمة تحول باهتمامه إلى المشاة وحصل من والده مولاي عبد الرحمان على الإذن بإنشاء الوحدات الأولى من الجيش، والمتألفة من متطوعين جندوا من جميع الأنحاء. فلما تولى الحكم زاد إلى عدد المجندين، خاصة بعد حرب 1859-1860 التي جمعته بإسبانيا. وأما المؤسس الحقيقي لجيش المشاة كما عرفته في صخرة الدجاجة فهو مولاي الحسن، الذي حاول أن يصيرّه إلى ما يشبه الجيش الوطني. لكن لم يحالفه التوفيق.

كان المبدأ يقضي بمساهمة جميع المدن وقبائل النوايب في تكوين هذا الجيش بأعداد تحدد لكل واحدة من تلك المدن وتلك القبائل. ويكون هؤلاء المجندون على استعداد دائم للخروج في ما يُتفق من حملات وقد كان عددهم يصل إلى 20.000. والحقيقة أن المسلحين منهم لا يكادون يشكلون ثلث هذا العدد. وبدلاً من أن يسعى القادة إلى معالجة هذه الوضعية تراهم يشجعون عليها بكل ما استطاعوا ليستأثروا لأنفسهم بالأجور المخصصة للأعداد الناقصة من الرجال. بل إن الموجودين فعلياً من الجنود كانوا هم أنفسهم نادراً ما يتقاضون أجوراً؛ فكان معظمهم يزاولون مهناً حقيرة ولا يشاركون قط في التداريب، ولا يكادون يُرون إلا مرة في الأسبوع في يوم الجمعة، وهو اليوم الذي يتوجهون فيه إلى المسجد يتقدمهم طبل ويسيرون ضاجين صاخبين، ليظهروا بأكثر عدداً مما هم في الواقع.

وإذا جاء الأمر بالتعبئة كان يُسرع إلى استكمال عدد القوات بالتجنيد الطوعي أو الإجباري لكل من يتسنى الإمساك بهم من المشردين من كافة

الأعمار. ومن اليسير علينا أن نتصور القيمة التي يمكن أن تكون لجيش تم تجنيد أفراده على هذا المنوال والاعتبار الذي يكون له في نظر السكان.

وأما وحدة المشاة فهي «الطابور»، الذي يتباين عدد جنوده كثيراً وهو يقرب من عدد الجنود المكونين للكتيبة. ويتولى قيادة الطابور، شأنه شأن قوات الكيش، قايد الرحا وخليفة وعدد غير محدود من قياد الميا والمقدمين.

ويتألف زي جنود الطابور من سروال أزرق عريض وقميص يكون في عمومه أحمر وطربوش وحذاء وجلابة تقوم مقام المعطف العسكري وخرج يحملونه بشكل متصالب ويتخذونه لهم جراباً ومزودة وكنانة أو جعبة للخرطوش على حد سواء.

ويتألف سلاح هذا الجيش من بنادق غير ذات شأن، مختلفة الصنع أو من بنادق من نوعية «مارتيني هنري»* مصنوعة في ماكينة فاس. وهو مصنع أنشأه مولاي الحسن، وكانت تقوم على تسييره بعثة عسكرية إيطالية. وقد هذا المصنع كان ينتج في المعدل خمس بنادق في اليوم الواحد. وبعض الجنود مزودون بحراب ولا يكاد لباسهم يزيد عن أسمال وأسلحتهم في أسوإ حال. وأما الذخيرة فلا يوزع عليهم منها إلا بتقتير شديد، حتى أثناء ما يُتفق من حملات. ويكون كل طابور مزوداً ببعض الأبواق، كما يزود بعض الطوابير بزمرة من النقابين، الذين قد زيد إلى زيهم مِحزم جلدي كبير وفأس.

كان مولاي الحسن استقدم في سنة 1880 أو نحوها ضابطاً سابقاً في الجيش البريطاني، ليقوم على تنظيم جيش المشاة المغربي. ذلك هو الملازم أول هاري ماك لين، الذي كان في إحدى الحاميات بجبل طارق

* Martini-Henry

ثم تزوج زواج غرام، فلم يجد بداً من مغادرة الجيش. وتحتم عليه لإعالة زوجته أن يعمل مصارعاً للثيران في إسبانيا. ويومئذ تناهى إلى علم رفاقه القدامى في الجيش أن السلطان الذي كان يقوم بزيارة لمدينة طنجة، في حاجة إلى مدرب عسكري. وأبلغوا ماك لين بالأمر فقدم ترشيحه وتم له القبول. وإذا هو يقبل على العمل بحمية. لكن سرعان ما وجد نفسه وحيداً في مقاومة جمود السلطان وفساد القادة العسكريين والتجنيد المعيب والتقليد والجمود، فلم يجد بداً من أن يقصر عمله على إعداد الحرابة، أو المدربين ثم إن هؤلاء كانوا يوزعون على الوحدات فلا يلبثون أن ينسوا ما تعلموا. وقد كان لباس القايد ماك لين، وكنيته المشتهر بها «الكروني» وهي كلمة محرفة من الكلمة الإسبانية «كورونيل»، من أفخر الثياب وركوبه من أجود الخيول. وكان يقتصر على تنظيم الجنود عند مرور السلطان في الاحتفالات الدينية واستقبالات السفراء الأجانب. وأما دوره الحقيقي فهو يتمثل في العمل مستشاراً وموظفاً للمخزن في علاقاته مع أوروبا، وأنجلترا بوجه خاص. فقد كان هو من يقوم بالتفاوض في شراء الأسلحة وغيرها من تموينات البلاط والجيش، ويشرح للسلطان كيفية استعمال الهدايا، ومعظمها شديدة الغرابة، التي تأتيه من السفارات الأوروبية. وقد سما به تفانيه وطبعه الودود إلى أن يكون شخصية لازمة لدى السلطان مولاي الحسن، ثم عند السلطان مولاي عبد العزيز من بعده وعند باحماد. ولقد أفاد من هذا الوضع ليخدم مصالح بلده. وكانت مهمته غاية في اليسر والسهولة ولاسيما أن كل هم أنجلترا قد كان ينحصر في الإبقاء على الأحوال في المغرب على ما هي عليه. وإذا الرجل قد أصبح وكيلاً سياسياً لدى المخزن.

وإلى القايد ماك لين خاصة وإلى دبلوماسية المناديب البريطانيين في مدينة طنجة يعود الفضل في رجحان كفة أنجلترا ونفوذها داخل البلاط

الشريف وبفضلهم كانت تحيط علماً بما يجري في المغرب. ومن ذلك أنه لما كانت وفاة مولاي الحسن، التي أبقيَ عليها طي الكتمان لعدة أيام بعث ماك لين برسالة إلى أخيه القنصل البريطاني في الدار البيضاء. كما بعث برسالة أخرى على وجه السرعة إلى الرباط، فقطعت الكيلومترات التسعين التي تفصل بين المدينتين في مدة وجيزة لا تتعدى ست ساعات وحملتها سفينة كانت متوجهة إلى مدينة طنجة، ومن هناك قامت مفوضية أنجلترا بإرسال تلك البرقية إلى جبل طارق وإلى وزارة الخارجية البريطانية. وبذلك تم إبلاغ لندن بنبإ وفاة السلطان فيما كان الجميع في المغرب لا يزالون بها يجهلون.

كان جنود المدفعية، أو الطبجية، وإن جُنِّدوا من قبائل الكيش، يلبسون ويسيرون في نظام على غرار قوات العسكر. وكان سلاح مدفعية الميدان ممثلاً في صخرة الدجاجة ببضع مآت الرجال يتولاهم قايدان من قياد الرحا تحت إشراف القايد الكبير لسلاح المدفعية. وقد صار هؤلاء الجنود بفضل البعثة العسكرية الفرنسية المكلفة منذ سنة 1877 بتدريبهم وإعدادهم هم الأكثر تنظيماً في الجيش الشريف. وكان جنود المدفعية يلقون التدريب الجيد وكان لباسهم نظيفاً وفي أحسن حال.

لم يتزود مولاي عبد العزيز لحملته بغير ثلاثين مدفعاً. وكان سلاحه المدفعي يتكون في مجمله من مائة قطعة، بينها عشرون مدفعاً من مدافع «كروب»* تعبأ من مؤخراتها وثلاثون مدفعاً نحاسياً مختلفة الصنع، تعبأ من فوهاتها وحوالي خمسين رشاشة من نوع «مكسيم»*.

* Crup
* Maxim

وكان يقوم على حماية المدن رماةٌ يجندون من بين السكان. ويتمثل عملهم في إطلاق نيران المدافع في الأعياد الدينية إعلاناً عن مقدم السلطان أو وصول رسالة شريفة أو لتحية الطرادات الأوروبية. وكان هؤلاء الرماة يعدُّون الطلقات بأخذ قشات من كومة تبن صغيرة قد أعدت مسبقاً طلقة بقشة، وأما إذا كان ما يطلقون لتحية فرقاطة من الفراقط فإنهم يزيدون بعض الطلقات إلى العدد المقرر.

كانت طنجة والرباط هما المدينتان الوحيدتان بين مدن المغرب المشتملان على تحصينات عصرية. فأما التحصين الأول فيتألف من بضع بطاريات أقامها مهندسون أنجليز وزودوها بمدافع «أرمسترونغ»*، وأما التحصين الثاني فهو أشد قوة وأحسن إعداداً (وهو المعروف اليوم بحصن هيرقي) وقد قام على إنشائه مهندس ألماني وتم تسليحه بمدفعين من نوع «كروب» ومدافع أخرى صغيرة من النوع نفسه.

وأما المراسي الأخرى فلا تزال على تحصيناتها الإسبانية أو البرتغالية القديمة. ولمدينة الصويرة تحصيناتها التي شيدها المهندس الفرنسي كورنو في القرن الثامن عشر أو نحوه. وأما المدن الداخلية فلا يحميها غير أسوار من التراب المدكوك وأبراج وحصون يعود إلى الحبوس من الناحية المبدئية أمر صيانتها، والحال أنها ما عادت في عمومها سوى أطلال شاخصة.

ويمثل سلاحَ الهندسة في الجيش الشريف بعضُ المهندسين، قد درس معظمهم لثلاث سنوات إلى أربع في أوروبا، وتتمثل وظيفتهم الرئيسية والتي تكاد تكون هي وظيفتهم الوحيدة، في تقدم المحلة لاختيار المواضع المناسبة لنصب خيام المعسكر وتنظيم مجاري المياه.

---

* Armstrong

ولا ننْسَ الفرقة الموسيقية! وهي تتألف من نحو عشرين نفراً يرتدون قفاطين طويلة صفراء وخضراء وحمراء وبنفسجية، ويركبون بغالاً ويعزفون على آلاتهم المختلة، كاختلال بنادق العساكر، أصواتاً من شأنها أن تهز أسوار مدن المملكة السعيدة كلها! ثم إنهم في وقت العشاء من كل مساء يقيمون سهرة في ساحة المشور. فنميز في أهازيجهم المغربية على نحو واضح بعض الأنغام الأوروبية؛ كأغنية «الملكة هورتونسو»* و«لامارتشا ريال»* الإسبانية، و«كود سيف ذو كين»*، ونغمة «الأم ميشيل»*.

والنوايب، كما أسلفت القول، قوات مساعدة تمد بها قبائل النايبة. وهي حشود لا تعرف معنى للنظام، وإن كنا نجد بينهم فرساناً بواسل ومشاة لا يعرف التعب إليهم سبيلاً ورماة مهرة. ويقدر عدد الجنود من النوايب بأربعين إلى خمسين ألفاً، فإذا زدنا إليهم العناصر الأخرى كان عدد الجنود الذين يمكن أن يتوفر عليهم السلطان عند اللزوم يصل إلى ثمانين ألفاً.

بيد أن أفراد القوات المغربية التي شاركت في الحرب ضد إسبانيا في سنة 1859-1860 لم يكونوا يزيدون عن خمسين ألفاً بأي حال، وربما كانوا دون الأربعين ألفاً.

ويبقى لي أن أتحدث بإيجاز عن البحرية الشريفة؛ تلك البحرية التي كانت مرهوبة في الماضي؛ وقت أن كان القراصنة المغاربة يغزون السواحل الأوروبية ويغشون بأعمال القرصنة مجموع الساحل المتوسطي، ويصلون حتى سواحل البرتغال. وقد ظل للبحرية المغربية وجود حتى القرن التاسع

* Reine Hortence
* la Marcha Real
* God save the Queen
* Mère Michel

عشر. فقد كان للمغرب إلى ذلك الحين أربع سفن تبحر رافعة العلم الأحمر يقودها ضباط من البحرية التجارية الألمانية أو الاسكندنافية، ويعمل عليها بحرية مغاربة. أما تلك السفن فهي : «البشير»، وهي طرادة صغيرة صنعت في ليڤورن، ولم تسلم إلى المغرب إلا في سنة 1892، وكان عليها طاقم من مائة رجل وتحمل على متنها الكثير من المدافع لترهب بها قراصنة الريف. و«الحَسَني» وهي سفينة شاحنة بريطانية قديمة اشتراها مولاي الحسن في سنة 1885 أو نحوها، وهي من ذات 1.100 طنة ويعمل على متنها 40 من الرجال. و«سداة التركي»، وهي سفينة أصغر حجماً، صنعت في ألمانيا لأجل المغرب في سنة 1890 أو نحوها، ورابعة هذه السفن هي «التريكي» وهي سفينة بخارية صغيرة من ذات 18 طنة، وقد سخرت في نقل مدافع كروب لتحصين مدينة الرباط، ثم ألحقت بعدئذ بمرساها ثم بمرسى العرائش حيث استعملت سفينة ساحبة. فأما «الحسني» و«التركي» فكان أكثر تسخيرهما لإمداد مراكز الريف ورأس جوبي [طرفاية]، كما سخرتا لنقل الجنود إلى هذه المناطق التي يعسر الوصول إليها عن طريق البر. وأما سفينة «البشير» فقد جعلت للمناسبات الكبرى؛ لذلك كان أكثر رسوها في مدينة طنجة.

الفصل السابع

في خضم الحرْكة

في حوالي الساعة الثامنة صباحاً من يوم 21 يناير 1898 دوت الأبواق جميعاً إيذانا بالرحيل، فتعالت لدويها هتافات الفرحة من كل الأرجاء. وإن هي إلا هنيهة حتى لم يعد شيءٌ من المحلة منتصباً، في ما عدا القبة السلطانية. ثم لم تلبث أن أزيلت هي الأخرى، وشرع الفيلق في المسير في شيء من الغبطة وفي حيرة أقرب إلى الفوضى.

فلما صرت على بعد كيلومترين أو ثلاثة من موضع المعسكر حانت مني التفاتة من فوق تلك المرتفعات التي أشرفت منها عليه أول مرة، أنظر إلى تلك الأماكن التي ما أكثر ما شاهدت فيها من ألوان البؤس والشقاء. فما عاد موقع المعسكر يتميز وسط التلال الخضراء بغير ركام أسود هائل يكونه البراز الذي خلفه على مدار شهرين ونصف الشهر عشرون ألفاً من الرجال ونحو ذلك العدد من الدواب.

وتوقفت لأعاين مرور السلطان، الذي ستكون تلك أول رؤيتي له. فارتقيت في خفر صغير إحدى الأكمات، لأعصم نفسي أن تجرفني الحشود ومن ذلك الموضع صرنا نتفرج على مشهد آية في الطرافة والشذوذ. لقد كنا في موقعنا الذي انتبذناه أشبه بجزيرة صغيرة في خضم نهر جارف عظيم من البشر والدواب، تعطي الناظر إليها صورة لما يمكن أن تكونه الاجتياحات الهمجية. فقد رأينا المشاة في رث الثياب وفرسان الكيش والتجار والنساء البائعات على ظهور الحمير، ورأينا الجمالين وكتاب المخزن قد ركبوا ظهور

البغال، ورأينا المساجين قد أوثقوا إلى بعضهم بسلسلة في مجموعات من عشرين نفراً وساروا يتدافعون في عسر ومشقة، ورأينا حراسهم يجتهدون في التضييق عليهم والتنكيل بهم، ومشت في أثرهم نساء وأطفال في الأسمال، والجميع مختلطون ببعضهم ويسيرون متدافعين متصايحين وضاحكين؛ سعداء بأن قيض لهم أن يديروا ظهورهم لصخرة الدجاجة.

ثم كان مرور الزنجيات الداخلات في الحريم، يحيط بهن جيش من الخصيان متصايحين بأعلى الأصوات، لفسح الطريق لمرور حوالي ثلاثين من أولئك النساء اللائي كن كأنهن أكياس من صوف أبيض منفوش قد أركبن بغالاً جميلة. ثم مررن يغددن السير فأفسح لهن الحشد الطريق ونأوا بأنفسهم عنهن مديرين ظهورهم لموكبهن، حتى لا يدنسوا بنظراتهم خليلات أمير المؤمنين.

وكان آخر ما تناهى إلى مسامعنا النوبة الدالة من بعيد على السلطان. وسرعان ما ظهر مولاي عبد العزيز، يتقدمه جيش من فرسان الكيش وحاملو الأعلام، ويحف به مشاة يحملون الأسلحة أو يمسكون بأيديهم جياداً احتياطية ويليهم موظفو البلاط وفرسان من الحرس الأسود. وتقدم السلطان يكنفه ظل المظلة الوردي؛ تلك الشمسية الرامزة إلى السلطة. فكان ثابتاً كأنه تمثال فوق جواد أسود بديع، قد جعل عليه سرج في لون بين المذهب والأخضر، ويسير مختالاً راقصاً على صوت الغيطات والطبول. وسار الصدر الأعظم إلى يسار السلطان متخلفاً عنه قليلاً، قد امتطى حصاناً رمادياً عليه سرج في لون جماع بين البنفسجي والفضي.

فلما ارتقى السلطان وباحماد المرتفع الذي كنت أتسنمه انحنى الصدر الأعظم وتحدث إلى سيده. فالتفت السلطان صوبي وإذا أساريره الجذابة المؤنسة قد فارقتها لبرهة صرامتها التي تتطلبها المراسيم، وأشرقت بابتسامة. فانحنيت حتى أكببت على عنق جوادي، وصحت بتلك العبارة

التقليدية : «الله يبارك ف عمر سيدي!»*، فيما كانت ابتسامة مولاي عبد العزيز تنحفر في ذاكرتي.

وقد اتفق لي أن رأيت مولاي عبد العزيز مرات عديدة، أثناء ما كان يقوم من حركات، لكن لم أحظ في يوم من الأيام بالتقديم إليه، ولن يقيض لي أن أراه في ما تلا ذلك، إلا بعد انقضاء عشر سنين أو اثنتي عشرة سنة؛ وقد خلع عن العرش. فقد قابلته في باريس ذات صيف في «ماجيك سيتي»*. فعرفني، في الحال وتقدم صوبي ماداً يديه، ودعاني إلى مجالسته فوق كنبة. فإذا اتخذنا مجلسنا هناك شرعنا، ونحن في خضم حشد يتملكه الفضول نتجاذب أطراف حديث طال بنا كثيراً عن المغرب القديم وعن مخزنه.

لم يكن الإسراع في السير وقتئذ مما يناسب الموكب الشريف، فلذلك لم نكد نجاوز في المرحلة الأولى من مسيرنا اثني عشر كيلومتراً. ولزمنا أن نقطع ثلاثة كيلومترات أخرى للوصول إلى دار ابن احمد؛ مركزِ العمليات المقبلة التي سيخوضها ذلك الرتل. وقد اجتهد الجميع لتنفيذ تلك العمليات في همة ونشاط، إذ كانوا يتعجلون الانتهاء منها والعودة إلى مراكش.

وتقرر إقامة المحلة بعد ذلك وسط منطقة كان سكانها قد ثاروا مرات عديدة على القياد خلال تلك السنوات، كما تدلنا عليها صنوف التخريب التي لحقت كثيراً من القصبات؛ كدار الفكاك ودار سي الشرقي ودار ابن أحمد نفسها. ولم يكن المخزن قد انتقم لنفسه من تلك الاعتداءات التي نالت سلطة ممثليه، بيد أن ما لم يقع على المذنبين من العقاب المعجل قد وقع عليهم بعد حين. فقد أرسِل على وجه السرعة ببعض السوقات في كل الأنحاء على نطاق من عشرين كيلومتراً من تلك

* *Allah ibarek f 'âmer Sidi!*

* Magic City

الجهة، فعادت إلى المحلة بمغانم كثيرة. ثم لم يلبث البدو أن جاءوا يذبحون الثيران علامة استسلام ودخول في الطاعة واتقاء للإبادة الشاملة التي كانت تتهدد قطعانهم، ويدفعون كل ما طلِبَ منهم.

وعلمنا إذ نحن في امزاب بوقوع أحد الرعايا البريطانيين في الأسر في منطقة سوس. وقد تناولت الصحف الصادرة في ذلك الوقت هذه الواقعة فأحاطتها بغير قليل من الاهتمام. وإنها لقضية تستحق أن نعرض ههنا لملابساتها.

فقد حدث بضع سنوات قبلُ أن جاء أحد البريطانيين، واسمه جولي وكان فاراً من الفيلق الأجنبي إلى المغرب للمطالبة بحقوقه في العرش الشريف وإلا فالاعتراف به عماً للسلطان الحالي، طمعاً في ما يعود عليه من هذه الأصرة. فقد زعم أنه ابن للسلطان سيدي محمد، فيكون بالتالي شقيقاً لمولاي الحسن، وادعى أنه تعرض للاختطاف وهو بعد طفل صغير بأيدي جنود الماريشال بوجود خلال معركة إسلي. وجاء هذا الرجل إلى المغرب يرافقه دساس نمساوي يقوم له كاتبا ويزعم أن اسمه عبد الكريم باي. بيد أن المخزن لم يقتنع بتلك المزاعم ما اضطر جولى إلى الاختفاء، وأما مرافقه فقد مضى للإقامة في مدينة الصويرة بصفة القنصل لصاحب الجلالة أوريلي [- أنطون] الأول ملك أراوكانيا. ثم شرع يبيع بطائق الحماية لعدد كبير من الأهالي. فأثارت هذه المنافسة الخسيسة حفيظة الهيئة القنصلية في مدينة الصويرة، وشكته إلى المفوضيات في طنجة فتدخلت لدى المخزن الذي أجبر قنصل أراوكانيا على الانسحاب من ذلك الأمر. ثم سعى عبد الكريم باي هذا، إلى إنشاء مؤسسة للاستغلال التجاري لسوس. لكنه مني بالفشل في باريس. ثم كان أن واتاه الحظ في لندن. فقد انشأ هناك شركة لم تلبث أن بعثت بالماجور سالزبوري إلى مراكش للحصول من السلطان على ترخيص بمزاولة الأعمال التجارية في الجنوب الغربي من المغرب. وعلى

الرغم من أن السلطان لم يأذن بذلك الترخيص فإن الشركة المذكورة قامت على تجهيز السفينة البخارية «تورمالين»*، وجاءت بها إلى نواحي وادي نون، وعلى ظهرها الماجور وحمولة من شتى أنواع السلع. ثم رست قبالة وادي أساكا، وترجل سالزبوري وجيشه الإنزالي الصغير للتحادث مع رؤساء الأهالي. وفي تلك الأثناء برزت السفينة البخارية «الحسني»، وفعل قائدها كمن يستعد للقتال وجاء بطلقة إنذار فإذا سفينة «تورمالين» تلوذ بالفرار، ووقع سالزبوري ورفاقه في أيدي بحارة «الحسني»، يساعدهم الأهالي من سكان ضفتي النهر. وحُملوا بعد مقاومة عنيفة إلى مدينة الصويرة.

لقد استاء المخزن كثيراً من هذه القضية واحتار أي موقف يتخذ إزاء حالة تشذ عن المألوف في معاملاته مع القوى الأجنبية. وإن هو إلا بعض حين حتى وصل إلى المحلة ترجمان المفوضية البريطانية في طنجة. وكانت له مفاوضات مع الصدر الأعظم أسفرت بعد بضعة أيام عن إطلاق سراح رعايا بلاده الأسرى.

في يوم 20 فبراير اكتمل تحقيق أهداف الحرْكة، فأزلنا المعسكر، ومضينا إلى مراكش، قاطعين الطريق إليها في مجموعة من المراحل الصغيرة مروراً بسطات وأزمور ودكالة والرحامنة.

وحل رمضان في 24 يناير. ثم تلاه العيد الصغير، في 22 فبراير. وقد أهل علينا إذ نحن في مرحلة عين الفرت وسط الهضاب المزهرة الممتدة بين دار بن احمد وسطات. وفي الليل أقيم مصلى من حجر بيِّض بالجير فوق ربوة قريبة شديدة بياض بما كساها من زهر اللؤلؤ. وإلى هناك توجه السلطان في أبهة عظيمة ليؤم الصلاة على رأس مخزنه وجيشه.

وأقام فرسان الكيش والمشاة والقوات المساعدة من أنفسهم حاجزاً مفسحين بين صفين منهم ممراً عريضاً شديد البياض من تلك الأزهار.

* Tourmaline

وفوق ذلك البساط الأبيض مشى السلطان الشاب تحت سماء ربيعية لا يشوبها غير ضباب صباحي شفيف. ثم صعد المصلى في وقار وتفكر وقد اكتسى رداء أبيض وركب جواداً عليه حلة في مثل نصاعة برنوس فارسه. فكانت لوحة في غاية المهابة والجلال.

واختُتِم ذلك الاحتفال بأفراح صاخبة وموسيقى ودوي أبواق وقرع طبول وطلقات بنادق ومدافع وركض جياد، وفي خضم من الضجيج والألوان والحركة. ثم دعيت إلى التوجه رفقة قادة الجند عند العلاف؛ فقد جرت العادة القديمة ذات الأصل البدوي دون شك على أن تقدم لنا وجبة خفيفة من التمر وحليب النوق.

وأما حفل الهدية فلم يُقم إلا بعد أربعة أيام؛ أي في 26 و27 فبراير في سطات. وتلقى السلطان، كما تلقى الصدر الأعظم، الهدايا العظيمة. ومما أذكر أن هدايا أولاد حريز قد اشتملت على عشرة عبيد مسلحين ومجهزين بأفخر جهاز قد أمسك كلٍ واحد منهم في إحدى يديه بحصان عليه أفخم سرج وبيده الأخرى كيساً به مائة لويزة. وأما بعض القياد الذين اعتبرت هداياهم غير كافية، وبالتالي مهينة للجلالة الشريفة، فقد وضعوا في الأغلال ولزمهم أن يفتدوا أنفسهم بعظيم الأفدية.

أقامت المحلة بضعة أيام بعدُ في سطات لتتيح لقياد دكالة والرحامنة أن يمضوا لتهييء المؤونة استعداداً للاحتفال بمرور السلطان بأراضيهم. وصُرفت القوات المساعدة المنتمية إلى الغرب فأخذت وجهتها صوب الشمال. وبذلك تكون الحرْكة قد انتهت.

تركنا سطات في 7 مارس ووصلنا في 10 منه إلى سيدي علي على مشارف أزمور؛ حيث لم يكن وجود وقتئذ لجسر ولا معبر. وعلى الرغم من أن الجيش قد قام بمصادرة جميع القوارب التي تصيد في وادي أم

الربيع وكذلك الزوارق المجلوبة من مدينة الصويرة، لاستعمالها في الوادي، فقد استغرق عبوره أربعة أيام متواصلة بالليل والنهار، وكان فيه هلاك خلق كثير وعدد غير يسير من الدواب وضياع كميات عظيمة من الأغراض والأمتعة بعد أن جرفها التيار إلى البحر.

ثم تأتّى لنا بعد لأي أن نستأنف مسيرنا في 16 مارس صوب أزمور. وابتداء من تلك اللحظة انقلب موقف المخزن والجنود كلياً نحو السكان. فقد صار يُرسل في كل صباح بتجريدة من الجنود لتتقدم الفيلق فتحمي الدواوير من السرقة والنهب اللذين ربما أقدم عليهما بعض الجنود. وأعطيَ الأمر بالإقلاع عن تخريب المزروعات. وأمر السلطان بالتصدق على من يلقاه في طريقه من المتسولين. وقد تلقته النساء والأطفال بجرار الحليب ليباركها ببركته الخارقة فكان يغمس فيها أصبعه ثم يمسحه في عرف جواده. وسار البدو يخفرون الفيلق عبر أراضيهم وهم يلعبون لعبة البارود بطول الطريق.

اجتزنا الساحل بأرضه المكسوة من أشجار النخيل الصغيرة [الدوم] ومررنا بسهول دكالة الخصبة كثيفة النبات، واجتزنا بعدها سهوب الرحامنة المزهرة، وسرنا على مراحل صغيرة يطالعنا خط الجبيلات الأزرق وسور الأطلس السامق المتلألئ.

ثم كان دخول السلطان في يوم 26 مارس مراكش دخولاً ظافراً في حشد غفير من الجماهير والضجيج الذي تحدثه زغاريد النساء مختلطة بالموسيقى ودوي المدفع.

وفي شهر أبريل وصلت تباعاً سفارتا دي مومبيل والبارون شينيك فون شفاينسبيرك مندوبي فرنسا وألمانيا إلى طنجة، وقد جاءا معاً إلى السلطان ليقدما إليه رسائل اعتمادهما. ولم يكن يوجد يومئذ بعدُ، أو على الأقل في الظاهر، من خصومة أو عداء مكين في سياسة المغرب تجاه هذين البلدين وكانت علاقات البلدان الثلاثة مطبوعة بالكثير من المجاملة.

لم يكد يمضي على وصولنا إلى مراكش وقت يسير حتى سنحت لي الفرصة لأول مرة لدخول الحريم. فقد اتفق أن مرضت إحدى نساء الصدر الأعظم فنودي عليّ إلى قصر الباهية، الذي فُرغ يومئذ من بنائه. فلما جئته أدخلني حارس قد ارتدى رث الثياب، فتلقتني عجوز زنجية وجازت بي عدة رياضات باذخة، ثم رواقاً طويلاً ينتهي بباب قد سدت ببساط غليظ. ثم أشارت إليّ بالتوقف وتوارت خلف ذلك الستار. ولبثت منتظراً لخمس دقائق كنت أسمع خلالها وشوشات خلف ذلك الستار. ثم ظهرت العجوز من جديد، ودعتني أن أمرر يدي خلف الباب حيث لمست يد المريضة. ولا أحتاج إلى القول إن الجس لم يكفني في الاهتداء إلى مرضها وإن الأمر كان يقتضيني أن أفحصها؛ لولا أنه قد كان يؤثَر أن تُترك لتموت على أن يُسمح لي برؤيتها. ولم يسعني إلا أن أطرح عليها بعض الأسئلة بواسطة تلك الأمة الزنجية. فلم تلبث هذه الأخيرة أن توارت من جديد خلف ذلك البساط، ثم عادت بعد حديث طويل مع المريضة تحمل إليّ الأجوبة التي سمحت لي بأن أصف لها علاجاً اتفاقياً حسب ما عرفت من أعراض المرض. ثم انقطعت عني أخبار تلك المريضة ولم أعلم بما كان من أمرها.

وما مرت بضعة أيام حتى طلبني أحدُ الشرفاء، وكان من أقرباء السلطان فوجدته أكثر تساهلاً، أو قُلْ أقل تزمتاً. فقد كانت لي زيارة إلى محظيته الجميلة، ثم إذا هو يطلب مني أن أعود إلى زيارتها، وأعطى أمره إلى البواب على داره أن يدخلني ولو في غيابه. وقد عدت في اليوم الذي بعدُ في الموعد نفسه، وكان السيد غائبا، فأدخلني البواب كما أمِرَ. فوجدت نساء الدار كلهن مجتمعات في حجرة المرأة المريضة - وهي التي لم تكن مع ذلك بشديدة الاعتلال - ووجدت معهن متعة وأي متعة. فقد بدت أولئك السيدات أكثر لطفاً وأشد فضولاً وأقل تحفظاً. ولزمني أن أفرِغ

جيوبي لأفرجهن على ما تحتوي؛ فكان أكثر ما أثار دهشتهن واهتمامهن كيس التبغ؛ إذ كان الكاوتشوك شيئاً مجهولاً كلياً لديهن. وعاد سيد الدار في تلك الأثناء فلم يجد ما يعيب في الاستقبال الذي خصص لي وشكرني فأجزل إليَّ الشكر على ما قدمت لمحظيته من علاج.

ثم لم تكد تمضي على وصولنا إلى مراكش أسابيع قليلة حت تفشى في المدينة وباء، رافقه ظهور التيفوس والحمى التيفوئيدية سرعان ما اشتدت وستفحلت بفعل توافد الأعداد الكثيرة من البؤساء والمعدمين من سوس ووصول جنود من الحرْكة بعدما أنهكتهم تقلبات الطبيعة والفاقة والحرمان. وأضطررت ذات مساء إلى لزوم الفراش من حمى ألمت بي قد فاقت الأربعين درجة! فإذا كان اليوم الموالي تبقع جسدي بما طلع فيه من النمش : تلك كانت أمارات التيفوس.

ثم جاء من آواني في خضم من حيرة الوصول، إلى بيت لأحد القياد في غاية التلف كأنه جحر تعيث فيه الجرذان والعقارب. ثم جرى نقلي خلال مرضي إلى دار أخرى أفضل وأروَح. ولا أزال أحتفظ بذكرى غامضة لتلك الرحلة الليلية في أزقة مراكش المعتمة، التي وقف بعض سكانها ممن تأخروا خارج أسوارها ينظرون باستغراب إلى هذا المسيحي المسجى فوق محفة يتقدمه مخازنية يحملون المصابيح، ويسير من ورائه حصانه وبغال قد حملت بالأمتعة.

فلما بلغت مقامي الجديد أغميَ عليَّ، وما عدت إلى رشدي إلا بعد انقضاء ما يقرب من العشرة أيام، وأنا في حالة من العجز والخور. فلما استعدت ما يكفي من نشاطي وعافيتي لأعي بما يجري من حولي، إذا بي أرى إلى جوار سريري صندوقاً خشبياً طويلا وفارغاً قد أُسندَ إلى الجدار. وهاكم ما حدث لي : لقد أمضيت أياماً عديدة في حمى وهذيان، ثم انقطع عني بعدها ما كنت فيه تخريف ومن هذيان. ويبدو أن رجالي قد انتبهوا في عشية أحد تلك الأيام إلى انقطاع أنفاسي، فحسبوني فارقت الحياة

فشرعوا من فورهم يعدون لدفني. ومن حسن حظي أنه لم تكن في مراكش يومئذ مقبرة أوروبية ولذلك وجب أن يُصنع لي ما يشبه التابوت لنقلي إلى آسفي أو إلى الجديدة. فكان في تلك المهلة نجاتي. فلما أصبح التابوت جاهزاً انتبه رجالي إلى أنني قد عادت إليّ أنفاسي. ولذلك تركوا التابوت إلى جوار سريري... تحسباً لكل الاحتمالات.

لقد خصني أعضاء السفارات والقايد ماك لين وأسرته والمبشرون الأنجليز في مراكش يومئذ بكبير الاهتمام. وأجرى لي الدكتور ليناريس من بعثتنا العسكرية وكذا الطبيب العامل لدى السفارة الألمانية فحوصات عديدة، وبذلا في ما يبدو كل ما في وسعهما لتخليصي من تلك الملمة.

وأتاح لي المرض الذي ألم بي كذلك أن أتحقق من وفاء رفاقي من الأهالي. فقد كان لي في ركن من حجرتي كيس أكنز فيه جميع مدخراتي التي كانت تزيد عن 3.000 دورو. فأخذوا منها عشرة دوروات اشتروا ببعضها خروفاً قدموه عني أضحية إلى ضريح سيدي بلعباس وليّ مراكش وأوصوا لي ببعضها على تابوت. وعادني كذلك عدد غير يسير من القياد وموظفي المخزن ممن اتصلت بيني وبينهم أسباب المودة أثناء الحرْكة فكانوا يأتون للاطمئنان عليّ في كل يوم، فيمكثون عند رأسي لبضع دقائق. ولم تمنع الصدرَ الأعظم كثرةُ مفاوضاته مع مندوبي فرنسا وألمانيا أن يرسل مستخبراً عن أحوالي.

وعلى الرغم مما لقيت من آيات الود من المغاربة فقد وجدت من نفسي حاجة لا تقاوم إلى العودة بين الأوروبيين. ولذلك فبعد ثلاثة أسابيع وبعد لقاء أخير جمعني بالصدر الأعظم، الذي بدا لي متأثراً حقاً لقراري عاودت الرحيل إلى الدار البيضاء، فوصلتها بعد رحلة متعبة من ثمانية أطوار، وبعد ستة أشهر من الغياب.

الفصل الثامن

استقصاء السبل المغربية

نبهت الحرْكة لديَّ الشغف بالترحال. ولذلك فما كدت أتعافى من مرضي حتى انطلقت في الأيام الأولى من شهر غشت 1908 في رحلة طالت بي أربعة أشهر في شمال المغرب، باتباع مسار الرباط - المهدية سيدي قاسم - وليلي - مكناس - فاس - وزان - القصر - العرائش - أصيلا - تطوان - طنجة. ثم عدت أدراجي إلى الدار البيضاء أركب إليها البحر.

كانت المعرفة بالمغرب لا تزال تشكو من نقص كبير. فلم يأت الجغرافيون العرب في العصور الوسطى، ولا جاء الغزاة البرتغاليون والإسبان في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ولا القلة القليلة من الرحالة الذين زاروا هذا البلد في القرنين السابع عشر والثامن عشر، لم يأت هؤلاء جميعاً في شأن جغرافية هذه البلاد بغير معلومات يغلب عليها الغموض والتعميم. وما أضافت إليها الروايات التي وضعها باديا إليبليش وجاكسون وكوشلي وبوكليرك وروني كايي ونايبيرك في مطلع القرن التاسع عشر من التبيينات زهيدٌ لا يفي بالمراد.

وأما الاستكشاف العلمي للمغرب فإنما ابتدأ منذ حوالي مائة وعشرين سنة بفضل الكتب الاستطلاعية التي وضعها ثلاثة رحالة أنجليز؛ ذلكم هم واشنطن وديفيدسن وأورليت، الذين ندين لهم بأولى المعلومات الدقيقة حول جبال الأطلس وأول استكشاف هيدروغرافي لسواحل المغرب. ثم

جاءت بعد ذلك رحلات پاني وكولومب وريتشاردسن ورولفز وهودكين وبوميي وهوكر وپول وفون فريتش وراين ورينو ودولز ودوڤييريي وليريد وديبورتس وفرونسوا ولينز وتيسو. ويأتي في الأخير ذلك الاستكشاف الفذ الفريد الذي قام به شارل دو فوكو في 1883-84، وأصدره في كتاب سنة 1888، ليقدم لنا المعلومات النهائية حول الخطوط الكبرى لمعرفة جبال المغرب.

وتوالت بعدئذ أعمال جاناس وكودينفلت وطومسون ودولامارتينيير ودي بروي وطوماس ولوڤالوا ودي كاستري وإركمان وهاريس وشنيل، إلخ. فجاءت ممحصة لبعض الأمور ومسهمة في تتميم المعارف التي أجملها فلوت روكفير في الطبعة الأولى من خريطته ذات المقياس 1/1.000.000.

وقد حصل لدي اقتناع من أسفاري الأولى، وما لاحظت من ثغرات ونقائص جسيمة لا تزال تعتور هذه الخارطة، بضرورة مواصلة استكشاف المغرب، لا بسلوك المسارات الطويلة التي كأنها خيط واحد يلتف حول البلاد برمتها، بل بالاستكشاف المحكم لكل منطقة وجهة على حدة.

وبعثَ لديَّ شغفي بالخرائطية الرغبةَ في تدارك ولو شيء من تلك النقائص وتلك الثغرات. وقد كان لي في صفة الطبيب التي أحملها ما ساعدني على إنجاز هذه المهمة، وأسعفتني المدخرات التي توفرت لديَّ خلال الشهور الستة التي أمضيتها في خدمة السلطان بالوسائل، وأغنتني عن إضاعة وقتي في التماس المساعدات الزهيدة.

وقر قراري على أن يكون مبتدئي في إنجاز تلك الأعمال من الشاوية مع الاحتفاظ لقدمي بموطإ في الدار البيضاء أواصل فيها عملي الطبي... فإذا كنت فيها منحت نفسي الكثير من الإجازات لما بين الثمانية أيام والخمسة عشر يوماً؛ أكرسها لأقلب في المنطقة التي يحدها وادي أم الربيع

ووادي الشراط في كل الاتجاهات، دون أن أمنع نفسي من الانفلات بين الفينة والأخرى إلى خارج ذلك الإطار الذي رصدته لأبحاثي وتقصياتي. وجرياً على ذلك فقد سلكت السبيل الساحلية وصولاً إلى مدينة الصويرة وقمت برحلة طالت بي شهراً إلى [جزيرة] ماديرا على متن سفينة شراعية برتغالية، ورحلة أخرى إلى جزر الكناري، وصعدت جبل تنيريفي. لكنني كنت لا ألبث أن أعود أدراجي لأنكب على المهمة التي وطنت لها نفسي. فكنت أقطع تلك المسارات على صهوة حصاني وليس بين يدي من الأدوات غير بوصلة ومضغاط لاسائلي. وقد تأتى لي أن أسير متدرجاً أغطي الشاوية بشبكة تزداد إحكاماً وتمتد على مسارات من حوالي 2.000 كلم.

لا يكاد يفصلنا عن هذه الفترة غير خمسين سنة أو نحوها، وقد بات من الصعب على الناس أن يعرفوا كيف كانت الرحلة قبل تلك الأعوام الخمسين أو حتى الثلاثين، في المغرب؛ هذا البلد الذي لم يكن يوجد فيه كيلومتر واحد من السبل التي يمكن أن تسلكها العربات، ولم تكن سبيل الاتصال الكبرى نفسها [المسماة] «طريق السلطان»، غير مجموعة من السبل المتداخلة يُتوسل إليها بالبغال، ولا يُتجاسر على المغامرة فيها بأي عربة، وحيث كانت الوسائل الوحيدة للتنقل فيها هي الجياد والجمال والبغال والحمير؛ في هذا البلد الذي لا نقع فيه على ما يشبه لا من قريب ولا من بعيد فندقاً ولا يمكن للزائر أن يجد له فيه سكناً - ولو في المدن الكبرى - إلا بكراء بيت، أو يحط رحاله في الساحة العمومية أو في حديقة لصديق له من الأهالي.

وعليه فإن أي رحلة مهما قل شأنها قد كانت تفترض امتلاك الوسائل الكاملة للتخييم والدواب المركوبة اللازمة لنقل تلك المعدات أو كرائها، عدا أن «حرْمة» الأوروبي قد كانت توجب عليه أن يتخذ له بعض الخدم. وكان

يلزم نقل الخيام والأثاث والأغراض الشخصية وعدة الفراش والأسلحة والذخيرة وصيدلية لأجل الرحلة وبطارية للمطبخ وأواني وأدوات أخرى مختلفة وسطول وفوانيس وحبال ومؤونة من شتى الأصناف. وتكون الحاجة إلى أناس لتحميل الدواب وإنزال حمولتها ومداواتها واقتيادها إلى المورد الذي يكون في معظم الأحيان نائياً، ونصب الخيام وإعداد الطعام، إلخ...

وقد كنت شخصياً تخففت من أمتعتي؛ واقتصرت منها على ما كان ضرورياً ليس عنه غنى، فلم أحمل من مؤونة غير الكسكس المجفف والسكر والقهوة والشاي والشمع والتبغ، فيما تركت احتياجاتي الأخرى لما يمكن أن أصيب منها أثناء المسير؛ وكنت أقتصر من أغراض النوم في معظم الأحيان على زربية وغطاء. لكن على الرغم من ذلك فقد كنت أحتاج دوماً في حمل أمتعتي إلى حصاني الذي أركبه وثلاثة بغال ومثلها من الرجال، ويكون ذلك كله حسب المدة التي تستغرقها الرحلة.

ويلزم المسافر في بلاد المخزن - وهي المنطقة الوحيدة التي تقر فيها الحكومة الشريفة للأوروبيين بحق الرحلة - أن يكون برفقته مخزني بعطية يتحمل المسافر أداء أجره عن مدة الرحلة. ويفترض في هذا المخزني أن يقوم للأوروبي المسافر مرشداً ومدافعاً عن حرمته، وأما نفعه الحقيقي الوحيد فهو أن يمثل ما يشبه تأميناً مشكوكاً فيه كثيراً من السرقة التي يحمل المخزن المسؤولية فيها للقبيلة التي تقع ضمن ترابها.

وقد كنت شخصياً أتلافى على قدر المستطاع أن أجعل برفقتي واحداً من هؤلاء الحراس والحامين الرسميين، فهو إنما يؤمر بمراقبة حركات المسافر الأوروبي وسكناته، ويمنعه أن ينحرف عن سبل الاتصال الكبرى، وإذا ما اتفق لهذا المسافر أن تجاوز السبل المرسومة له ودخل منطقة تكون فيها المواقف من المخزن مريبة لا تبعث على الاطمئنان، إذا هو يسارع إلى

إخفاء شاشيته المخروطية وسيفه الذي كأنما يتخذه للزينة والمباهاة، وتحول إلى بغّال مسالم.

وقد كنت أحمل كذلك رسالة شريفة عليها طابع مولاي عبد العزيز وبها أمر إلى جميع «الخدام الأوفياء» بأن يمدوني بـ «المونة»، والخفر اللازم وتحملهم المسؤولية في كل ما يمكن أن يحدث لي في المناطق الداخلة ضمن اختصاصهم. وقد كانت هذه الرسالة تؤدي وظيفتها على وجه العموم. فالقياد والشيوخ يرفعونها إلى شفاههم ثم إلى جباههم دلالة على الطاعة ثم يقرأون ما فيها ويعملون بتعليماتها. حتى إذا طرقت أول دوار على الضفة اليمنى من وادي ورغة حيث توقفت رحلتي من فاس إلى وزان رد علي الشيخ إذ أطلعته على تلك الرسالة، بقوله إنه لا يقبل بتلقي الأوامر من شريف مراكش، بيد أن ذلك لم يمنعه من الترحيب بي لأن دينه يأمره باستقبال الضيوف الذين يرسلهم الله. كذلك فقد الطابع الشريف قيمته ولم يستعدها إلا في سهول الغرب، ليفقدها مرة أخرى في أعالي جبالة بين أصيلا وتطوان.

وأما الصعاب التي لاشك معترضة سبيل المسافر فهي على ضربين : عراقيل طبيعية وأخرى من فعل السكان.

فأما الصعاب التي تعترض سبيل المسافر في السهول الأطلسية فهي إنما تتمثل في الأنهار. ولم تكن الجسور بالقلة التي زعم لها بعض الرحالة إذ كانوا كلما رأوا واحداً منها قالوا إنه «الجسر الوحيد في المغرب»، وكانوا ينسبون بناءها جميعاً إلى البرتغاليين. وأما الأنهار الكبرى فلم يكن عليها من القناطر غير ثلاث : القنطرة التي على وادي سبو، قرب مدينة فاس وهي بناء جميل من ثمانية عقود يعود إنشاؤها إلى القرن السابع عشر والقنطرة التي على وادي أم الربيع في قصبة تادلة، والقنطرة التي على

وادي تانسيفت على مقربة من مدينة مراكش، والتي يعود بناؤها إلى القرن الثاني عشر، وقد تهدم قسم كبير من سطحها. وتوجد عند مصب ليكسوس في العرائش وسبو في المهدية وأبي رقراق في الرباط وسلا وأم الربيع في أزمور، خدمة للمرور بواسطة زوارق مسطحة يتراوح طولها بين ستة أمتار وعشرة. وأما ما عداها من أنهار المغرب فإنها تُقطع أحياناً سباحة أو تُجتاز في بعض المواضع بواسطة «معَدية»، وهي نوع من الأطواف تتخذ من قرب أو من حزمات أغصان تشد إلى بعضها بعصي وحبال.

وقد كان مستعملو هذه المركبات يتعرضون للكثير من الحوادث المزعج منها والمضحك على حد سواء، وقد ربما عرضهم ركوبها لما لا تحمد عقباه. فقد أسلفت الحديث عن عبور المحلة لوادي أم الربيع. ورأيت كيف غرقت «فلوكة» عليها ثلاثون من العساكر وعدد كبير من الدواب المركوبة الموثقة إلى بعضها، وكيف جرفها التيار إلى البحر. وقد كدت أنا نفسي وحصاني تبتلعنا الرمال المتحركة في وادي تاهدارت بين طنجة وأصيلا، وأوشكت أغرق في مصب وادي تانسيفت. ولست أتحدث إلا على سبيل الاستذكار عن الاستحمامات الكثيرة التي كنا نُكره عليها إكراهاً، والتقهقر إلى الحواف الحادة الزلقة والساعات الطويلة، بله الأيام، التي قضيناها منتظرين عند ضفاف أودية قد استحالت سيولاً جارفة بفعل العواصف، أو فوق جرُف بعض الأودية الصغيرة... كوادي النفيفيخ أو وادي يكم، بين الدار البيضاء والرباط، وقد زاد من حجمها المد والفيضانات الموسمية.

وأما العوائق التي من فعل الإنسان فهي تعزى في عمومها إلى التعصب الديني. غير أنه أمر لا يصح إلا على بعض المدن، فيما هو ينتفي في البوادي والقرى. ويمكننا التمييز من الناحية الأمنية بالنسبة إلى الأوروبيين بين أربع مناطق : أولاً المدن الساحلية والسبل السلطانية

المؤدية إلى المدن الداخلية الكبرى وثانياً بلاد المخزن وثالثاً بلاد السيبة ورابعاً «الحرْم»، والمراد به الأماكن المعتبرة مقدسة، كالمساجد والأضرحة وبعض المدن والجبال وعيون الماء التي يعتقد أنها تُعد من الخوارق.

فقد كان الأوروبي يتمتع في المدن الساحلية والمدن الداخلية في الأوقات العادية بنصيب كبير من الأمن. وكذلك يكون شأنه في السبل الكبرى التي تصل ما بين تلك المدن والتي بنى فيها المخزن قصبات وأقام نزالات ودواوير محروسة تأتيها القوافل لقضاء الليل في أمان مقابل أجر زهيد. قلت في الأوقات العادية؛ إذ حتى في هذه الأوقات لا يكون الأمن على القدر نفسه في جميع المناطق، ولا يكون مستتباً على الدوام في جميع الجهات. فإذا جاز لنا أن نقول إن القوافل كانت تسافر في طرق عبدة ودكالة ولو في الليل، فلم يكن كذلك شأنها في مناطق الشمال.

والرباط، محور بلاد المخزن بين الحوز ومنطقة الغرب، هي النقطة التي يكون فيها المسافر أكثر عرضة للمخاطر؛ إذ كانت القبائل المجاورة لها كزمور وزعير داخلة في «السيبة». فهي تمنع من دخول أراضيها، وقد تأتي في بعض الأحيان لتقيم حصاراً أمام المدينة تقتطع كل اتصال بين الشمال والجنوب ثم لا ترضى برفع الحصار إلا بفدية مالية أو عينية عظيمة. وعدا ذلك فقد كانت نواحي الرباط غير مأمونة دائماً، ولو صعد المرء مع وادي أبي رقراق وصولاً إلى وادي عكراش فلن يأمن على نفسه التعرض لإطلاق النار سواء من الضفة اليسرى أو من الضفة اليمنى. فكان السلطان إذا رغب في التوجه من مكناس إلى مراكش دون العودة إلى الساحل يجد لزاماً عليه أن يتفاوض مع قبائل زمور وزعير والحصول منها على الإذن له في المرور.

وقد كانت القوافل القادمة من الجنوب بسلوك السبيل الساحلية ما أن تصل إلى بوزنيقة حتى تشرع في اتخاذ الاحتياطات، ثم تسرع بالوصول

إلى الصخيرات أو تمارة أو الرباط قبل مغيب الشمس بكثير؛ إذ كانت قبائل زمور تمنع المرور من أراضيها، فيضطر المسافرون المتوجهون إلى مكناس أو فاس أن يصعدوا باتجاه الشمال إلى أن يصلوا إلى المهدية، ثم يسرعون على قدر الإمكان باجتياز ذلك السهل الخطِر الذي تسكنه قبائل بني حسن، وتستهدفه قبائل زمور بغاراتها المتواترة، ويشتهر سكانه أنفسهم بأنهم لصوص خيول وماشية.

وإذا أمعنا اتجاهاً إلى الشمال وجدنا الطريق الرابطة بين العرائش وفاس تنعم بالكثير من الأمان، لكن على خلافها الطريق الرابطة بين طنجة وفاس؛ فهي كثيراً ما تكون مقطوعة بسبب قطاع الطرق من جبالة الذين يأتون بين الفينة والأخرى لبث الرعب في ملاح القصر؛ وكثيراً ما يقومون فيه بخطف النساء والأطفال.

ومن بين المدن التي يسهل بلوغها فإن أقلها ترحيباً بالزائر هي أزمور وسلا اللتان كان الأوروبي يقتصر عامة على الاقتراب منها دون أن يدخلهما، وفاس التي كانت بورجوازيتها مهذبة متأدبة بحيث لا تقابله بالنفور والكره، بل تقتصر على تجاهله، فيما تطلق الدهماء العنان لمشاعرها فتصب شتائمها على الكافر أو تبصق في طريقه.

ومع ذلك فقد كنت تجد بين هذه الأرستقراطية، البعيدة جداً عن إحدى تينك المدينتين الأشد انغلاقاً بين مدن العالم في ذلك الوقت أناساً ذوي أذهان متنورة ومتحررة من كل تعصب ومنفتحة على التقدم فهم يخصون الأوروبي إن لم يكن بصفة علنية فعلى الأقل بصفة خاصة بالاستقبال أشدّه لطفاً وحفاوة.

ولا يكفي المرء إن هو أراد أن يحيط معرفة بالمغرب أن يعيش في مدنه الداخلية فحسب، بل يلزمه كذلك أن يسلك غير السبل المألوفة المؤدية

إليها. والضيافة في هذه المدن شديدة الاختلاف حسب المناطق. ففي بلاد المخزن يحطى الأوروبي عامة بالاستقبال الحسن، إذ يرى الناس فيه حامياً ممكناً من العسف تنزله بهم الحكومة الشريفة. وأما إذا وطئت قدماه بلاد السيبة فقد كان يتعرض للتقتيل، لا بسبب التعصب الديني، بل بدافع كره الأجنبي، ولأن الناس في هذه المناطق يتعبرونه جاسوساً جاء يستكشف بلادهم ويمهد لغزوها.

لكن لامفر للمرء من أن يسير يضرب في هذه البوادي في كل الأنحاء والاتجاهات دون سلوك السبيل السلطانية الكبرى، إن هو رغب أن يخبر البدوي الشغب والكذاب واللص النهاب، والذي يقدم على القتل بأسهل ما يكون، لكنه يكفر عن ذلك كله بضيافته وشجاعته ووفائه في الصداقة ونوع من الشرف البطولي يجعله موداً لكل أولئك الذين لا يميلون مسبقاً إلى معاداته والذين يجشمون أنفسهم عناء السعي إلى فهمه.

وأما الضيافة فقد أمر بها القرآن، وكانت نادراً ما تُمنع حتى عن الأوروبي. واشتهر بعض القياد بأسلوبهم المترف الباذخ في معاملة الضيوف الذين يمرون بقصباتهم؛ فقد خصصوا لهم فيها منازل تؤويهم. فهذا سي عيسى بن عمر، قايد عبدة، نادراً ما يترك الأوروبي الذي يحل ضيفاً عليه ثم يرحل من دون أن يهديه حصاناً من الأحصنة. وأما الدواوير الواقعة في بلاد المخزن فإن أهلها يبذلون قصارى ما يستطيعون في الاحتفاء بضيوفهم ولم تكن الدواوير التي سكانها أكثر اتصالاً بالمسيحيين هي التي تبدو دائماً أكثر حفاوةً. ومعظم النساء لم يسبق لهن أن رأين أوروبياً فكن إذا مر الواحد منهم على مقربة من دوارهن يركضن من وجهه زرافات، دون أن يفوتهن أن يحملن جرة حليب تسمح لهن بإخفاء فضولهن النسوي من خلف تلك المبادرة اللطيفة المعبرة عن حسن الاستقبال.

لقد كانت الحروب بين القبائل، بل وأعمال النهب وقطع الطرق رياضات حقيقية، وكذلك هو الصيد والفروسية؛ فقد كانت مناسبات يشبع فيها الشبان وأولئك الذين لا يزالون يحسون أنفسهم على شيء من حيوية، رغباتهم في مزاولة صفاتهم كرجال بدائيين؛ الحيلة والرشاقة والقوة والشجاعة. وكانوا كثيري إزعاج للمسافر؛ فهم يجبرونه على أن يكون شديد التنبه دائماً، ليس للدفاع عن نفسه، بل للدفاع عن بهائمه، وكانت الحروب التي تندلع بين القبائل المتجاورة كثيراً ما تضطره إلى العودة على أعقابه، أو تكلفه انعطافات طويلة، ليكون بمستطاعه مواصلة طريقه. فإذا نزل ضيفاً على أحد الدواوير قام له هذا الدوار ساهراً على حمايته بكثير من الاهتمام والعناية، وأما إذا حط الرحال عند الجيران الأعداء فإن أهل الدوار نفسه قد لا يرعوون عن السعي إلى سرقة دوابه.

وتتطلب هذ الرياضة قدراً كبيراً من الدهاء، وقد كان المزاولون لها يلجأون إلى ضروب من الحيل : فهم يتعرون كما ولدتهم أمهاتهم «لمنع الكلاب من النباح»، ويذهنون أجسامهم بالزيت ليصعب الإمساك بهم ويختبئون خلف الأعشاب، عندما تكون الأراضي القريبة من المواشي المطموع فيها خالية من أي نتوء. لكن الحراس يكونون في مثل دهاء اللصوص، وما أكثر ما ينتهي الأمر بإطلاق بعض العيارات النارية غير المؤذية تحت جنح الظلام.

وقد حدث أن تعرضت دوابي لمحاولات كثيرة للسرقة، لم تنجح غير مرة واحدة، في ظروف قد يسنح لي الحديث عنها في ما بعد. وأما حياتي خلال السنوات الخمس من إقامتي الأولى في المغرب فلم تتعرض لأي أذى من الأهالي؛ ما عدا في مرتين : كانت المرة الأولى في امزاب بين دار بن احمد ودار أولاد حجاج؛ حيث تعرضت قافلتي لهجوم عصابة

من اللصوص كنا قد أفسدنا عليهم بعض عملياتهم، وأما المرة الثانية فقد كانت في الغابة بين بولوحوت وبوزنيقة؛ حيث تعرضت للهجوم والملاحقة من طائفة من قبيلة زعير جاءت حتى ذلك المكان للقيام ببعض أعمالها الشريرة، وما خلصني غير ساقي وقوة حصاني وتدخل بعض فرسان الزيايدة في الوقت المناسب. والاعتداءان اثناهما وقعا في أوقات مضطربة.

وأما في بلاد السيبة فإن المخزن يدفع عن نفسه أي مسؤولية في ما يمكن أن يقع للأجنبي. ففي بعض القبائل كان لا يزال في مقدور المسافر الأوروبي أن يمر محتمياً بمزراك (رمح) يرفعه أحد أفراد تلك القبائل، فيحصل بذلك على حماية عشيرته، المسماة «عناية»، بمقابل يسمى «زطاطة». وليس في مقدور الأوروبي أن يطرق أي مكان في بلاد المخزن؛ أي لا يمكنه أن يطأ ثلاثة أرباع المغرب، إلا بركوب الحيلة والمجازفة بحياته، وفي هذا دليل قوي على دهاء دو فوكو الذي أنجز رحلته المشهودة متنكراً في زي حزان.

وهنالك وسيلة أخرى للنفوذ إلى تلك الأصقاع من المغرب، قد توسلها سيكونتزاك؛ وهي أن تدخل في حاشية ولي من الأولياء يشملك ببركته. ولذلك فالنصيحة الوحيدة التي أمكن تقديمها لي في الرباط للتوجه إلى مكناس مروراً بزمور، هي أن أدخل في حماية شريف من الشرفاء يقوم بمثابة رئيس لفرقة موسيقيين ورقاصات يطوف وإياهم بلاد الشلوح، بيد أنه كان يومئذ يقوم بجولة من جولاته، وبذلك أجهضت محاولتي الوحيدة لدخول بلاد السيبة خلال مقامي الأول في المغرب.

وتبقى الأضرحة التي تجل عن الحصر والمدن المقدسة التي صارت اليوم منتهكة كمولاي إدريس وشفشاون. فإذا أراد المرء زيارتها من دون أن يعرض نفسه لشر ميتة، أو يضطر على الأقل إلى الارتداد عن دينه لزمه أن يتنكر ويعد إعداداً للقيام بالدور الذي ينتويه. وعلى هذا النحو أفلحت

في زيارة حمامات سيدي حرازم، وكذلك وخاصة زرت حامات مولاي يعقوب ذات الشهرة الواسعة. وأما في ما يتعلق بمولاي إدريس فإن كل ما أمكنني فعله إذ كنت مخيماً في دوار فرطاسة، هو أن أرتقي قبل طلوع الشمس تلة تشرف على المدينة من الناحية الشمالية، لأتمكن من الإلمام بذلك المجال. وأما شفشاون فقد كان من المستحيل عليَّ أن أدنو منها بسبب المعارضة التي وجدتها من شرفاء وزان.

كان المغرب يبدو يومئذ في صورة شديدة الاختلاف عن حاله اليوم. وكانت السهول الشاسعة القريبة من المحيط الأطلسي التي غزتها القبائل واقتسمتْها في ما بينها، ثم عادت الدول التي تعاقبت على حكم المغرب فاستولت عليها وأعادت توزيعها من جديد، قد ظلت في حالة أراضي جموع لكل قبيلة فيها أرض ليست مبينة الحدود بوضوح، للفخدات والدواوير في نطاقها أرض تظل فيها في تنقل تبعاً لاحتياجات الفلاحة وتربية الماشية. وتتخلل أراضي قبائل كثيرة خلاءات شاسعة تعرف باسم «البلاد الخالية»؛ حيث لم يكن للمرء أن يغامر حتى بقطعان الماشية؛ إذ كانت أشبه بالأرض الموات تُترك للخارجين عن القانون والحيوانات المفترسة.

وكانت الفلاحة لا تزال ضعيفة ومتخلفة، فكل فلاح يقتصر على القطعة الصغيرة من الأرض التي منحتها له الجماعة أو القايد في وقت التوزيع السنوي للأراضي الفلاحية، عدا أن الفلاح من هؤلاء لم يكن يزرع إلا ما هو ضروري ولازم لتلبية احتياجاته الخاصة؛ إذ كان لا يبعد أن يسلبه القايد ما يفيض عن حاجته. وكل ما تبقى من تلك الأراضي كانت بوراً تُجعل للرعي.

وكانت الملكية الفردية لا تزال على تخلف كبير. وقد ظلت القلة القليلة من الملاك العقاريين، منذ خمسين سنة، لا تخرج عن الشرفاء

والزوايا وموظفي المخزن الذين حصلوا على أراضيهم بموجب الظهائر الشريفة. وكان أول دفع بتكوين الملكية الخاصة هو الذي جاءت به اتفاقية مدريد وما كان من تقنين حق الحماية. فأصبح بعض الأهالي بفعل تلك الحماية غير خاضعين للقياد، ثم استقروا نهائياً فوق قطع أرضية صغيرة جداً قد اقتطعت من الأراضي الجماعية لفخداتهم، فلما أصبحوا في أمن من جشع رؤسائهم أخذوا يبتنون البيوت ويغرسون أشجار الفاكهة ويفلحون مساحات هي في اتساع متزايد، ثم انتهى بهم الأمر إلى أن صاروا مالكين فعليين بموجب الإحياء والتقادم.

وقد تعاظمت هذه الحركة بتخويل حرية تصدير الحبوب في سنة 1890 أو نحوها، لكن الملكيات الخاصة، أو «الأملاك»، كانت حتى سنة 1900 لا تزيد عن جزر معزولة وسط الأراضي الجماعية الشاسعة، ولا يحضرون بشيء من الكثافة في غير بعض المناطق الجبلية وفي ضواحي المدن.

وفي ما بين السهول العليا والمرتفعات الجبلية في المناطق الداخلية والساحل حيث تنتشر السهوب التي يملؤها النخيل الصغير [الدوم] والأدغال الشاسعة التي يملؤها شجر المصطكا والعناب والريحان والوزال تمد السهول الأطلنتية الجنوبية حصيرها المترب العريض الذي هو في تآكل متدرج بما يقترب الصيف، لكن أمطار الخريف كانت تعيده أخضر والربيع يحوله بساطاً مزركشاً بشتى الألوان ينبسط على ملايين الهكتارات وتُرى في الوسط والجنوب منه خضرة غامقة من غابات البلوط والفلين والأرغان وتتخللها أحواض أودية تحفها الطرفاء والرند ورقع فاتحة الخضرة لحقول القمح، فتجعلها زربية باذخة تفوق كل وصف.

وكنت أجد فتنة وسحراً في الطواف بتلك المناطق التي كانت لا تزال غير معروفة كثيراً، وأجد متعتي في اكتشاف الأنهار والجبال

والقبائل التي لم تكن أسماؤها قد وردت بعد في أي خارطة، والاصطياد من طريدة كانت لا تزال وافرة من دون رخصة صيد، ونصب خيمتي مساء في السبسب النضر وفي اليوم الذي بعد وسط خرائب قصبة قديمة وفي اليوم الذي يليه تحت ظلال أشجار النخيل أو أشجار البرتقال المزهر وأن أخلد إلى النوم بعد نهار مليء بالعمل، تتناهى إليّ أحاديث رجالي المتسامرين حول النار مختلطة بصوت الخيول وهي تجتر طعامها ونشيد الشحارير والعنادل وعواء الذئاب البعيد، وأن أخيم بين البدو وأكون في اليوم الذي بعدُ ضيفاً على قايد حفي، لأنتهي في الأخير إلى تلك المدن المغربية القديمة الراكنة إلى ماضيها، وهي على حالها التي كانت عليها يوم أن كانت إمبراطورية المرابطين يمتد نطاقها من نهر الإيبرو إلى النيجر ومن المحيط الأطلسي إلى سِرتْ.

لكن إذا أراد المرء أن يستمتع حقاً بمفاتن هذه البلاد لزمه أن يسهو عن حالتها السياسية والاجتماعية، ويحكم إغماض عينيه وإغلاق قلبه بشدة - كفعل پيير لوطي - فلا يرى ما تعج به من صنوف العسف وألوان البؤس. فما عادت المملكة الشريفة سوى مفارقة تاريخية مهددة بالانقراض وسوى ضريح مبيض لم تعد أوروبا القرن العشرين تطيق له وجوداً على أبوابها.

القسم الثاني

من الغروب إلى الفجر

الفصل التاسع

بداية النهاية

توفي الصدر الأعظم سي أحمد بن موسى في يوم 13 ماي 1900. فكانت وفاته إيذاناً بنهاية المغرب القديم.

لكن ميراث الحسن الأول كان لا يزال، حتى تلك اللحظة يكاد يكون كاملاً لم يداخله النقصان. فقد كانت قبائل بلاد المخزن خاضعة مطيعة فهي تؤدي ما عليها من ضرائب. وكانت قبائل بلاد السيبة تقتصر على التقاتل في ما بينها دون أن تصل بعدوانها إلى البلاد المطيعة. وما بين قبائل المخزن وقبائل السيبة تقوم القبائل شبه المستقلة، التي تتخذها «المملكة السعيدة» واجهة تظهر بها لأوروبا أنها دولة ذات سيادة. وكانت الخزينة تحتوي على ستين مليوناً؛ أي ما يكفي للوفاء بالنفقات العادية لأربع سنوات مالية.

كانت بلاد المخزن تضم في الشمال مدينتي طنجة وتطوان والقبائل المشاطئة للبحر الأبيض المتوسط، علاوة على أصيلا والعرائش والقصر. ويتجه نطاقها إلى المناطق الداخلية باتباع مجرى وادي سبو فيشمل وزان ومكناس وفاساً وصفرو. ومن مكناس يتجه نطاق بلاد المخزن موازياً لنطاق كروان وقبائل زمور، حتى يكاد يصل إلى البحر عند الرباط وسلا فلا يخرج عنها في الأراضي الفاصلة بين بلاد السيبة والمحيط غير نطاق ضيق يدخل في بلاد المخزن. وأما إلى الجنوب من أبي رقراق فإن الحد الفاصل يتجه من جديد إلى الداخل في ما بين قبائل زعير وقبائل الشاوية فتضم بلاد المخزن هذه القبائل الأخيرة، بالإضافة إلى قبائل بني مسكين والسراغنة وزمران

وهنتيفة وصولاً إلى دمنات. ومن هناك يتجه ذلك الحد على امتداد جبال الأطلس، وينتهي عند البحر فاصلاً بين رأس سيم ورأس غير، ومحيطاً بسائر بلاد الحوز بثغوره وأقاليمه الساحلية الغنية وسهوبه الرعوية وسهل مراكش الفسيح والقبائل المسماة ديارا ساكنة سفوح جبال الأطلس.

وخارج هذه الحدود كان المخزن يتعهد حامياته في تازة ووجدة والقصابي وتافيلالت وأكادير وطرفاية قريباً من رأس جوبي، وفي كثير من المواضع من جبال الريف. وكان يمون هذه المراكز الأخيرة عن طريق البحر بواسطة بواخر الأسطول الشريف. وقد كانت الحاميات الأخرى المتفرقة في أنحاء البلاد المستقلة، أو شبه المستقلة، تحظى بالاحترام، كما كانت حرية التجارة في الطرق المؤدية إليها مكفولة بوجه عام.

وكانت منطقة التغطية المتمتعة باستقلالية نسبية تضم في الشمال أنجرة وجبالة والقبائل القائمة على ضفاف الأنهار في خنق تازة وأمالات وجدة ثم بني سادن وآيت يوسي وقسماً من بني مطير وكروان وبعض الفخدات من بني حسن وزمور والزيايدة والمداكرة والأعشاش وبني خيران وورديغة وقبائل تادلة. ويدخل في هذه المنطقة كذلك في الجنوب قياد الأطلس الكلاوي والكندافي المتوكي والكيلولي وأنفلوس الذين يُحسبون على المخزن باعتبارهم إقطاعيين كباراً أكثر مما بكونهم عمالاً للدولة الشريفة.

وعلى الجانب الآخر توجد بلاد السيبة؛ وهي تشمل جبال الريف والأطلس المتوسط والأطلس الكبير والأطلس الصغير ووادي سوس ووادي درعة والسهول المقفرة الخالية؛ حيث خليط وعجيج من العشائر البربرية المستقلة، المنفلتة كلياً من سلطة المخزن، والمتصارعة مع بضعها في اقتتالات لا تفتر ولا تتوقف، لكنها شديدة حرص على استقلالها والدفاع عنه بحيث لا تجد سلطاناً، كما لا تجد القرطاجيين ولا الرومان ولا الوندال أو العرب أفلحوا في إخضاعها.

كان مولاي عبد العزيز في الثانية والعشرين من العمر، وقد ظل كل شأنه، إلى ذلك الحين أن يملك من دون أن يأخذ بشيء من زمام الحكم في بلاده، وإنه لحكم غاية في التعقيد.

وتوفي شقيقا الصدر الأعظم؛ سي سعيد العلاف وسي دريس الحاجب قبل وفاة شقيقهما. فقد توفي الأول قبله بثلاثة أشهر وتوفي الثاني قبيله ببضعة أسابيع. وسرت الشائعات بأن الإخوة الثلاثة اغتيلوا بالسم، ولم تكن بالجمهور حاجة إلى إعمال التفكير كثيراً لمعرفة الجناة؛ إذ كان يكفيه أن يفكر في تلك القاعدة المأثورة «كما قتلتَ تُقتَل»*.

وأياً ما يكن، فإن المخزن فقد رئيسه واثنين من أعضائه. وأما من بقي بعدهم من الوزراء فإنهم لم يكونوا بالمؤهلين لخلافة باحماد؛ ذلك الرجل الفريد، ولا كانوا بالقادرين عليها. فما عاد للسلطان بدٌّ أن ينفض عنه الخمول والكسل، ثم إذا هو قد صارت تظهر عليه بعض علائم نشاط لم يكن يتوقعها منه أحد. ومن قبيل ذلك أنه عيّن في منصب الصدر الأعظم الحاج المختار بن عبد الله وهو ابن عم الصدر الأعظم السابق، ومن بعده سي فضول غرنيط، الصدر الأعظم السابق لمولاي الحسن، وعين في وزارة الحربية سي المهدي المنبهي الذي تعرفنا عليه في معسكر صخرة الدجاجة حيث كان يومئذ يقوم بدور كبير المحلة.

وقد كان يُخشى نشوب اضطرابات خطيرة أو تمرد لأنصار سيدي محمد الشقيق الأكبر للسلطان، الذي كان لا يزال رهين محبسه. لكن لم يزد الأمر عن بعض الفتن المحلية، وسرعان ما تم قمعها. وقام السلطان كما هي العادة بالاستيلاء على الثروة الهائلة التي خلفها صدره الأعظم وبدا أنه راغب في الاستئثار كذلك بميراثه المعنوي بالقبض على زمام الحكم.

* *in fecit cui prodest*

لكن سرعان ما اتضح أن سي المهدي المنبهي قد خلف باحماد في إدارة شؤون البلاد وفي تأثيره على عقل السلطان الشاب، مع بقائه مستأثراً بمنصب العلاف، وأما مهمة الصدر الأعظم فقد صارت تقتصر على إدارة الشؤون الداخلية.

لقد استبدل مولاي عبد العزيز وصياً بوصي، لكنه لم يحقق من التحرر إلا ما صار به يلقي بنفسه في ضروب التسلية واللهو العقيمة، يبذر فيها مدخرات بيت المال. ومن ذلك أنه قد أصبح راعياً لفن التلحين الراقص وصار كذلك راعياً للفنون البهلوانية، وصار يقبل على إطلاق الشهب الاصطناعية ويؤتى إليه من البلاد الأوروبية بالدراجات الهوائية والزوارق التي تشغَّل بالبنزين والسيارات وآلات البيان ومعدات المطبخ والأراغن الصغيرة المتنقلة والساعات الدقاقة والحاكيات والحيوانات المتوحشة والأزياء العسكرية وفساتين النساء والمخصَّرات والطرابيش والحلي واللعب الآلية وآلات التصوير، وقد كانت بينها واحدة من الذهب المصمت.

إن كل تلك الألوان من اللعب والتسليات ومن جملتها التصوير الذي اطلع السلطان بفضله على ما كان يحدث خارج المغرب، قد جعلت تصوره للحضارة الأوروبية تصور المسحور بها، وخلقت عنده رغبة في التمكين لبلاده أن تأخذ بحظها من تلك الحضارة. فصار لا يحلم يومئذ بغير الابتكارات والإصلاحات، وسرعان ما أخذ يبذل قصارى طاقته المنطوية في طبعه النبيل الكريم للانتقال من الحلم إلى الإنجاز.

لقد انكب السلطان على العمل في حمية ونشاط يتلهف لتحقيق مشاريعه وجعل يقوض المؤسسات القديمة التي ليس له بها كبير معرفة لكنها مؤسسات كانت، مع ما تعج بضروب التجاوزات، ملائمة للبلاد وتؤدي عملها وإن بصورة منقوصة، وسعى إلى استبدالها بتنظيم جديد كل الجدة

يفضُل التنظيم القديم من الناحية النظرية، بيد أن هذا التنظيم الجديد كان سيءُ التصميم والإعداد وكان مبتسراً بما يتعذر عن التطبيق.

أُلغيَت الضرائب الشرعية القديمة، كما أُلغيَت النايبة، واستبدلت من الناحية النظرية بضريبة أكثر عدلاً وإنصافاً من ضريبة الترتيب التي أصبحت تقع على جميعٍ القبائل، بما فيها قبائل الكيش، ويتولى جبايتَها أعوان مختصون بدلاً عن القياد. وما عاد هؤلاء يضطرون إلى شراء وظائفهم بل صارت لهم رواتب، ولا عادوا مضطرين إلى استغلال الرعية. وأصبح لزاماً على الأمناء أن يقسموا على المصحف الكريم ألا يختلسوا شيئاً مما يجبون من رسوم وألا يستلموا بعدُ رشاوى.

ومما لامراء فيه أن نوايا مولاي عبد العزيز قد كانت نوايا محمودة، بيد أن الإصلاحات التي جاء بها كانت أبعد من أن تلقى القبول المتحمس. فقد كانت الساكنتان الحضرية والقروية غير معتادتين كثيراً على الاهتمام الذي صارتا تجدانه من المخزن؛ فهي تنظر إليه بعين ملؤها الريبة والشك. واستشعرت قبائل الكيش في الأمر تهديداً لصلاحياتها، ولم يرَ الموظفون في هذا النظام الجديد غير أنه ينال من امتيازاتهم القديمة التي كانت لهم في استنزاف خيرات البلاد ونهب دخول الدولة. وأما العلماء فقد رأوا في ذلك النظام اعتداء سافراً على التقاليد الموروثة وخروجاً عن الشريعة الإسلامية.

لقد قوبلت التجديدات التي جاء بها السلطان الشاب باستياء عام زادت منه طبيعته غير المكترثة كثيراً بالتقاليد وميله الشديد إلى الرياضات الوافدة من أوروبا والمتعة الواضحة التي يجدها في معاشرة الكفار. ولم يلبث ذلك الاستياء أن صار إلى سفور وأخذ يقوض السلطة والهيبة الشريفتين.

وفي تلك الأثناء تعرضت المراكز الفرنسية على الحدود الجزائرية لاعتداءات شتى، وقتِل فرنسي يدعى پوزي؛ فكان ذانك الحدثان سبباً في إرسال الفرقاطتين «بوثيو»* و«دوشايلا»* إلى السواحل المغربية.

وفي ماي 1901 كنت قد استنفدت ما تحصل لديّ من مدخرات من الحرْكة ولم أستطع أن أحزم أمري على العودة إلى الدار البيضاء وأعود إلى الحياة البسيطة التي كنت أحياها فيها بصفتي طبيباً ممنوحاً ولذلك قررت مغادرة المغرب مؤقتاً بعد أن أقوم فيه برحلة استشكافية دائرية أطوف بها حول الشاوية، وقد كان مسارها على النحو التالي : الدار البيضاء فأزمور والسير بطول الضفة اليمنى لنهر أم الربيع وصولاً إلى مشرع الشعير والتوجه من هناك إلى بن احمد عبر كيسر وقصبة أولاد سي بن داود والتوجه من هناك إلى بوزنيقة مروراً بأراضي المداكرة والزيايدة، ثم العودة باتباع السبيل الساحلية إلى الدار البيضاء.

وقد أمكنني خلال هذه الرحلة الطويلة أن أعاين الاختلال الكبير الذي سار إليه الأمن في القبائل والعداء الذي صارت تحمله للسلطان حتى لم تعد تجديني رسالته فتيلاً. وكان القايد العياشي على أولاد سعيد قد عين في قيادة جيرانه أولاد سي بن داود، وكان قد احتل منذ وقت يسير قصبة منافسه الذي تم خلعه في اليوم الذي طلبت ضيافته. وكان أنصار القايد المخلوع يتهيأون لمهاجمة القصبة، ولذلك قضينا هناك ليلة يغلب عليها الهياج والاضطراب.

وفي اليوم الذي بعدُ سطا بعض اللصوص في الطريق إلى دار بن خمليش على قافلة صغيرة كانت تتقدمنا ببضع دقائق وقتلوا اثنين من رجالها. وكان المداكرة في حرب مع الزيايدة، ثم إذا المرشد الذي اتخذناه من عندهم يتخلى عنا في خضم تلك الجلبة. وتلقانا أولاد احمد، وهم

* Pothuau
* Du-Chayla

فخدة من الزيايدة، يعسكرون في الموضع الذي يُعرف ببولوحوت، بحفاوة كبيرة. لكننا لم نلبث أن هوجمنا في اليوم الذي بعدُ في موضع بين عين السلطان وبوزنيقة من قِبَل عصابة من زعير على مسافة قريبة من حدودهم.

وبعد شهر زرت باريس حيث وجدت سي عبد الكريم بن سليمان وزير الشؤون الخارجية، الذي كان قد أرسِلَ سفيراً فوق العادة بهدف هو في ظاهره التوصل إلى وفاق فرنسي مغربي حول القضايا المتعلقة بالحدود الجزائرية، لكن الغرض الحقيقي من تلك البعثة كان التمويه على المهمة الموازية لصاحب الحظوة سي المهدي المنبهي، الذي كلف رسمياً بالذهاب لتقديم تهانئ السلطان إلى إدوار السابع بمناسبة توليه العرش، وكلف خاصة بالاحتجاج في لندن وفي برلين على احتلال الجيوش الفرنسية لتوات وطلب الدعم من أنجلترا وألمانيا للوقوف في وجه فرنسا.

لست أعرف بالنتائج التي آلت إليها مهمة المنبهي. وأما مهمة بن سليمان فقد انتهت بتوقيع السيد ديلكاسي والسفير المغربي في 20 يوليوز 1901 على معاهدة تخول لدويمنيع وأولاد جرير حق الاختيار بين المغرب والجزائر، وتشرك حكومتي البلدين في ما يتعلق بالشرطة وتهدئة المناطق الحدودية التي بقي الاختصاص بها غير واضح. وتلك كانت أول خطوة نحو قيام تعاون فرنسي مغربي.

كانت فرنسا لم تقم إلى ذلك الحين بأي مجهود جدي تضمن به لنفسها في المغرب غلبة النفوذ؛ على الرغم من الأهمية الحيوية التي لهذا الأمر عندها. فعند نزولي في الدار البيضاء خمسَ سنوات قبل، كانت الجاليات الأجنبية - بما فيها الألمانية - تعيش بشعور أنه ما عاد في وسع فرنسا أن تتأخر عن بسط نفوذها لتشمل به سائر المملكة الشريفة، وقد كان معظم تلك الجاليات يتوقع هذا الأمر في هدوء، بله ينتظره برضى وارتياح.

غير أن اختيار وزارة الخارجية الفرنسية لبعض الأعوان الذين أرسلتهم إلى المغرب ليمثلوا فرنسا هناك لم يكن بالاختيار الذي يعزز من هذا الانطباع، بل كان اختياراً يترجم الاستخفاف التام بهذا البلد. فقد رأيت قنصلية الدار البيضاء من غير قنصل لمدة تقارب السنتين ثم شغلها سياسي غفل، فلم يعمر فيها لأكثر من ثلاثة أشهر. وكان من حسن الحظ أن السيد ريڤوال وهو يومئذ مندوب فرنسا في مدينة طنجة قد أناب عنه في هذه القنصلية عوناً في مقتبل العمر أرسِلَ في ما بعد إلى مدينة فاس وقت أن أنشئت فيها القنصلية الفرنسية، ليكون فيها مستشاراً ووكيلاً سياسياً. ثم لم يمض عليه وقت يسير حتى صار فيها أحد المحركين الأساسيين لسياسة فرنسا في المغرب؛ ذلك هو السيد هنري كايار، الذي صار في ما بعد أميناً عاماً للحكومة الشريفة ثم مندوب فرنسا في القاهرة.

وفي 1902 باشر السيد ريڤوال، وقد صار حاكماً عاماً على الجزائر تنفيذ بروتوكول 20 يوليوز 1901. فيكون مولاي عبد العزيز أول من طلب مساعدة من فرنسا فأمدته بها. فقد تم التوقيع في أبريل ومنتصف ماي على اتفاقين جديدين بين الجنرال كوشيماز وسي محمد الكباص المندوب السامي للحكومة الشريفة لتحديد العمل المشترك للحكومتين في المنطقة الحدودية ما تعلق بالشرطة أو الجمرك أو الأسواق المختلطة أو همّ المراكز العسكرية، إلخ.

لقد تم لنا طرد خصمنا بوعمامة من فكيك. واستأذنَنا المخزن في الترخيص للحامية الموجهة إلى هذه الواحة بالمرور عبر المنطقة الفرنسية فأذنا له. وطلب أن نمده بمدربين عسكريين فجعلنا بعضهم في خدمته. والتمس من إحدى الشركات الفرنسية قرضاً بسبعة ملايين ونصف المليون فأمكن التوقيع على هذا القرض بفضل مساعي الحكومة الفرنسية.

لقد كانت بداية فترة من الوفاق بين فرنسا والمغرب وبدايةَ الاختراق السلمي.

الفصل العاشر

غروب المغرب القديم

في تلك الأثناء كان خصوم المنبهي قد بدأوا في مراكش يتحركون لضربه. حتى إذا فشلت سفارته في تحقيق كل النجاح المطلوب، كانت لهم فرصة للنيل من خصمهم والإطاحة به. وبعد أن كان له ذلك الرحيل الباذخ العظيم إلى أنجلترا، لم يجد حين عودته إلى أرض المغرب ونزوله في مدينة الصويرة غير حرس زهيد لا يزيد عن عشرة فرسان مضوا به إلى مراكش وهو أشبه ما يكون بالمعتقل. لكنه لم يلبث كثيراً حتى استعاد مكانته المميزة وعاد له ذلك التأثير الذي كان له على فكر مولاي عبد العزيز، وإن لم يستعد نفوذه الكامل على تسيير شؤون البلاد.

وقد كان الوزير الشاب لقي في رحلته إلى أنجلترا وألمانيا عظيم الحفاوة والتكريم وعاد يحمل هو الآخر ميلاً معلناً إلى الأشياء الأوروبية. وبذلك عاد عهد التسلية ليبدأ من جديدٍ، بما فيه من شديد إضرار بالسلطة الشريفة وببيت المال الذي لم يلبث أن أفرِغ في رمشة العين.

وفيما كان الحوز لا يزال داخلاً تحت الطاعة حدثت اضطرابات خطيرة في الشمال، لدى جبالة والحياينة وبربر ناحيتي صفرو ومكناس. وصار خروج المخزن إلى فاس أمراً لازباً لا يحتمل الإرجاء، هو الذي تقرر منذ وقت طويل وظل في إرجاء متكرر.

ترك السلطان مراكش في دجنبر 1901، فزار الدار البيضاء، وأقام لشهرين في الرباط؛ حيث تلقى الكثير من السفارات الأوروبية. ثم حل

بفاس في ربيع 1902. وقد أرسلت حينئذ حرْكات في جميع الأنحاء؛ فمنها التي أرسِل على الحياينة، والتي أرسلت على بني مستارة، والتي أرسلت على بني مزكلدة. لكن لم يكد يخمد التمرد في تلك الأماكن حتى عاد إلى الاشتعال في أماكن أخرى.

وتعرَّضت مكناس في 27 غشت للهجوم، وتعرض سوقها للنهب من آيت يوسي وبني مطير. وكذلك خرجت كروان وزعير وزمور إلى التمرد وأعد السلطان حرْكة عظيمة لتوجيهها على المتمردين، وقرر أن يتولى قيادتها بنفسه.

وفي تلك الأثناء، وتحديداً في شهر أكتوبر، اغتيل الدكتور كوبر في مدينة فاس بيد أحد المتعصبين. ولجأ القاتل إلى ضريح مولاي إدريس، لكن أخرِج منه - وهي واقعة غير مسبوقة - بأمر من السلطان، وتم إعدامه. وبلغ الحنق من السكان كل مبلغ بسبب هذا الانتهاك لحق اللجوء المعروف بقدسيته.

وتمردت غياتة فزحف عليهم مولاي الكبير، أخو السلطان، وكسر شوكتهم في 3 نونبر. وبدا أن التمرد قد أخمِد في هذا الجانب. وفي 10 من الشهر نفسه غادر مولاي عبد العزيز مدينة فاس في كامل قواته وخرج يريد مراكش، وليؤدب في طريقه القبائل المضطربة في نواحي مكناس. ودخلت كروان وزمور في مناوشات مع جيش السلطان عادت فيها الغلبة إليه فقررت القبيلتان بعدها أن تتظاهرا بالطاعة والخضوع. وفيما كان ذلك الموكب على أهبة استئناف المسير إلى الرباط ثم مراكش، جاءت أخبار منذرة استدعت عودة السلطان إلى فاس فدخلها بعد شهر بالتمام والكمال من خروجه منها.

ثم لم يلبث مولاي الكبير أن لقي هزيمة نكراء من غياتة، بعد أن انضمت إليها قبائل أخرى، وصار التمرد في شرق فاس إلى اشتداد ينذر بكل سوء.

كان محركَ ذلك التمرد وقائده شخصيةٌ غامضة لم تكن تعرَف بعدُ إلا باسم بوحمارة؛ وهو واحد من أولئك المتنبئين وذوي الرؤى وأصحاب الخوارق والكرامات الذين كثيراً ما وجدنا لهم أشباهاً ونظائر في تاريخ الإسلام. وقد كان الرجل يزعم نفسه الأخ الأكبر للسلطان الذي انتُزعت منه الخلافة، ويعلن كذلك أنه المهدي المنتظر، أو «صاحب الوقت». والحقيقة أن صاحبنا – وهذا أمرٌ لم ينكشف إلا في وقت لاحق – كان كاتباً سابقاً لدى المخزن ثم فصِل من عمله، واسمه الجيلالي اليسفي الزرهوني. ولقد أفلح في إقناع القبائل بمهمته الربانية، بما كان يأتي من تكهن وأعمال الشعوذة. ثم أقام له بلاطاً حقيقياً، على منوال بلاط السلطان في مدينة تازة. وقد كان يومئذ ترك مركز قيادته وزحف على فاس بجيش من الأتباع المتألفين من ريفيين وبربر وجبالة.

وخرجت الجيوش الشريفة بقيادة مولاي عبد السلام الأمراني لصده فمُنيَتْ في 22 دجنبر بهزيمة نكراء وتركت خلفها اثني عشر مدفعاً وقدراً من الخيام والبنادق والذخيرة والدواب المركوبة وعدداً كبيراً من القتلى والجرحى. وفر الجنود إلى فاس وهم في صورة شنيعة من الضعف وهبوط الهمة لينقلوا إليها ما تملكهم من خوف شديد. فصار الناس يتحسبون لظهورٍ بوحمارة في أعقاب الجنود الفارين، لولا أنه قد عاد أدراجه إلى تازة بدلا من مواصلة انتصاره.

وتنفست فاس الصعداء، وسرعان ما أخذ السلطان يعيد تنظيم جيشه ويفاوض قادة التمرد. ثم جاء من مكناس بأخيه سيدي محمد، الذي باسمه اشتعل التمرد، وعينه عاملاً على فاس بعد مصالحة علنية. ثم لم تلبث الكثير من القبائل وقد تكشفت لها خدعة بوحمارة أن دخلت في الطاعة. ولم يمض وقت يسير حتى صار السلطان قادراً على معاودة الهجوم بجيش قوامه عشرة آلاف رجل.

ففي 29 يناير 1903 هاجم سي المهدي المنبهي معسكر المتمردين من جوانب فاس الأربعة، على رأس فرسان الكيش. وقد أفلح بعد معركة حامية في أسر خمسين منهم وحصد ما يماثل ذلك العدد من الرؤوس، التي تم تعليقها فوق أسوار باب المحروق. ثم انطلق في ملاحقة المتمردين، فتحقق له في 12 فبراير نصر آخر باهر عليهم. لكن لم يلبث أن توقف ولم يعد يستطيع تقدماً لفرار جنده بعد أن أصبح عاجزاً عن دفع أجورهم أو إطعامهم، ما اضطره إلى العودة أدراجه إلى فاس من دون أن يتأتى له القضاء التام على التمرد.

وكان مولاي عرفة والأمراني، عما السلطان، قد أرسلا بطريق البحر. فقد أرسِل الأول إلى الجبهة الجزائرية وأرسِل الثاني إلى مليلية، ليقوما من هناك بهجومين في وقت واحد على المتمردين في الشمال وفي الشرق. لكن لم يلبثا أن منيا معاً بالهزيمة في وقت واحد أو قريب منه. وهوجمت الحامية الشريفة في وجدة ومعها فخدة من بني يزناسن بقيت وفية للسلطان في 5 أبريل من المتمردين وتقهقرت إلى التراب الجزائري. ووقعت وجدة في أيدي أنجاد والمهايا، وتمت البيعة فيها لبوحمارة باسم سيدي محمد.

وفي الشمال حاصر الريفيون قصبة جنادة على مقربة من مليلية وأفلحوا في الاستيلاء عليها في 13 أبريل. وتمكن القايد عليها من اللجوء إلى التراب الإسباني ومن هناك استقل سفينة حملته والأمراني ومن بقي من جنوده إلى طنجة. وبذلك أبطِل مخطط الهجومات الثلاثة المتزامنة وأصبح بوحمارة «الروكي» سيداً على سائر الشمال الشرقي، بما فيه بني وراين وآيت سغروشن الذين أعلنوا انضمامهم إليه.

وقام في الشمال الغربي متمرد آخر يدعى مولاي أحمد بن محمد بن ريسون، الشهير باسم الريسوني، وهو شريف حقيقي، كان من قبل قاطع طريق، ثم عين بظهير شريف عاملاً، وما لبث أن خرج على السلطان

وهدد باجتياح تطوان وأصيلا والقصر. وبلغ الغليان حتى الفحص على مشارف طنجة. ولم تفلح الجيوش الشريفة بقيادة أحد أفضل قادتها؛ هو بوشتى البغدادي، الذي عين في ما بعد باشا على مدينة فاس، إلا بكثير من المشقة في تحرير هذه المدن. وفي 13 يونيو هاجمت القوات المخزنية الزينات؛ قلعة الريسولي وأضرمت فيها النار، لكن من دون أن تفلح في القبض عليه.

وفي تلك الأثناء وقع السيد هاريس مراسل صحيفة «**التايمز**»* في أسر المتمردين، فما أفرجوا عنه إلا بعد ثلاثة أسابيع وفي مقابل الإفراج عن عدد من أهل جبالة المودعين في سجني طنجة والعرائش.

وفي الغرب حاصرت زمور مدينة سلا، وأغارت زعير على قطعان الماشية في الرباط. وعم الغليان سائر البلاد الواقعة شمالي أبي رقراق.

وأقام المنبهي في فاس عدة شهور، استعاد بعدها القدرة على معاودة الهجوم. وقد أحرز بعض النجاح، وتأتى له أن يخضِع فخدات من بعض القبائل، ثم جعل يزحف في بطء باتجاه مدينة تازة، التي أفلح في انتزاعها من أيدي المتمردين في 7 يوليوز 1903. بيد أن الروكيَ زحف من الشمال الشرقي وسار لملاقاته وتحصن في مكناسة. ولم تلبث القبائل التي أخضعها المنبهي أن عادت للتمرد من ورائه، فحالت دون وصول الإمدادات إلى قواته، وسرعان ما صار في وضع حرج.

وهب مولاي عبد العزيز في 20 يوليوز لنجدة وزيره في الحربية على رأس محلة صغيرة، بيد أنه لم يفلح في السير إلى أبعد من وادي سبو؛ عند الحجرة الكحيلة؛ حيث لم يلبث أن أصبح هو الآخر في وضع حرج. وفر المنبهي من تازة ليلتحق بسيده في بضعة فرسان، ثم تخلى عنهما معظم جنودهما المحبطين

* *Times*

فلم يعد لهما بد من العودة أدراجهما إلى فاس، فدخلاها في 28 أكتوبر.

لقد أصبح المنبهي محبطاً ومهاناً بما كان يلقى من خصومه، فالتمس من السلطان أن يأذن له في الذهاب للحج. فلما عاد في سنة 1904، وقد حصل على الحماية البريطانية، اتخذ مقامه في مدينة طنجة حيث لبث حتى مماته هانئاً يتمتع بالثروة الهائلة التي جمعها خلال مقامه القصير في السلطة.

وفي تلك الأثناء كانت فرنسا تواصل مع المخزن تعاوناً ينحصر في شؤون الحدود الجزائرية المغربية. وعلى الرغم من الاعتداءات المتكررة التي كانت تقع على المراكز الفرنسية وعلى قوات الخفر الفرنسية، وعلى الرغم من قضيتي المنقار وتاغيت، فإن السياسة الفرنسية لم تتراجع أبداً عن موقفها الودي تجاه السلطان. ووقع الاعتداء في 31 ماي 1903 على السيد جونار الحاكم العام على الجزائر في بني أونيف، فاقتصرت فرنسا في 8 يونيو، وبعد الاتفاق مع المخزن، على قصف قصر زناكة الذي كان منه ذلك الاعتداء.

وكتب وزير الشؤون الخارجية المغربي في 3 يوليوز إلى مندوب فرنسا في طنجة السيد سان روني طايانديي يلتمس منه الحصول من حكومته على ترخيص للحاجب سي أحمد الركينة وعدد غير كثير من القوات الشريفة بالنزول في التراب الجزائري وأن يمده ببعض ما قد يحتاج إليه من رماة وأسلحة وذخيرة، فأجابه إلى كل ما طلب. وعينت الحكومة القبطان لاراس وبعض التلاميذ الضباط وأمدتهم بمدفعين ليلتحقوا بالمحلة الشريفة التي حطت في نمور في 10 يوليوز. وقد كان لهذه القوات الصغيرة اشتباك أول مع المتمردين أفلحت به في استعادة مدينة وجدة. ثم زحفت من هناك على تازة فهزمت المتمردين في الساحة التي شهدت معركة إسلي، ثم حطت رحالها في قصبة العيون؛ حيث لملمت شتات الحامية الشريفة التي خلفها المنبهي في تازة.

وكانت حالة المخزن، في ما خلا ذلك من سائر أنحاء البلاد، بالغة السوء. فقد اشتعلت الفتنة في الشمال حتى عمت سائر أنحائه. وكذلك كان الحال في الجنوب؛ إذ اندلع التمرد في الشاوية وفي الحوز وفي سوس. وكانت قوات المخزن تتراجع في كل مكان عن مواجهة المتمردين وتتفرق في جميع الأنحاء، في ما عدا القوات المحدودة التي كانت في وجدة. واحتجبت الضرائب عن بيت المال فصار خاوياً لم ينفع فيه القرض الجديد الذي حصل عليه المغرب من فرنسا وإسبانيا وأنجلترا والبالغة قيمته عشرين ألفاً. وحينئذ طلب السلطان إلى فرنسا أن تيسر له التفاوض من أجل الحصول من بنك باريس وبنك هولندا على قرض أكبر من القروض السابقة.

لقد بات من الواضح أن مولاي عبد العزيز غير قادر على تحقيق مشاريعه الإصلاحية. فقد عمت الفوضى أرجاء المملكة الشريفة، وأصبح التدخل يبدو أمراً لا يحتمل التأخير، خدمة لمصالح أوروبا ومصالح المغرب على حد سواء. وبدا أن الوقت أصبح مواتياً لفرنسا لإحقاق الحقوق الطبيعية التي يخولها لها وضعها في شمال إفريقيا بأن تفرض على السلطان تعاوناً أكثر فعالية في سائر أنحاء المغرب، وصار بوسعها بالتالي أن تظهر تفوقها السياسي فيه.

لكن من غريب أن ظل الرأي العام الفرنسي يركن إلى التقاعس. فهو نحو أنجلترا التي تتمتع بنفوذ غالب في البلاط الشريف كان لا يزال منذ عشرين سنة يركن إلى سياسته المعهودة والقائمة على الانتقادات والمضايقات، عساها تحقق لنا الثأر لأخطائنا التي اقترفناها في مصر والتي كانت فشودة نتيجتها الصارخة. ولم يكن أحد يومئذ قد «اكتشف» المغرب، في ما عدا بعض الاستعماريين المتنورين.

وفي تلك الأثناء بدأت ألمانيا توطن لنفسها على اعتبار المغرب مستعمرة ألمانية في المستقبل؛ يشجعها ما كان من كسل فرنسا وتراخيها وتحفزها الأعمال التي قام بها جغرافيوها ومستشرقوها؛ أمثال فون بفايل وثـ. فايشر و[جورج] كامفماير* وأ. فيشر وآخرين. وقد أرسلت إليه بجواسيس من المقام الأول وشجعت المقاولات التي أنشأها فيه مواطنوها بكل الوسائل الممكنة. وبدأ الحديث يومئذ عن قسمة، أو حكم ثنائي؛ بما يعني زيادة الفوضى على الفوضى. وقد أتاحت لي صحيفة «**الطان**»* في الأيام الأخيرة من دجنبر 1903 إلى أن أضم صوتي إلى جوقة الاحتجاجات التي كانت لا تزال ضعيفة على تلك اليوتوبيا المشؤومة، بنشرها عرضاً طويلاً كنت بعثت به إليها، وجاء في ختامه ما يلي:

«إن الحل الوحيد العادل للمشكلة المغربية هو المتمثل في الحفاظ للسلطان على وحدة ميراثه تحت رعاية خيرة ونزيهة من القوة الأقدر على مساعدته ومده بالوسائل لاستعادة سلطته وإعادة تنظيم بلاده.

«والقوة الأقدر على هذا الأمر بين سائر هذه القوى هي بلاجدال فرنسا. فإن لها على سائر المنافسين الممكنين امتيازاً بثلاثة أرباع القرن من التجربة في الجزائر والنتائج التي تحققت لها في هذه المستعمرة الجميلة والنتائج التي تحققت لها من الحماية على تونس، بما يجعلها المؤهلة لتتولى شؤون بلاد البربر قاطبة. وإن مصالحها التجارية ومصالحها السياسية في المقام الأول في المغرب لتفوق مصالح جميع الأمم الأخرى. ولا يمكنها أن تسمح لأي قوة أجنبية بأن تحتل الموقع الأول في المغرب الذي يعتبر الامتداد الطبيعي للجزائر، وإلا كانت تجازف بتلك الأرض الإفريقية

* (هـ.م) وردا اسماً لعلم واحد Th. Ficher Kamffmeyer، وهما لعلمين اثنين على نحو ما حللناهما.
* *Temps*

الجميلة وتعرضها للمخاطر. فمن المستحيل عليها أن تترك للآخرين إتمام عملها الحضاري في شمال إفريقيا لأن فيه انحطاطاً عن عليائها.

«وعليه فإن فرنسا هي التي يقع عليها أن تهب لمساعدة مولاي عبد العزيز. إن فرنسا الأمس تخول لفرنسا اليوم الحق في ذلك وتمنحها القدرة عليه. وفرنسا المستقبل تجعله أمراً واجباً عليها. فلم يبق لها إلا أن تريده!».

وبعد بضعة أيام نشرت **«روفي إبدومادير»*** رسالة لمراسل صحيفة **«التايمز»** الشهير في طنجة والتر بـ. هاريس، بين فيها حقوق أنجلترا وفرنسا ليخلص إلى الخلاصات نفسها التي انتهت إليها، واستعرض الشروط التي يمكن لفرنسا وينبغي لها فيها أن تتدخل في المغرب.

ومن حسن الحظ أن كان في وزارة الخارجية الفرنسية وزير وفي لندن سفير نبيهان، فأفلحا ببعد نظرهما في انتشال السياسة الفرنسية من ندمها وتحسرها العقيمين لفقدان فرنسا نفوذها على وادي النيل، وأفلحا في توجيه تلك السياسة صوب المستقبل. وكان ديلكاسي وبول كامبون عملا قبل وقت من ذلك بالرغبة الصادقة التي أعرب عنها الملك إدوار السابع في تحقيق الوفاق، وسعيا إلى بناء تقارب بين فرنسا وأنجلترا قمين بأن يؤول إلى وفاق ودي بينهما.

وفي 8 أبريل وقَّع اللورد لاندسداون والسيد پول كامبون على تصريح يطلِق يد فرنسا في المغرب مقابل التخلي عن حقوقها في مصر والتزامها باحترام سيادة السلطان وحرية التجارة لمدة ثلاثين سنة مع المغرب. والتزمت فرنسا فضلاً عن ذلك بعدم السماح ببناء حصون أو منشآت استراتيجية على السواحل المغربية بدءاً من مليلية ووصولاً إلى سبو.

* *Revue Hebdomadaire*

وتوصلت إلى اتفاق مع إسبانيا. وأعلنت بريطانيا أنه يدخل في مسؤوليات فرنسا السهر على هدوء المغرب، وعليها أن تمده بمساعدتها في كل ما قد يحتاج من إصلاحات إدارية ومالية وعسكرية وأن تلتزم بعدم عرقلة ما يقوم به من أعمال.

جاءت هذه الأحداث غداة احتلال اليابانيين لويجو وأثناء انسحاب روسيا إلى ما وراء يالو. وقد أمكنني بعيد ذلك أن أهتدي إلى سفينة أقلتني إلى الشرق الأقصى.

القسم الثالث

فجر الحماية

الفصل الحادي عشر

من لندن إلى الخزيرات

عدت من الصين واليابان عشية انعقاد مؤتمر الخزيرات.

وقد كانت الأمور في المغرب تزداد سوءاً على سوء، ثم إذا هي قد صارت كأنها تدور في حلقة مفرغة، حتى استحال على المخزن أن يخرج منها. فما عاد يملك مالاً، ولا عاد بحوزته جنود. فبانعدام الجنود انعدمت الضرائب وبانعدام الضرائب انعدم المال...

وتوقف نشاط الفلاحة وتربية الماشية وهما أهم مصدرين للدخول في المملكة الشريفة. وألغيت الضرائب الشرعية، العشور؛ أي الأعشار الواجبة في المحاصيل، والزكاة التي تمثل 2,5% من قيمة الماشية، وذلك ابتداءً من سنة 1901 واستُبدلت، لكن من الناحية النظرية فحسبُ، بالترتيب الذي ينعدم فيه الطابع الديني. وقد كان يمكن لهذا التغيير أن يتم بدون صعوبات لو كان في الإمكان أن يُعمَل من غير تأخير. بيد أن الترتيب ليُطبق على جميع المغاربة، محميين وغير محميين، وعلى الأجانب، كان ينبغي أن تقره الهيئات الدبلوماسية في طنجة. والحال أن هذا الأمر اقتضى مشاورات كثيرة، ولم يُكتَب له أن يتحقق إلا في يوم 23 نونبر 1903.

وابتداء من سنة 1904 أخذ مولاي عبد العزيز يسعى إلى تطبيق تلك الضريبة الجديدة، لكن كان الوقت قد تأخر كثيراً؛ فما عاد المخزن يملك السلطة اللازمة لفرض تلك الضريبة، وكان للشخصيات الدينية من الأسباب ما يجعلها تعترض على تطبيقها. وكانت قد مرت على القبائل

ثلاث سنوات لم تدفع خلالها الضرائب الواجبة عليها، فصارت عازفة عن العودة إلى أداء تلك الضرائب. واستغل البدو تلك الفترة الطويلة من الإعفاء الضريبي للتسلح، فلما جاءتهم اللجان المكلفة بالإحصاء وجاءهم الجباة تلقوهم بطلقات البنادق.

وفي مايو قام الريسولي الشهير باختطاف مواطنين أمريكيين؛ هما السيدان پيرديكاريس وڤاليري، على مقربة من مدينة طنجة، ثم لم يطلق سراحهما إلا بعد انقضاء شهرين، وبعد أن تم له التعيين عاملاً على جميع القبائل الواقعة في الشمال الغربي وحصل في أسيريه على فدية عظيمة، وتم له الإفراج عن بعض رجاله المودعين في سجون المخزن، وحبس بعض أعدائه الشخصيين وخلع باشا مدينة طنجة. لقد كان استسلاماً من أمير المؤمنين في شروط أشد ما تكون تحقيراً أمام شخص ليس سوى رئيس عصابة.

لكن أفلح المخزن في 12 يونيو 1904 بفضل مساعي الحكومة الفرنسية في الحصول من مجموعة من الأبناك الفرنسية المشتركة على قرض بقيمة 62 مليوناً ونصف المليون، أمكنه به أن يسدد ديونه الأخرى ويواجه الاحتياجات الملحة والاستعجالية، ويطيل من مدة احتضاره. وقد رهن القرض الجديد بـ 60% من عائد الجمرك البحري، ولذلك فوض المخزن لفرنسا بمراقبة ذلك الجمرك. وأرسلت الفرقاطتان «كليبير»* و«كاليلي»* إلى المياه المغربية. وابتداء من شهر يوليوز شرع السيد رينو، بصفته ممثلاً للمقرضين الفرنسيين، بتنظيم المراقبة على مختلف المراسي من دون أن تواجهه فيها من مقاومة.

ومن جهة أخرى، وللرد على وقاحة الريسولي المتفاحشة والتي بدأت تمثل إزعاجاً كبيراً للطنجيين، أعطى السلطان موافقته أن يتولى ضابطان من

* Klébir

* Galilée

الجيش الفرنسي، هما القائد فورنيي والملازم أول بن سديرة، وثلة أخرى من ضباط الصف، تنظيم حامية طنجة.

وفي فبراير 1905 أمكن لمندوب فرنسا في طنجة السيد روني طاياندييي أن يتوجه بعد لأي إلى فاس ليطلع السلطان على برنامج إصلاحات اشتمل على تنظيم الشرطة وإنشاء بنك للدولة وإنجاز مشروع الأشغال العمومية وبناء مستوصفات، إلخ. فكان رد السلطان بتوكيل فحص هذا البرنامج ومناقشته إلى جمعية تتألف من وزرائه وبعض العلماء وبعض المندوبين عن القبائل. وهي المناقشة التي ابتدأت في 22 فبراير.

وأما في باريس فقد بقيت السياسة الفرنسية المتبعة تجاه المغرب سياسة متضاربة تعمه في ضلال. فبعد أربعة أيام من التوقيع على الاتفاق الفرنسي البريطاني صرح الأمير بولوف في الرايختاك بقوله: «في ما يتعلق بالقسم الأساسي من هذه الاتفاقية، وأعني المغرب، فإن مصالحنا في هذا البلد هي ذات طبيعة اقتصادية في المقام الأول. ولذلك فمن مصلحتنا نحن أيضاً أن يستتب الأمن في هذا البلد». وفي 6 أكتوبر من تلك السنة أعلنت إسبانيا انضمامها إلى الاتفاق المبرم بين فرنسا وأنجلترا. وفي 10 نونبر بعده أعلن السيد ديلكاسي من على منصة مجلس النواب قوله: «إن المغرب أصبح مفتوحاً لنقوم فيه بالاختراق السلمي».

ولم يفت وزارة الخارجية غير أمر واحد: أن تشعر بالاتفاق الفرنسي البريطاني القوى الموقعة على اتفاقية مدريد. وبطبيعة الحال فقد أفادت ألمانيا من هذا الإهمال الدبلوماسي لتظل محتفظة بحريتها في التصرف تجاه المغرب. وصرح المستشار الألماني في ما بعد بقوله: «لو أنني أجبت إلى خطابي المطمئن كما يكون الجواب الطبيعي بإبلاغي رسمياً بالاتفاق الفرنسي الأنجليزي مصحوباً بالتفسيرات اللازمة، لما كان للنزاع المغربي أن يقع».

بيد أن الحكومة الألمانية أصبحت منذئذ في أنظار الرأي العام الألماني كأنها الساحر الذي انقلب عليه سحره.

وزاد من فداحة هذا الخطإ الذي وقعت فيه دبلوماسيتنا تلك الرعونة التي طبعت بعض صحفنا؛ فبدلاً من أن تقتصر على إبداء سرورها لإبرام ذلك الاتفاق الذي يمنح فرنسا الامتياز في المغرب، رأيناها تطلق العنان لغبطة بليدة كأنما هي قد أوقعت ألمانيا في مقلب، وصارت تصور المغرب وكأنه قد وقع بالفعل تحت الحماية الفرنسية.

وقامت الصحافة الألمانية إلى الرد بالمثل بالقول : «لقد استخِف بقدر ألمانيا! فقد كان الاتفاق الفرنسي البريطاني موجها ضدها ! إنهم يريدون تونسة المغرب!». وبلغ الأمر بالخطوط الجرمانية والشركة الاستعمارية الألمانية والشركة المغربية لبرلين إلى المطالبة بضم المغرب، أو على الأقل ضم القسم الأساسي منه؛ والمراد به السهول الأطلنتية الجنوبية بذريعة أن ألمانيا بحاجة إلى قاعدة بحرية في الشمال الغربي من إفريقيا وبحاجة إلى مجال للتوسع الاقتصادي وبحاجة إلى جالية لإعمار ذلك المجال.

وصار جميع المهتمين جدياً بالمسألة المغربية يتحسبون للتدخل الألماني. فهم يرون ذلك التدخل بات وشيكاً بعد انهيار القوة الروسية في الشرق الأقصى. لكن بقيت وزارة الخارجية الفرنسية متصامة عن التحذيرات التي كانت تأتيها من سفارة برلين ومن المفوضية الفرنسية في طنجة ومن الجالية الفرنسية.

وتأخر الرد الرسمي الألماني على السياسة الفرنسية؛ لكنه كان رداً مثيراً. ففي 31 مارس 1905 نزل كيوم الثاني في طنجة وأعلن سيادة المغرب واستقلاله الكاملين وأنه مفتوح على التنافس السلمي في وجه جميع الأمم من غير احتكار ولاإقصاء بأي شكل من الأ شكال.

وإذا نفوذ القوة التي «أنقذت المغرب من الخطر الفرنسي» قد صار منذئذ نفوذاً راجحاً في فاس؛ حيث كان مندوب فرنسا يواصل مفاوضاته في عسر ومشقة. فقد جاء الكونت طاطينباخ مندوب ألمانيا إلى فاس في 11 ماي، وفي 27 من الشهر نفسه أعلم السلطان السيدَ سان روني طاياندي بعد ثلاثة أشهر من المحادثات أنه يرفض برنامجه ويقترح عليه أن يعرض مسألة الإصلاحات على مؤتمر دولي.

وفي 6 يونيو قدم السيد ديلكاسي استقالته وقبل السيد روڤيي بتولي تلك المهمة الشاقة عساه يجد مخرجاً من تلك الوضعية. ثم لم يلبث بتأثير الوعود الذي تلقاها من الأمير بولوف، أن وافق على فكرة المؤتمر بعد محادثات شاقة وعسيرة بين السيد روڤيي وبرينس [فون] رادولين* من جهة والسيد ريڤوال وروزن من جهة أخرى، وعقد تسويتين شديدتي الإبهام (في 8 يوليوز و28 شتنبر) لكنهما تعترفان مع ذلك بالوضع الخاص لفرنسا بحكم الجوار، في مساحة شاسعة من الجزائر والمغرب.

ولم يبق لفرنسا من اتفاقها مع أنجلترا - كما أعلن السيد پول ديشانيل في مجلس النواب في 3 نونبر 1904 - «الذي تمت التضحية فيه بكل شيء في سبيل فكرة أساسية : المغرب» - غير المساعدة الصادقة من المندوب البريطاني التي كنا نعول عليها في المؤتمر. وعلى العكس من ذلك فقد صار الرأي العام الألماني، بما ألهبته صحفه بكل ألوان التشنيعات، أشدَّ عداء من أي وقت مضى لأي وفاق [مع فرنسا] في موضوع المغرب.

كنت يومئذ في الألزاس حيث قدمت محاضرة في رد المزاعم الألمانية. وقد كانت صحيفة **«ستراسبورغر بوست»*** الشهيرة كأنها النار

---

* (هـ.م) ورد اسمه Le prince de Radolin، وهو دبلوماسي ألماني.

* *Strassburger Post*

المتفجرة على فرنسا وعلى المتفرنسين الألزاس. وفتح مدير «**جورنال دالزاس لورين**»* ليون بول يومئذ في وجهي أعمدة صحيفته الشجاعة. فانبريت أذكر بأصول الأزمة المغربية وأقلب النظر في الحلول المقترحة لها والصفة التي ستحضر بها كل أمة من الأمم المعنية أكثر من غيرها بشؤون المغرب ذلك المؤتمر. وانتهيت في تلك المقالات إلى الخلاصة التالية :

«إن أنجلترا وإسبانيا، وهما القوتان الأجنبيتان المعنيتان أكثر من غيرهما بعد فرنسا، بمستقبل المملكة الشريفة، قد أقرتا لفرنسا بالحق في تقديم المساعدة للمغرب. ومن غير الممكن لألمانيا أن تظل مصرة على تجاهل المصالح الأساسية لبلد تدعي أنها تريد أن تعيش وإياه في وفاق. وما أكثر ما أعلن الأمير بولوف أن فرنسا لن تندم على أن وافقت على ذلك المؤتمر، الذي سيتيح لها انعقاده الوشيك الفرصة لإثبات أنها الدولة المعنية أكثر من غيرها بشؤون المغرب وذلك بالانخراط الكامل في روح التسويات التي أبرمتها مع القوى المعنية أكثر من ألمانيا بمستقبل المغرب.

«إن تفوق مصالح الفرنسيين وحقوقهم في المغرب أمر لا يقبل الجدال ولا يمكن أن يكون في نية فرنسا أن تضر بأي طرف، وإن وعيها بمشروعية مطالبها وعزمها الثابت على القيام بواجبها تجاه نفسها واتجاه المغرب وأوروبا هو ما جعل السيد روفيي يدلي في 16 دجنبر بذلك التصريح الواضح الصريح الجديد بناطق باسم الجمهورية الفرنسية».

وبدأ المؤتمر أشغاله في 15 يناير 1906 بإعلان المبادئ المتمثلة في سيادة السلطان والوحدة الترابية للمملكة الشريفة والحرية التجارية التي لا يحدها قيد ولاشرط. فكان بحق صراعاً طويلاً بين مندوبي فرنسا السيدين ريڤوال ورينو ومندوبي ألمانيا السيدين رادوڤيتس وطاطينباخ.

* *Journal d'Alsace-Lourraine*

مثَّل بريطانيا في ذلك المؤتمر حليف فرنسا الوفي السير آرثر نيكولسن ومثَّل إسبانيا الدوق دالمودوبار ومثَّل إيطاليا السيد دي ڤيسكونتي ڤينوستا ومثَّل الولايات المتحدة الأمريكية السيد وايت ومثل روسيا الكونت كاسيني. وأما مندوبو المملكة الشريفة فقد كانوا هم سي محمد الطريس وسي الحاج محمد المقري وسي عبد الرحمان بنيس. وحضر ذلك المؤتمر أيضاً ممثلو البرتغال والنمسا وبلجيكا وهولندا والسويد؛ أي أن المشاركين فيه كانوا على وجه الإجمال يمثلون القوى الثلاث عشرة الموقعة على اتفاقية مدريد.

وقد عالج المؤتمر في البداية المسائل الاقتصادية والضريبية. وقرر بالنظر إلى وضعية المغرب المالية ولأجل زيادة موارده، أن يرفع من رسوم الجمرك من 10 إلى 12,5%، كما قرر إنشاء احتكار للتبغ وتطبيق الترتيب على الرعايا الأجانب، ضمن الشروط التي حددها نظام الهيئة الدبلوماسية في طنجة في 23 نونبر 1903 «بمجرد أن يُشرع في تنفيذه بطريقة قانونية على الرعايا المغاربة وفي الجهات والأماكن التي ستتم فيها جبايته فعلاً». بيد أن هذا التصريح لا يعيد الحياة بطبيعة الحال إلى الترتيب الذي ظل حبراً على ورق لعدم وجود السلطة القادرة على تطبيقه.

وتداول المؤتمر مسألة المتاجرة في الأسلحة، فلم يكد يخلص فيها إلى حل. ثم انتقل بعدها إلى مسألة الشرطة، وإذا النقاش يحتد ويلتهب بسبب معارضة ألمانيا لانتداب فرنسي، أو حتى فرسي-إسباني. وانعقدت جلسات كثيرة حامية الوطيس، لكنها انتهت إلى قرار بخلق طوابير مخزنية في المراسي المفتوحة. وقد اشترُط في تلك القوات أن لا يتجاوز تعدادها الكامل 2.500 رجل، وأن يتم إمدادها بأطر فرنسية في الرباط والجديدة وآسفي والصويرة وأطر إسبانية في العرائش وتطوان، وأطر مختلطة في طنجة والدار البيضاء تحت إشراف ضابط سام سويسري مقيم في طنجة.

وتقرر في الأخير إنشاء بنك للدولة برأسمال بدئي قدره 15.400.000 فرنك مقسم إلى 14 حصة تعود 12 منها إلى القوى الموقعة و2 إلى الأبناك المشتركة التي أقرضت المغرب في سنة 1904. وقد كان يتعين أن تخول لهذه المؤسسة الحقوق والتفضيلات المخولة عامة للمؤسسات من هذا النوع. وكان يفترض بها في البداية أن تقدم للمخزن تسبيقاً بعشرة ملايين يوجه لإنشاء شرطة المراسي والإنفاق عليها.

وتم التوقيع على الميثاق العام في 7 أبريل 1906. وقد كان في مجمله تصديقاً على البرنامج الذي قدمه السيد سان روني طاياندي إلى السلطان بيد أنه برنامج قد وقع تدويله وجُعل لفرنسا في تنفيذه إسهام راجح. ولئن كان قرار الخزيرات لا يمثل انتصاراً لفرنسا فلقد كان على كل حال هزيمة لألمانيا التي صارت فرنسا تلقى منها منذئذ معارضة من كل الوجوه، وقد تلقى منها أحياناً معارضة لسائر ما تعتزم القيام به من مشاريع.

وحررت الهيئة الدبلوماسية في طنجة النص النهائي [الميثاق]، وكلفت عميدها السيد ملموزي مندوب إيطاليا بحمله إلى السلطان ليصدق عليه. فلم يجد السلطان، وقد تنبه من أوهامه، بداً من الرضوخ للأمر الواقع الذي لم يعد منه مفرٌ.

لقد أصبح وزير الشؤون الخارجية سي عبد الكريم بن سليمان يدرك بما لاشك فيه أن مولاي عبد العزيز قد وقع قرار بموت المغرب المستقل. فلما شرح له القنصل الفرنسي نتائج المؤتمر الذي حضره، رد عليه واجماً مذهولاً بقوله :

«لقد ضاع المغرب القديم إلى غير رجعة. فالمؤتمر لم يهتم بغير طنجة والمدن الساحلية حيث يقيم الأوروبيون، فأنشأ فيها قوات للأمن وصندوقاً خاصاً للأشغال العمومية وبنكاً للدولة، لكنه لم يفعل أي شيء لمد المخزن

بالموارد التي هو في حاجة إليها للإنفاق على الجيش وجباية الضرائب وقمع التمرد ومحاربة الفوضى. لقد أهمل المؤتمر المخزنَ والإصلاحات التي يحتاج إدخالها في تسيير شؤون المملكة ولم يلتفت إليها. وسوف تدفعون إلى تنامي المصالح الأوروبية على السواحل فلا يكون في مقدورنا حمايتها وأحرى أن يكون في مقدورنا أن نستمر في تأمين الحماية للأعداد القليلة من رجال الشرطة الذين تستعدون لتسخيرهم لهذا العمل. ولسوف تتفاقم الاضطرابات لتغرق المغرب في فوضى تمهد السبيل فيه للهيمنة الأجنبية».

ولا تلبث هذه الرؤية التنبؤية إلى المستقبل أن تأخذ في التحقق رويداً رويداً.

الفصل الثاني عشر

أزمة 1907

ظل حل المسألة المغربية في إرجاء وتسويف. وظلت ألمانيا على الرغم من الفشل الذي منيت به في الخزيرات تحافظ، إلى حين، على تقدمها في فاس وتفيد منه لتُدخل لدى السلطان بعثة من قبطان في سلاح الهندسة وقبطان في سلاح الفرسان؛ بغاية أن تجعل من المغرب أداة في صراعها مع فرنسا ووسيلة للضغط على سياستها العامة.

لكن فيما ظلت سياسة فرنسا في الشؤون المغربية سياسة متقلبة، إذا الرأي العام [الفرنسي] قد أخذ يهتم بالمغرب. فابتداء من سنة 1904 شكلت لجنة إفريقيا الفرنسية من بين أعضائها لجنة عن المغرب برئاسة شرفية للسيد أوجين إتيين ورئاسة فعلية للسيد كيلان نائب رئيس مجلس النواب بمشاركة السيدين أوغوستان برنار والأمير أرمبيرك وإ. مـ. بوكي وجـ. شايلي ولـ. شارل روكس والأمير رولان بونابارت وپول بورد والكولونيل دي كاستري وروني ميلي والجنرال ديريكاجي، وغيرهم. وقد أوكل بمهام إعداد دراسات عن المغرب إلى السادة دي سيكونزاك وجنتيل ولوموان ودوتي وبوشي وغوتيي وروني لوكليرك، إلخ. وسهر السيد أوغوست تيريي الكاتب العام والمحرك الرئيس للجنة بكل تفان على نشر نتائجها. وقد بدأت تلك الأعمال تؤتي ثمارها. وكانت لي شخصياً مشاركة بمحاضرات ومقالات نشرتها في بعض المجلات في هذه الدعاية تحدوني الرغبة في تنوير الرأي العام بالأهمية الحيوية للمسألة المغربية على أمن الإمبراطورية

الإفريقية الفرنسية ونفوذ فرنسا في البحر الأبيض المتوسط، ولا يبعد أن تكون لها تلك الأهمية الحيوية على مستقبل فرنسا بما هي قوة عالمية.

وفي المغرب نفسه كانت الأمور تسير من سيء إلى أسوإ. فالإصلاحات التي فرضها مؤتمر الخزيرات على السلطان، وهي إصلاحات مجحفة إلى أبعد الحدود، قد أتمت انحطاطه في أعين رعاياه. وقد منِح تسبيقاً لا يكاد يكفيه لإنشاء قوة عسكرية، ثم منع من تسخيرها لتحصيل الضرائب وبذلك صار إعلان القوى الأجنبية في شأن الترتيب إعلاناً سخرياً. وسرعان ما تردى المخزن إلى عوز شديد.

لذلك لم يجد المخزن بداً يومئذ أن يبيع وحداته البحرية الثلاث تباعاً. فقد باع سفينة «البشير» الجميلة إلى كولومبيا وتمت صفقة البيع في باريس في ما بين منتصف الليل والثانية صباحاً في حانة بجوار الأوبرا. ثم بيعت سفينة «التركي»، ومن بعدها سفينة «الحسني» القديمة. ثم صار السلطان يجتر ندمه وحسرته، وصار لفرط الإهانة الصريحة يلقاها من رعاياه لا يجرؤ على مبارحة قصره في فاس. وما عادت له سيادة على غير المدن وبعض القبائل القائمة على السواحل، والتي كان لا يزال يفلح في الحصول منها على بعض المساهمات الزهيدة. وصار موظفو المخزن لا يجدون ما يشبعون به جشعهم، فانبروا يستغلون جوع الشعب بما يحتكرون من الحبوب وغيرها من المواد الضرورية.

وكان الروكي لا يفتأ يقوي من مملكته المستقلة وينظمها في تازة منتحلاً اسم سيدي محمد. وفي الشمال بلغ الريسولي أوج قوته، فكان يهزأ بالسلطات والمفوضيات الأجنبية. ثم كان مقتل المواطن الفرنسي شاربونيي سبباً في الاستعراض البحري الذي قام به الأميرال كامبيون. وبعيد ذلك رفعت الهيئة الدبلوماسية في طنجة مذكرة جماعية إلى السلطان في تعدي

الريسولي، مع الإشارة إلى احتمال القيام هنالك بإنزال للقوات الفرنسية والإسبانية.

وبادر مولاي عبد العزيز حينئذ إلى فعل أقصى ما يستطيع. ففي يناير 1907 زحفت محلة صغيرة يتولاها العلاف سي محمد الكباص فتمكن بفضل سلاح المدفعية الذي يديره الملازم أول سي عبد الرحمان بن سديرة من البعثة العسكرية الفرنسية من الاستيلاء على الزينات. ومن سوء الحظ أن كان الريسولي قد فر بطريق البحر ولاذ بالجبال، ثم صار من هناك يمعن في إرهاب طنجة والقصر وتطوان وترويعها. فسعى السلطان إلى التفاوض وإياه ليهدئ من روع الأوروبيين. بيد أن السيد ماك لين المكلف بتلك المفاوضات لم يلبث أن وقع في فخ الريسولي، وما أفرج عنه إلا بمقابل تمتيعه بالحماية البريطانية وتمكينه من فدية بمبلغ 500.000 فرنك.

وفي مارس اغتيل الدكتور موشام بأيدي بعض الدهماء. وما مرت عشرة أيام حتى قامت قوات الكولونيل فيلينو باحتلال مدينة وجدة، ثم كانت العملية الباهرة التي قام بها الجنرال ليوطي ضد بني يزناسن.

وأما الجنوب فقد عمت الفوضى ضواحي مدنه. وكان الكلاوي والمتوكي يفيدان من ضعف الحكومة المركزية للاستقلال بنفسيهما والتوسيع من مناطق نفوذهما بإحكام السيطرة على قياد المخزن الصغار في سفوح الأطلس واحداً تلو الآخر. وإذا سي الطيب الكندافي، الذي بقي وفياً للسلطان، قد ضيِّق عليه الخناق وحوصر في أعالي وادي نفيس وشُل عن أي حركة على الرغم من الاتساع الكبير لقيادته في صعيد سوس. وفي ناحية الصويرة صار القايد أنفلوس الملقب بريسولي الجنوب يسير على منوال الكلاوي والمتوكي. وفي الشمال كان سي عيسى بن عمر لا يزال يحكم سلطانه على قبائل عبدة واحمر. وأما دكالة والرحامنة فقد عمتهما الفوضى العارمة.

وقامت القبائل في منطقة الشاوية ابتداء من سنة 1904 بنهب سطات ودار برشيد. ومنذئذ صارت الفوضى في اشتداد وتفاقم. وفي سنة 1906 اختل الأمن في الدار البيضاء نفسها بسبب مرور ماء العينين رجاله الزرق بها. وفيما كانت تلك السنة تشارف على الانتهاء كانت قبائل كثيرة قد طردتْ قيادها وأعلنت دخولها في السيبة.

وفي أبريل 1907 قام البدو من سكان المناطق المحيطة بالدار البيضاء يهددون باجتياح المدينة، وما قبلوا بالتراجع إلا بعد الحصول على فدية. واغتيل يهودي كان محمياً للبرتغال فطالبت الهيئة الدبلوماسية بإقالة القايد بوبكر عامل المدينة، وجاءت سفينة «لالاند»* لتلقي مراسيها في السواحل المغربية.

وبفضل حضور هذه الفرقاطة، وبفضل وصول محلة صغيرة بقيادة مولاي الأمين، شقيق جد السلطان وبفضل المحاصيل خاصة أمكن استتباب الهدوء. وبدأت الشركة صاحبة الامتياز في ميناء الدار البيضاء أشغالها في 2 ماي بإنشاء سكة صغيرة تصل المون بعين معزة (قريباً من مبتدإ الشارع الدائري على طريق الرباط)؛ حيث كان يلزم اقتلاع الأحجار للتخلص منها. ورحلت سفينة «لالاند» ولم يكن يوجد بعد طابور للشرطة في الدار البيضاء فهذا فتح الباب على مصراعيه للتعصب الذي سرعان ما ستنفجر شرارته.

غير أنه في شهر يوليوز، وقد فرغ الناس من الحصاد، عادت الاضطرابات إلى الاشتعال. وبعد أن كانت في بداياتها موجهة ضد المخزن، صار يحركها يومئذ العداء الصراح للأجانب. وبلغ الهيجان ذروته في أواخر ذلك الشهر. فقد كان البدو يرون في السكة الحديدية رمزاً لاستيلاء الكفار على البلاد.

---

* Lalande

ولقد أثارت القطارات سخطهم كما أثارت السيارات الأولى سخط القرويين في أوروبا. وكانوا يجدون في صافرة القطار استفزازاً وتحدياً. وتوجهت بعض الوفود عند العامل وعند مولاي الأمين للمطالبة بوقف تلك الأشغال.

فلما لم يُستجَب إلى تلك المطالب قام البدو ودهماء المدينة في 30 يوليوز بمهاجمة عمال المرسى التعساء فقتلوا منهم تسعة. ولاذت الجاليات الأوروبية بقنصلياتها أو التجأت إلى البواخر الراسية. وفي 1 غشت وصلت سفينة «كاليلي»، التي أرسلها مندوب فرنسا في طنجة السيد سان أولير وأشارت إلى السفن التجارية بإخلاء مجال الرمي في وجهها استعداداً لقصف محتمل. وقد أمد مولاي الأمين الأوروبيين ببعض الحرس ليقوموا على حماية البيوت الأوروبية فأمكن له أن يحفظ على المدينة شيئاً من الأمن والهدوء. ولكن البدو لبثوا مختبئين في أرباض المدينة.

وفي مساء 4 غشت علمت سفينة «كاليلي» من سفينة «دوشايلا» عن طريق جهاز الاستقبال بقرب وصول مجموعة الفرقة البحرية بقيادة الأميرال فيليبير والقوات التي كانت قد أُنزلت في وهران. وفي صباح اليوم الذي بعدُ، 5 غشت، أنزل، بعد الاتفاق مع مولاي الأمين، 66 من البحارة. وقد أثار هذا الإجراء العجول المبتسر ثائرة البدو ودفعهم إلى نهب المدينة وقصفها. ثم ارتفع عدد البحارة المنزلين بوصول سفينة «دو شايلا» والسفينة الحربية الإسبانية «ألبارو دي بازان»* في اليوم الذي بعد إلى 200 بحار، فصار في الإمكان الدفاع عن التجمعات السكنية الثلاثة من حول قنصليات فرنسا وإسبانيا وبريطانيا. وأما ما عدا ذلك من المدينة فقد تعرض للنهب مع كل ما يرافقه من أهوال. وفي الأخير أنزلت السفن «كلوار»*

* Alvaro de Bazan

* Gloire

و«كوندي»* و«كييدون»* في 7 غشت 2.000 جندي، ففر اللصوص من وجوههم وجعلت الفراقط الفرنسية تطاردهم وترميهم بالقذائف.

كانت القبائل المجاورة للدار البيضاء؛ مديونة وأولاد زيان وزناتة وأولاد حريز، هي وحدها التي كانت شاركت إلى ذلك الحين في أعمال النهب. بيد أن الأخبار في المغرب تنتشر في لمح البصر، ولذلك فما عتم أن جاءت قبائل الشاوية البعيدة جداً عن الدار البيضاء، وقبائل الزيايدة وأولاد علي والمداكرة وامزاب والمزامزة وأولاد سعيد وأولاد البوزيري وأولاد سي بن داود والقبائل القريبة منها؛ كزعير وبني خيران وورديغة وبني مسكين إلخ. تبغي الحصول على حصتها من الغُنْم. وسرعان ما صارت الدار البيضاء وقد طوقت بالحشود الهائجة.

وتحتم على الجنرال درود أن يظل، طوال الأيام الخمسة عشر التي تلت الإنزال، يقتصر على الدفاع عن المدينة من هجومات القبائل، وهي التي بلغت أوجها في الهجوم الشامل ليوم 18 غشت. وقد أفلح في 21 و28 غشت في دفع المهاجمين إلى ما وراء التلال المتقدمة التي تحيط بالمدينة ثم انتقل إلى الهجوم. فكانت عملية سيدي مومن في 3 شتنبر، وعملية تادرت* في 11 وعملية سيدي إبراهيم في 21 منه.

لقد عجل احتلال الدار البيضاء بسقوط مولاي عبد العزيز، وكان سبباً في اندلاع ثورة مراكش. وقد كان خليفةَ السلطان على عاصمة الحوز يومئذ هو أخوه مولاي عبد الحفيظ (الذي يعرف ترخصاً بمولاي حفيظ) وهو أكثر أبناء مولاي الحسن شبهاً به من الناحية الجسمانية، وإن لم يرث عنه صفاته المعنوية. وقد كان واسع المعرفة وعالماً بأمور الشرع والدين وتاجراً ومضارباً وكان شديد الفطنة بقدر ما هو عديم الذمة؛ فلم يكن له مثلٌ في الحياة.

* Condé
* Gueydon

* (هـ.م) ورد اسمها Teddert!

كان مولاي عبد الحفيظ يبيت منذ مدة للإطاحة بأخيه. وكان يدبر في سرية لتولي مقاليد الحكم، ولم يكن يقعده عنه إلا انتظار اللحظة المواتية للشروع في التنفيذ. وقد سارت الأحداث بما يخدم جانبه؛ إذ أدت إلى تقويض ما بقي لأخيه من سلطة وتجريده مما بقي له من نفوذ. ثم كان اندلاع الحرب في نواحي الدار البيضاء وإذا الجنوب يثور عن بكرة أبيه على السلطة الشريفة ويخرج للمطالبة بقائد يتولى أمره. وتلك كانت اللحظة المواتية.

كان مولاي عبد الحفيظ موقناً من السند يلقاه من أقوى قياد الأطلس سي المدني الكلاوي. وقد كان الرجل في شرخ الشباب؛ يتميز ذكاء وطموحاً ويفيض حيوية، وقد لعب الدور الأول في تلك الثورة. وما كان المدني على عهد مولاي الحسن ووصاية الصدر الأعظم باحماد سوى قايد على قبائل كلاوة، ثم اغتنم السنوات الأولى من الحكم الفعلي لمولاي عبد العزيز للتوسيع من نطاق قيادته، إلى أن كون له منطقة نفوذ في الجبل امتدت نطاقاتها من وادي نفيس إلى دمنات ومن نواحي مراكش إلى ما وراء جبال الأطلس.

فلما أحكم قبضته على القبائل الداخلة تحت نفوذه أخذ يدبر لإقامة مملكة مستقلة في الحوز تكون تابعة للسلطان الذي يقع عليه اختياره. وقد قر اختياره على مولاي عبد الحفيظ، فعرض عليه بداية من 1906 أن يبايعه. لكن هذا الأخير رأى أن الأمر لا يزال بعد لم يتهيأ. وها إنه قد تهيأ الآن فلم يعد هنالك ما يدعوه إلى التردد.

وهرع الكلاوي وقياد الرحامنة وسي الطيب الكنداقي، على الرغم من معاداته للكلاوي بحكم أنه حليف للرحامنة، بموجب ما يسمى باللف للانحياش إلى مولاي عبد الحفيظ، الذي دعا، في 16 غشت 1907، أعيان

مراكش إلى دار المخزن وأبلغهم استعداده للدفاع عن قضية الإسلام ضد أخيه وضد الفرنسيين. ثم كتب عقد البيعة وعرض على الحاضرين ليوقعوه. فكان أول من قدم إليه ذلك العقد هو القاضي مولاي مصطفى عم السلطان بالمصاهرة فرفض أن يوقعه. وإذا الكلاوي يشهر خنجره في وجهه فلم يعد للقاضي إلا أن يذعن للأمر وهو يرتعد من شدة الهلع. وفعل جميع الأعيان الشيء نفسه تحت تهديد فرسان كلاوة. ثم توجه مولاي عبد الحفيظ إلى المسجد حيث دعيَ له في الصلاة وهتفت الحشود باسمه سلطاناً للجهاد.

وجاء الكلاوي بخمسمائة فارس وجاء الرحامنة بمثل ذلك العدد وجاء الكندافي بماءتي فارس. وقد شكل هؤلاء الجنود الألف ومئتان نواة القوات الحفيظية. ولم يلبث سي عبد المالك المتوكي وسي عيسى بن عمر العبدي أن فعلا كمثل القبائل المجاورة لمراكش، فصار مولاي حفيظ منذئذ وقد دان له القسم الأكبر من الحوز. وتشكّل المخزن، فانتحل الكلاوي لنفسه مهام وزير الحرب وهي يومئذ أهم الوظائف، وعيّن أخوه الأصغر باشا على مراكش.

وتراجع علماء فاس عن بيعتهم لمولاي عبد الحفيظ، فلذلك بقيت قبائل الغرب والشاوية عزيزية بصورة مؤقتة، فيما انفك عنه الشمال الأقصى حيث بايع الريسولي مولاي عبد الحفيظ، ومنطقة تازة بطبيعة الحال؛ وهي التي أقامها الروكي له مملكة مستقلة.

وفي شتنبر غادر مولاي عبد العزيز مدينة فاس وجهته الرباط، فكانت له فيها لقاءات بالسيد رينو والجنرال ليوطي. ولقد سلم أمره إليهما وتوسل إليهما المساعدة في الصراع الذي هو مقبل عليه مع أخيه. وقد أرسلت الحكومة الفرنسية إليه يومها بالحمالة الكبرى لوسام الشرف، فكان فيها

إجهاز على شعبيته؛ إذ استغل أعداؤه الاحتفال بتسليمها له وصوروه في صورة التعميد لأمير المؤمنين.

غير أنه لم يهن أو يستسلم وكرس آخر ما تبقى بحوزته من موارد لتعبئة القبائل التي كانت لا تزال وفية له ليزحف على مراكش. وقد كان لا يزال بحوزته قدر كبير من الحلي كان اشتراها بثمانية ملايين وقت أن كان يصرف الأموال من غير حساب. فأرسلها إلى باريس حيث تداولها الصائغون بالمساومات الكثيرة وما عرضوا فيها إلا مبالغ زهيدة. ثم قبِل [بنك] لومون-دو-بييتي أن يأخذها ضماناً لقرض بمبلغ 1.200.000 فرنك، لا يكاد يمثل خمس قيمتها الأصلية.

كنت يومئذ في باريس. فقد حملت خرائطي إلى المصلحة الجغرافية للجيش ودراسة حول الشاوية إلى لجنة المغرب، وعرضت كذلك خدماتي على صحيفة «**الطان**»، فأوكل إليَّ مديرها الشاب اللامع السيد أندري تارديو بركن المغرب والبلدان الإسلامية عامة.

وبعيد ذلك جاء أحد مواطنيّ، كان حاضراً في مراكش لحظة المبايعة لمولاي عبد الحفيظ، فانضم إليه وشايعه، وجاء يذكر لي صفات سيده القلبية والروحية وحبه للتقدم ومودته لفرنسا وإكرامه للأجانب. ثم إذا هو كمن يريد إقناعي يخرج من جيبه حفنة من الدبلونات الإسبانية القديمة قائلا إنها من كنز اكتشفوه في مراكش، وعرض عليّ بكرمه إن كنت من هواة الطرائف أن يتخلى لي عن بعض تلك الدبلونات. فشكرته على عرضه بما تقتضي اللياقة. والحق أقول في غير امتداح للصحافة الباريسية إن الحملة الدعائية التي قام بها هذا الرجل لم تكلل لديها بكبير نجاح. لكن الأغرب في الأمر أن هذا الشخص قد جاء بعد بضع سنوات إلى الإقامة العامة يحمل مذكرة بمصاريف باهظة عن مهمته في باريس... فلم يلق منها الصدود.

وأما أنا فقد بقيت عزيزياً متحمساً، وكان عملي في صحيفة «الطان» يتيح لي الدخول في حدود معينة إلى وزارة الخارجية؛ فكنت أفيد منها للدفاع عن السلطان الشرعي. ولم أكن أتجنب بإزعاجاتي ومضايقاتي السيد جورج لويس وهو يومئذ مدير سياسي، والسيد بيشون نفسه. غير أنهم كانوا حريصين في المقام الأول على ألا يسيئوا إلى ألمانيا التي خذلت مولاي عبد العزيز وأصبحت كلفة شغوفة بمولاي عبد الحفيظ لمجرد أن نوديَ به سلطاناً ضد فرنسا وتعهد بأن يلقي بالفرنسيين إلى البحر.

وظلت القوات الفرنسية خلال الشهور الخمسة الأولى من احتلال الدار البيضاء ملتزمة الاحتياطات نفسها، فاقتصرت بعملياتها العسكرية على النواحي القريبة من المدينة في نطاق من مسير ثلاث ساعات. وقد مكنت للمدينة سبيل الدفاع عن نفسها وقامت بتنقيتها وتطهيرها وجعلتها أكثر قابلية للسكنى وجنبت سكانها مذابح جديدة. بيد أن الهدف الذي سخرت له تلك القوات، والمتمثل في تهدئة تلك المنطقة ورد ما ضاع من هيبة الأوروبيين ونفوذهم فيها، لم يُكتَب له أن يتحقق.

ودفعت المعارك التي شهدها شهر شتنبر بالبدو إلى إخلاء ما حول الدار البيضاء على امتداد عشرين كيلومتراً. فكانت فرقنا الاستطلاعية خلال الشهور الثلاثة الأخيرة من تلك السنة إذ تجوب تلك المناطق لا تكاد ترى غير بعض المجموعات من الفرسان في غير متناولها وهي عازفة عن القتال. فلما عادت القوات عادوا هم الآخرون في أعقابها، فصاروا ينزلون حتى في الأراضي المهجورة من الضاحية، يترصدون فيها القلة القليلة من الفلاحين الذين كانوا لا يزالون يجرؤون على التوجه إلى سوق المدينة.

ثم اشتدت حماسة القبائل بما كانت تسمع من النداءات الحفيظية إلى الجهاد ولاقتناعها بأن «الضفادع لا تجرؤ أن تبتعد عن البركة». فتكونت

تجمعات لها في تادرت وفي مرشيش وفي تيط مليل، وجاءت محلة حفيظية صغيرة بقيادة مولاي رشيد لتحتل قصبة مديونة، على بعد 18 كيلومتراً من الدار البيضاء.

وفي أكتوبر اغتيل الشاب كونتسر في موضع غير بعيد عن المدينة. وفي نونبر تعرضت قافلة للنهب في عين السبع. ثم كاد ثلاثة ضباط في نونبر أن يقعوا في الأسر أثناء ما كانوا يتجولون على الشاطئ على بعد كيلومتر واحد من أسوار المدينة. ووقع الهجوم على قافلة على بعد بضع مئات الأمتار من مراكزنا المتقدمة.

لقد صارت الدار البيضاء منعزلة كلياً عن ضواحيها التي كانت هي شريان الحياة في هذه المدينة، المقصور نشاطها كله على التجارة؛ فهي وسيلة عيشها الوحيدة.

وتنبهت الحكومة في الأخير إلى أن الأمور لا يمكن أن تظل على تلك الحال، وأنه يلزمها للتغلب على الشاوية أن تخرج إليها لمعاقبتها في عقر دارها. ولذلك قررت على الرغم مما قد تقول الصحف الألمانية وصحيفة «**لومانيتي**»* أن تزيد القوات الفرنسية التي سيتم إنزالها هناك إلى 6.000 رجل وتوسع من نطاق عملياتها.

افتتح الجنرال درود البرنامج الجديد في 1 يناير بالاستيلاء على مديونة. وفي اليوم الذي بعد تمكن من دفع فرقة استطلاعية حتى سيدي عيسى. ثم عادت القوات إلى الدار البيضاء تاركة وراءها حامية من ألف رجل على مديونة.

---

* *L'Humanité*

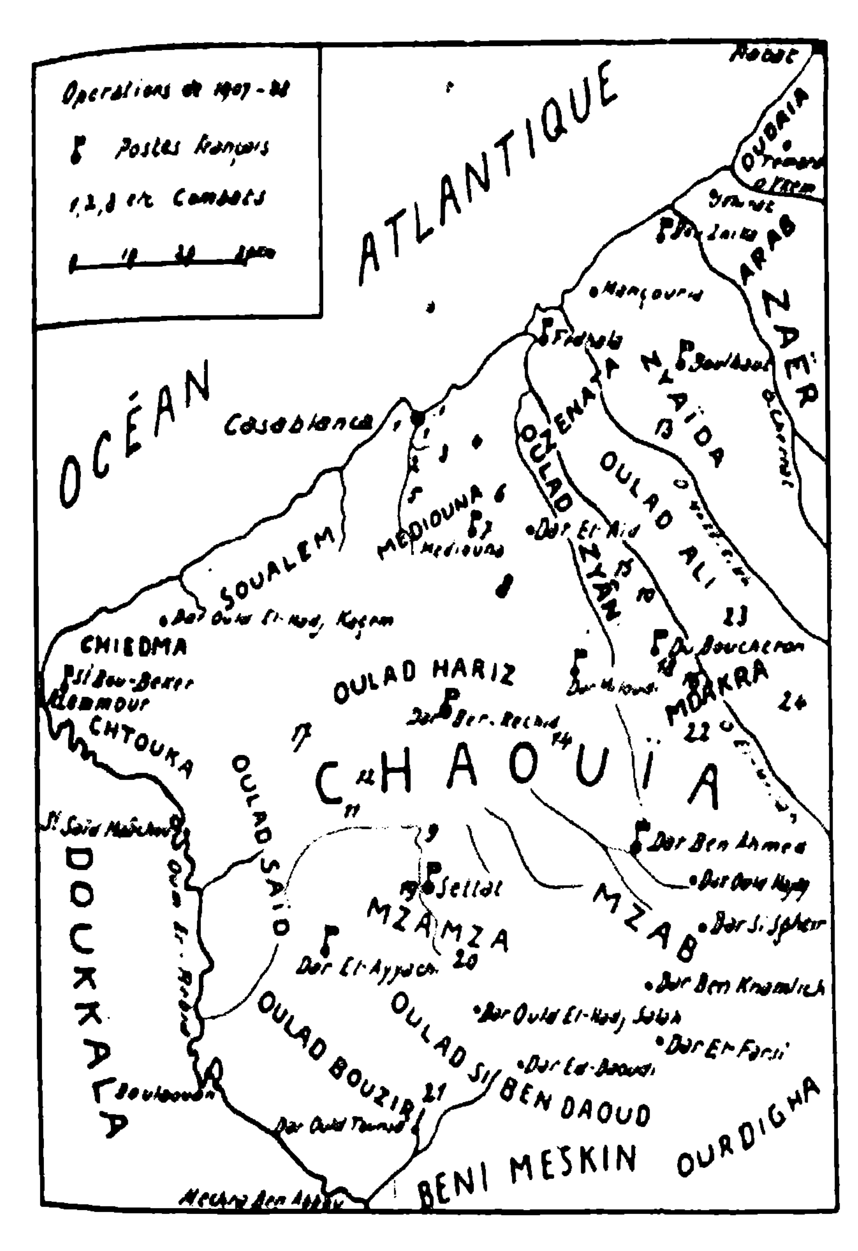
الفصل الثالث عشر

الجنرال داماد

في 5 يناير نزل الجنرال داماد في مدينة الدار البيضاء ليتولى قيادة فيلق الاحتلال الذي صار تعداد رجاله في ارتفاع تدريجي حتى بلغ 10.000 ثم 15.000. ومنذئذ، ونحن لا نرى إلا سلسلة متواصلة وظافرة من زحف ومناورة وإغارة واشتباك.

فقد أمكن لـداماد أن يحتل قصبات فضالة وبوزنيقة وبرشيد في ثمانية أيام بعد أن تم له إخضاع القبائل المجاورة للدار البيضاء (وهي قبائل مديونة وأولاد زيان وزناتة وأولاد حريز) بصفة نهائية. ثم انبرى يحاول قمع تمرد الشاوية من الداخل وتشتيت العصابات الحفيظية بقيادة مولاي رشيد والسكتاني والبوعزاوي. فهو يهجم على كل ما يشار إليه من تجمعات ويضرب بقوة وسرعة ويُشعر الأهالي بغلبة وتفوق لاسبيل إلى مقاومتهما.

فلما تهيأ له احتلال دار برشيد في 13 يناير، خاض حتى 16 ماي ست عشرة معركة أمكن له في سبع منها، هي التي دارت رحاها في ما بين 15 ماي و17 منه، أن يُخضع القبائل الواقعة في جنوب غربي الشاوية (وهي المزامزة وأولاد سعيد وأولاد البوزيري وأولاد سي بن داود)، وأما المعارك التسع الأخرى التي خاضها في ما بين 24 يناير و16 ماي فقد أفلح بها في كسر مقاومة القبائل الواقعة في جنوب شرقي الشاوية (وهي الزيايدة وأولاد علي وامزاب والمذاكرة) وإتمام تهدئة الشاوية.



خريطة بعمليات الشاوية من إنجاز المؤلف

ويُتبين من التواريخ السالفة أن تلك العمليات لم تكن تدخل في سلسلتين متمايزتين ومتعاقبتين، بل كانت عمليات متزامنة ومتوازية تكللت بالنجاح وحققت المراد بفضل التحرك البالغ السرعة الذي أخضع له الجنرال داماد فيالقه، وبفضل التفاني المطلق الذي أشاعه عند ضباطه من جميع الرتب، وبفضل ما تحلى به جنوده المؤتمرون بأوامره من صفات الجلَد والتحمل والاندفاع. ففي الوقت الذي تحسبه منشغلاً بأولاد سعيد إذا هو ينقض كالصاعقة، على بعد خمسين كيلومتراً من هناك، على تجمع للمداكرة أو يفعل العكس بعد مسير بالليل قد أعد له في سرية شديدة ونفذه بسرعة وحزم غير معهودين.

وقد شهدت تلك الفترة العديد من الإنجازات الحربية الباهرة، لكن لا يتسع المقام ههنا للتذكير بغير تلك التي تستحق لأسباب متعددة أن نخصها بالتنويه. فقد كان أول لقاء بالمغاربة في 15 يناير عند مدخل شِعْب سطات. فأمكن للفرنسيين خلالها أن يتغلبوا على الشاوية وهي أهم المراكز الفلاحية في المغرب، لكن منعتهم من احتلالها الأوامر الآتية من باريس. وكانت المعركتان اللتان دارت رحاهما في دار القصيبات وزاوية المكي (2 و5 فبراير)، وما ميزهما من إنجازات الملازمين بوسكي وريكار وفرسان كيركولاي وروسو، هي أولى المعارك التي خاضها البدو بأعداد كبيرة، مغترين بقوتهم، فتكبدوا فيها الخسائر الثقيلة.

وكانت معركة فخفاخة* (29 فبراير) أول التقاء للفرنسيين بالمداكرة. وقد كان مبتدأ تلك المعركة في 8 صباحاً بهجوم عنيف من قوات مغربية كثيرة العدد شديدة البأس، فردتها هجمة من فرساننا على أعقابها وانتهت المعركة في الليل بانهزام المغاربة وملاحقة القوات الفرنسية لهم إلى مسافة

* Rfakha!

سبعة كيلومترات. ووقع من الفرنسيين في هذا اليوم 13 قتيلاً و40 جريحاً. ونشبت في 8 مارس معركة جديدة بين الفرنسيين والمداكرة الذين أوشكوا أن يُبادوا شر إبادة في أحد الأودية تحت وابل من نيران المدفعية الفرنسية لولا أن كفّ الجنرال عنهم رماته.

وأفلح الجنرال بعمليته التي شنها في 15 مارس على أولاد سعيد أن يقضي في المهد على واحدة من تلك الحركات الغريبة التي تطلع أحياناً في البلدان الإسلامية. فقد كان المدعو محمد بن عبد الله، الملقب ببونوالة واحداً من أولئك المتنبئين الذين يظهرون من بين العامة في أوقات الأزمة التي تمر بالبلدان الإسلامية ويفرضون أنفسهم عليها بنمط عيشهم وتنبؤاتهم وما يزعمون لأنفسهم من خوارق وكرامات. وبونوالة يستمد كنيته وشهرة الولي التي يتمتع بها من حياة الزهد التي ظل يحياها طوال سنين تحت نوالة حقيرة في دوار مهمش من دواوير أولاد سعيد. وقد كان الرجل يزعم أنه لا يحتاج إلى أن يطعم شيئاً، وكان دائم التقنع لا يزيل عنه لثامه أبداً، بحيث ليس في مقدور أي من زواره الذين يحجون إليه أن يتبجحوا بأنهم رأوا وجهه. ثم إذا هذا الشخص الغريب قد عن له على حين غرة، قبيل مجيء الجنرال داماد، أن يترك نوالته ليؤوي إلى خيمة كبيرة أهداها له أحد أتباعه، فصار البدو يتقاطرون عليه لسماع تكهناته ونبوءاته.

كان يقول لهم : «تجمعوا من حولي لأن الله اصطفاني لأقضي على الكفار وأضمن لكم النجاة. إنكم لن تخشوا شيئاً ما دمتم إلى جواري ولسوف تتحول قنابل أعدائكم إلى ماء ويعجز رصاصهم أن يصيبكم».

كان لهذه التكهنات والنبوءات عظيم التأثير. فقد جاءت الكثير من الدواوير للتجمع تحت حماية هذا المتنبئ الذي أعلن في الناس أنه الإمام

المهدي، خليفة موسى، بحيث تكوّن على بعد خمسين كيلومتراً من الدار البيضاء تجمع خطير من خمسة عشر ألفاً من المتعصبين له. ثم كان أن باغتهم الفرنسيون بالهجوم في 15 مارس فشتتوا جمعهم، وقضوا على نشاط بونوالة الذي اضطر إلى الفرار عند دكالة.

لقد قضت هذه العمليات التي وقعت في ما بين 7 و17 أبريل في المنطقة الواقعة بين سطات وحدود بني مسكين قضاء مبرماً على مقاومة القبائل الكائنة في هذه الناحية. ثم كانت العمليات التي وقعت بين 28 أبريل و16 ماي، فبلغت بها تلك القوات حتى قلب منطقة المداكرة، التي ظلت إلى ذلك اليوم من غير أن يقيض لها من يستكشفها، وكانت تعرَف بأنها متعذرة البلوغ، وأتمت تهدئة الشاوية.

وأصبح يتعين يومئذ تعزيز نتائج تلك العمليات ونشر السلم والهدوء. وقد استوحى الجنرال داماد المنهاج الذي اعتمده الجنرال ليوطي في منطقة بني يزناسن وحقق به نجاحاً كبيراً. فأحاط المنطقة التي تمت تهدئتها بحزام من المراكز المحصنة وجعل عليها تجريدات من القوات الفرنسية والكوم المغربي الذي كان قيد التكوين، وأوكل إليها بمراقبة القبائل المطيعة واحتوائها والدفاع عنها ضد الاعتداءات التي من المحتمل أن تقع عليها من الخارج.

تم الشروع في هذا العمل التنظيمي في 18 أبريل بوضع تجريدة محلية في سطات وتواصل باحتلال دار بن أحمد وتهيئتها وإنشاء معسكري بوشرون (كارة المداكرة) وبولوحوت (سيدي سليمان)، واحتلال تجريدة من سطات قصبةَ أولاد سعيد، ووضع حامية قوية وإنشاء مخازن في المركز الجغرافي والاستراتيجي للمنطقة؛ برشيد. وقد تم وصل جميع هذه المراكز ببعضها، كما تم ربطها بقاعدة الدار البيضاء، وهي مقر المخازن ومستودعات

جميع المصالح وبواسطة شبكة من السبل المهيأة والمعززة بخطوط هاتفية تتخلل مراحل تمكن منها الاحتلال نسبياً كفضالة وبوزنيقة على طريق الرباط ومديونة على طريق برشيد ودار الميلودي على طريق المداكرة. وجُعل في المركز من هذا الجهاز الفيلقان المتحركان موانيي وبوتيكور.

بيد أن هذه الترسانة، وإن تكن متينة ومتكاملة في جهتَي الشرق والجنوب فإنها كانت لا تزال في جهة الغرب تشكو من نقص؛ حيث إن المنطقة المحتلة بداية من قصبة أولاد سعيد الملحقة بسطات وانتهاء بالبحر لم تكن لها تغطية إلا من جانب وادي أم الربيع، ثم ابتداء من سيدي سعيد معاشو بالحد غير الواضح بين الشاوية ودكالة. والحال أن الشياظمة وشتوكة، وهما قبيلتان من دكالة توجدان على الضفة اليمنى من هذا النهر قد كانتا من بين أقوى مناصري بونوالة، وبينما عادت القبيلة الأولى إلى ربط علاقاتها مع الدار البيضاء، لم تلبث أن تعرضت للهجوم من القبيلة الثانية، مدفوعة بأزمور والقوات الحفيظية بقيادة حسيٍّ الكلاوي، التي كانت مرابطة فيها، وظلت القبيلة المذكورة تشكل تهديداً دائماً لقبائل الشاوية بعد أن تمت تهدئتها.

ولذلك قام الجنرال داماد في أواخر شهر يونيو باحتلال أزمور، بعد أن طرد منها المحلة الحفيظية، استجابة إلى ضرورة إنهاء هذه الوضعية وتأمين السلامة للفرنسيين من هذه الناحية. وقد قابلت الصحف الألمانية هذه الأعمال باحتجاج قوي، وبلغت إلى حد اتهام الجنرال داماد بتحريض القبائل المجاورة لأزمور على إشعال الحرب في دكالة. وتلقى داماد إذ هو على الضفة اليمنى لوادي أم الربيع أمراً من باريس ، فأنشأ حينئذ مركز سيدي بوبكر في أراضي شتوكة، وتلك كانت آخر حلقة في الحزام الأمني الذي أحاط بها الشاوية.

لقد اكتمل قمع الشاوية وتهدئتها وتنظيم دفاعها، ثم كان في الاستعراض الباهر الذي أقيم في 14 يوليوز 1908 في الدار البيضاء، بحضور الهيئة القنصلية وسائر الجاليات الأوروبية، مسك الختام للمرحلة ذات الطبيعة العسكرية الغالبة من عمل الجنرال داماد.

وقد لقي هذا الإنجاز في المغرب على الأقل التقدير الذي هو خليق به ولا أجد أفضل في هذا المضمار من إيراد بعض المقتطفات من رسالة توصلت بها بعيد ذلك من صديق أنجليزي، هو م. إ. ب. فيرنو، المقيم منذ سنين في الدار البيضاء وقد جاء فيها :

«لقد شاهدت ذلك الاستعراض، فكان مشهداً بديعاً. كانت الجماهير تلقى أولئك الجنود وقائدهم بما هم جديرون من الاحتفاء ومن التحية عرفاناً لهم على أن نشروا الهدوء في الشاوية، وقضوا على الفوضى والاضطراب اللذين سادا هذه المنطقة منذ سنين طوال. فلقد أظهروا للأهالي أنهم لا يمكنهم أن يظلوا يعتدون على الحياة الأوروبية من دون أن ينالهم عقاب وأعادوا إلى الأوروبيين هيبتهم عند الجميع.

«وأما الأحداث التي شهدتها أزمور، والتي راج حولها الكثير من القيل والقال، فإليك الرأي الذي أراه بشأنها : إن الجنرال ليس بالجندي اليقظ النشط فحسبُ، بل هو كذلك رجل حكيم ونبيه، لا يتهاون في شيء. وإذا كان قد توجه إلى أزمور، فلأنه أمر اقتضته وضعية هذه المنطقة. فقد عمها الاضطراب فيكون مثيرو الاضطرابات قد نالوا العقاب الذي يستحقونه. ولقد تحقق ذلك الهدف في هدوء وسكينة لم يكدرهما احتجاج، وسيكون من الجحود لومه فيه...».

***

فلما فرغ الجنرال داماد من نشر الهدوء لبث هنالك يعمل على تنظيم منطقة من 12.000 كيلومتر مربع ذات ساكنة تصل إلى 500.000 نسمة.

وأمكن للجنرال داماد ابتداء من شهر يوليوز أن يتفرغ كلياً لهذه المهمة التي كان قد أنجز فيها الشيء الكثير. فلقد أعاد الثقة وطعم النظام إلى ساكنة ظلت تعيش منذ سنين في فوضى عامة وعارمة، فكان ينبغي تنويرها بكل المزايا التي ستعود عليها من ذلك الوضع الجديد. ولئن ظل هذا الطور السلمي من نشاط الجنرال غير معروف بقدر الطور العسكري فإنه لم يكن يقل عنه شأناً وأهمية.

فيوم جاء الدار البيضاء كان القسم الأعظم من هذه الناحية قد هاجره سكانه إذ تم تهجيرهم ومواشيهم بعيداً عن المنطقة. وحُطمت الأطر الإدارية والاجتماعية وخربت القصبات وأتلفت الغوطات (الجنائن)، وصارت الحقول بواراً لاتصلح للفلاحة والأهراء خاوية، وهُجِرَت الأسواق وأقفرت الطرق. ثم لم تكد تنقضي ستة أشهر حتى عادت البادية تعمر بالسكان وأعيدت القبائل والفخدات والدواوير إلى أراضيها الأصلية ودخلت تحت سلطة قيادها الذين تم تعينهم بصورة قانونية من لدن المخزن، وعاد القضاة إلى مزاولة مهامهم فإذا جميع دواليب الإدارة تسير سيرها العادي تحت مراقبة ضباط مصالح الاستخبارات الفرنسية.

وتحولت القصبات التي شيدها الجنود الفرنسيون واتخذوها لهم مستقراً إلى مراكز جذب ونشاط. فقد أخذت تظهر تجمعات سكانية وأسواق من حول تلك المراكز. وإذا البدو قد أقبلوا في هدوء على أعمالهم الفلاحية ويرعون قطعانهم بطول السبل التي تجوبها المواكب العسكرية الفرنسية والعربات والسيارات والقوافل التي عادت تسلك طريقها إلى الدار البيضاء وهي التي تنامت في لمح البصر.

وكانت الحميّة الشديدة التي أبان عنها القائد من وراء تكاثر الأعمال ذات المنفعة الاجتماعية. فقد تحسنت جميع سبل الاتصال الكبرى، وتم تعبيد أقسام منها، ومُد خط سككي من نوع دوكوڤيل* بطول 40 كيلومترا تربط الدار البيضاء ببرشيد، وأصبح من اليسير مرور مجاري المياه بفضل تعبيد سبيل الولوج في أزمور ومد جسر على وادي النفيفيخ. وتم الرفع من جودة عيون الماء وتم حفر الآبار وتعميقها وتزويدها بمضخات. وأنشئت مشارب ومغاسل ومجازر وفنادق حيثما دعت إليها الحاجة. وغرست بساتين للخضر ومشاتل بجوار المراكز الفرنسية.

وتم تنظيم المساعدة الطبية، وإذا المستوصفات الأهلية التي أنشئت في كل واحد من تلك المراكز الفرنسية قد أصبح يقبل عليها المآت من المرضى في كل يوم، وبينهم من كانوا يأتون لتضميد الجراح التي نالتهم من مقاتلة للفرنسيين. وصارت المجموعات الصحية المتحركة تزور الأسواق وتم تنظيم الفحوص البيطرية، وانبرى بعض الشبان من الجنود والمدرسين المتطوعين يعلمون الأطفال المغاربة الصغار مبادئ اللغة الفرنسية.

ولقد أمكن تجنيد فرق الكوم المقررة بكل يسر، وكانت واحدة منها تتألف من 150 من المشاة و50 من الفرسان. وأبان أفرادها عن ولاء وإخلاص للفرنسيين فعم الأمن واستتب. ومن جميع النواحي المجاورة صارت ترد وفود عن القبائل تطلب من الجنرال أن يذهب لنشر النظام عندهم ليستفيدوا هم الأخرون من النهضة التي صاروا يعاينونها عند الشاوية.

وابتداء من 17 يوليوز تم الشروع في ترحيل الجنود. وأصبحت الحكومة الفرنسية عاقدة العزم حينئذ على سحب تلك القوات بمجرد أن يتم التنظيم النهائي لطابور الشرطة الفرنسية الإسبانية الذي ينص عليه

* Decauville

ميثاق الخزيرات، ويُتثبَّث من أن قياد الشاوية قادرون بالاستعانة بفرق الكوم التي أنشأتها فرنسا على ضمان استتباب النظام والأمن اللذين خلفهما الفرنسيون من ورائهم.

بيد أن ألمانيا لم تكن لترضى عن هذه المنجزات، وظلت تصطنع الصعاب والعراقيل تضعها في وجه فرنسا. وقد جعل حادث 25 شتنبر الفرنسيين يكتشفون وجود وكالة حقيقية كانت تحرض الجنود الفرنسيين على الفرار وتزودهم من الثياب المدنية وتوجههم إلى الرباط أو إلى الجديدة حيث يركبون البحر من هناك بجوازات سفر تمنحها لهم القنصلية الألمانية. وقد زينت لهذه القنصلية نجاحاتها السابقة أن تقدم على محاولة ترحيل جنود فارين حتى من الدار البيضاء، وسلمت رخصة جماعية لترحيل ستة جنود ثلاثة منهم ألمان وواحد سويدي وواحد نمساوي وواحد روسي. لكن تبين أنهم فارون فتم اعتقالهم بعد شجار بين البحارة الفرنسيين وموظفين من القنصلية. ثم تفاقمت هذه القضية حتى بات الفرنسيون والألمان في مطلع نونبر على وشك الدخول في حرب. لكن أمكن درء ذلك النزاع بفضل المجهود الذي بذله سفير فرنسا في برلين؛ السيد جول كامبون، والمساعدة التي وجدها من سفارتي بريطانيا وروسيا، بل يبدو أنه تلقى كذلك بعض النصائح المعتدلة من الإمبراطور فرونسوا جوزيف. ثم رفِعت القضية إلى محكمة التحكيم في لاهاي، فقضت بخطإ ألمانيا.

وقد خص الجنرال داماد صحيفة «**لافيجي ماروكين**»*، في عددها الأول الصادر يوم 24 نونبر بمقال أسماه «أصدقاؤنا، الأعداء»، حاول فيه التعريف بحقيقة المغاربة والدور الذي يتعين على الفرنسيين أن يقوموا به نحوهم. فكان هذا المقال أشبه بوصية سياسية يقدمها رجل متشبع

---

* *La Vigie marocaine*

بقناعة أنه بدون تعاطف مع الأهالي عفوي أو مقصود، لن يكون لأي عمل استعماري أن يؤتي ثماره أو يُكتَب له الاستمرار.

وفي 1 فبراير 1909، أي بعد مضي سنة ونيف على وصول الجنرال داماد أوكل إلى الجنرال موانيي بقيادة ستة آلاف رجل لبثوا في الشاوية بعد أن أكملوا مهمتهم. وتلك كانت صفحة من أجمل صفحات تاريخ فرنسا الاستعماري.

وفي 22 فبراير كان رحيل الجنرال داماد، بعد أن قام بجولة تفقدية أخيرة في الشاوية، تأثر خلالها شديد التأثر لما تلقى من آيات العرفان والتعاطف من الأهالي. ثم استقل سفينة «كوسماو»*، وقد جاءت ساكنة الدار البيضاء عن بكرة أبيها وعلى اختلاف معتقداتها وأجناسها تهتف له تعبيراً عن عرفانها، وعن الحسرة الذي يجدها أفرادها مجتمعين في رحيله.

* *Cosmao*

الفصل الرابع عشر

السلطانان

تركنا مولاي عبد الحفيظ في مراكش ومولاي عبد العزيز في الرباط يشحذان هما الاثنان أسلحتهما ويجِدّان في تشكيل حرْكتيهما، لكن لم يكن يكفيهما ما بأيديهما من وسائل.

وقد أفلح مولاي عبد الحفيظ في أن يكون السباق إلى تهييء حرْكته بفضل نداءاته المتكررة والحامية إلى الجهاد، وبفضل الأموال التي أمكن له أن يجمعها بهذه الوسيلة، وكذلك بفضل تسبيق بمبلغ 400.000 فرنك حصل عليه من الأخوين مانيسمان. ومع مطلع شهر دجنبر 1907 خرج من مراكش يريد الجديدة؛ حيث عاد الناس يخلعونه بعد أن كانوا تنادوا له بالبيعة، وصاروا يدعون في صلاتهم إلى مولاي عبد العزيز على أثر نزول الجنود الموجهين لتكوين طابور الشرطة المنصوص عليه في ميثاق الخزيرات في المغرب.

وقد نبا إليه في اليوم نفسه خبرٌ بتمرد السراغنة وقتلهم قايد تينمل بن فايدة ونهبهم قصبته، فلم يجد بداً من الانحراف عن وجهته والمضي بدلاً عنها إلى زاوية بن ساسي على وادي تانسيفت. ومن هناك توجه عبر تاملالت إلى القلعة؛ حيث مكث الوقت الذي يكفيه لـ «أكل» السراغنة. ثم توجه عبر أربعاء صخور الرحامنة إلى مشرع الشعير (على مقربة من الممر الذي أصبح يعرف اليوم باسم مشرع بن عبو)، وهناك أقام محلته على الضفة اليسرى لوادي أم الربيع، على بعد 120 كيلومتراً من الدار البيضاء.

وفي الأيام الأخيرة من شهر دجنبر 1907 اندلعت في فاس ثورة أوقد جذوتها الشريف محمد بن عبد الكبير الكتاني رئيس الزاوية الكتانية طمعاً في الفوز لنفسه بالبيعة بدلاً عن مولاي عبد العزيز الذي كان قد أعلن زواله من الملك بسبب موقفه الذي صار يقفه من المسيحيين.

وفي 3 يناير 1908 دُعيَ الشرفاء والعلماء ورؤساء القبائل المجاورة للمدينة إلى ضريح مولاي إدريس ليبايعوا خليفة له. لكن على الرغم من كل الدسائس التي دبر لها الكتاني فإن الاختيار وقع على مولاي عبد الحفيظ، الذي بويع بشرط أن يجاهد الفرنسيين ويتنكر لميثاق الخزيرات ويمنع الأوروبيين من الإقامة في المدن الداخلية. وقد حُمِل إليه ميثاق البيعة في مشرع الشعير مع الدعوة له للالتحاق بفاس على وجه السرعة والنداء فيها إلى الجهاد. وفي الوقت نفسه أرسل إليه سي محمد الكتاني بأخيه سي عبد الحي الرئيس الحالي للزاوية الكتانية لييسّر له المرور خلال قبائل الأطلس المتوسط المتمردة والتي كان للزاوية فيها أتباع كثيرون.

وفي انتظار مجيء مولاي عبد الحفيظ، تشكلت في فاس لجنة ثورية تألفت من العلماء ورؤساء الأحياء ورأسها الكتاني. وقد ألزمت هذه اللجنة أسر الأفراد الداخلين في مخزن مولاي عبد العزيز بأداء غرامات ثقيلة، كما أعلنت عن تشكيل حرْكة تخرج إلى طريق تازة لمنع الفرنسيين من القدوم عبر وجدة، وصنع أسلحة وذخيرة وإنشاء صحيفة رسمية واعتقال أتباع مولاي عبد العزيز وإلغاء الحماية وإزالة المراكز الأوروبية وإغلاق بيوت الدعارة وتفريق المومسات وتعيين مأمورين تكون مهمتهم أن يجوبوا البلاد ويقوموا فيها بتحقيقات، إلخ.

وفي 10 يناير فعلت مكناس مثل فعل فاس، على الرغم من المقاومة التي أبداها الباشا بن عيسى.

في ذلك الوقت، شهر يناير 1908، كانت الوضعية على النحو التالي : كان مولاي عبد العزيز لا يزال هو السيد، ولو بالاسم على الأقل على جميع المدن الساحلية، في ما خلا آسفي وسهول الغرب الساحلية والقصر. وأما في الحوز فقد كان جزء من دكالة وفخدة من الرحامنة والبرابيش لا تزال على وفائها له. وكذلك كان إلى جانبه قسم من حاحا والشياظمة وإداو كلول في ناحية الصويرة. وأما في المناطق الداخلية فقد كان لا يزال في مقدوره أن يعول على قبائل تادلة الخاضعة لنفوذ أولياء بجعد.

وأما مولاي عبد الحفيظ فقد نوديَ به في القسم الأعظم من الحوز وعاصمة الجنوب وآسفي. وامتد نفوذه من سهل مراكش ليشمل قسماً كبيراً من القبائل الساحلية ومجموع قبائل الأطلس الكبير. وانعقدت له البيعة كذلك في فاس ومكناس وتافيلالت، وإن بقيت تفصله عنها مساحات شاسعة من بلاد السيبة. وكان له في طنجة أنصار كثيرون.

كانت حظوظ السلطانين تكاد تكون متكافئة، إلا من بعض التفاوتات الهينة. وقد كان لا يزال يومذاك في الإمكان ترجيح إحدى كفتيهما على الأخرى. فقد كان يكفي أن تلقي فرنسا في إحدى الكفتين بثلاثين أو أربعين مليوناً لتمكن للسلطان الذي تختاره أن يجهز جيشاً صغيراً ويدفع له أجوره، فينحاش إليه أنصار خصمه في الحال ويتركون محلته خاوية. ولم يكن لأحد أن يساوره شك في الاختيار الذي سيكون من فرنسا؛ فأما مولاي عبد الحفيظ فقد نادى إلى الجهاد ضد الفرنسيين، وكانت العصابات التي يتولاها قادته مولاي رشيد والسكتاني والبوعزاوي تقاتل فرنسا في الشاوية. وأما مولاي عبد العزيز فقد كان في الرباط يتوسل نجدتنا، وكان بعث يومئذ إلى باريس بالحاج محمد المقري الصدر الأعظم الحالي طمعاً في ثني الحكومة [الفرنسية] عن موقفها. بيد أن هذه الحكومة كانت مصابة



مولاي عبد الحفيظ

بحياد عضال، وكان البرلمان واقعاً تحت ضغط اليسار، ولذلك عارض كل تدخل في سياسة المغرب الداخلية.

ولم يفلح مولاي عبد الحفيظ في رفع محلته وعبور وادي أم الربيع إلا في مطلع شهر أبريل. وفي تلك الأثناء تمكنت محلة يقودها البوعزاوي من استعادة سطات من أيدي خصمه وأفلحت في دفعه إلى زاوية المكي غير بعيد عن دار برشيد؛ وما كانت سوى ستار مدفوع نحو الشمال لإخفاء الحركة الكبرى التي كانت تتهيأ في نواحي الجنوب.

فبينما كان الجنرال داماد يلقى المحاصرة من القوات الحفيظية والمذاكرة وأولاد سعيد وأولاد البوزيري، ويقيم التجريدة المحلية لسطات ويجوب المنطقة الجنوبية الشرقية من الشاوية من أقصاها إلى أقصاها في سلسلة من الغارات المقنبلة ويدفع خصومه إلى أطراف أراضيهم، كان مولاي عبد الحفيظ يتسلل في غير ضوضاء باتجاه الشرق على طول الحد الجنوبي للشاوية عبر كيسر. وظهر في 22 أبريل في العلوة وسط أراضي أمزاب، على مسافة قليلة من دار بن احمد. ثم ظهر في اليوم الذي بعد لدى الأعشاش وفي اليوم الذي بعده في صخرة الدجاجة عند تخوم الشاوية وبني خيران وورديغة.

وقد كان الجنرال داماد يقوم بعملياته في هذه الناحية، فكان بوسعه أن يعترض سبيل مولاي عبد الحفيظ، بيد أنه أذعن، وهو الجندي المطيع لأوامر باريس وتركه يمر.

وفي 25 أبريل بلغ مولاي عبد الحفيظ عين معزة؛ حيث حل عند بني خيران وأقام عندهم في انتظار ما تسفر عنه المفاوضات التي شرع يجريها مع القائد عقا أوحمو الزياني. وفي 1 ماي بلغ [جبل] الزبيب، وفي 2 منه اجتاز أرض السماعلة، وفي 5 عبر في جنود من زايان وادي كرو واتجه

صوب خنيفرة. وإن هي إلا أيام قليلة حتى جاء الخبر بمروره بمولاي بوعزة ومن هناك أرسل مراسيله إلى مكناس للإعلان عن وصوله وليسْتبر أثناء مروره استعدادات القبائل التي كان لا يزال في نيته أن يمر بأراضيها. ثم قطع وادي كسيكسو ووادي بهت، واجتاز جبال زايان وسهل أولماس. واتجه رأساً صوب الشمال فبلغ مكناس في 16 ماي، بعد رحلة طويلة قطع خلالها 350 كلم؛ ابتدأها وهو أشبه ما يكون بالهارب وأنهاها وهو منتصر ظافر.

أمضى مولاي عبد الحفيظ عدة أيام ينعم بالراحة في عاصمة جده مولاي إسماعيل. ثم قام بالزيارة التقليدية إلى مولاي إدريس. وتوجه بعدها إلى فاس فبلغها بعد عدة مراحل قطعها متمهلاً، جرياً على منوال السلاطين المهتمين كثيراً لهيبتهم، في 7 يونيو، في خضم من حشد مهتاج يهتف به سلطاناً للجهاد.

وفي تلك الأثناء كان السلطان الشرعي يتم استعداداته في عناء ومشقة ليقوم برحلته التي ستقوده إلى مراكش. وقد أكسبته الأحداث تعقلاً ورزانة، وأبان في تلك الحوادث عن عزم ونشاط كبيرين؛ فكان يهتم شخصياً بأبسط الجزئيات ويحرص على أن تُنفَّذ أوامره، يحيطه حب كل من حوله لما كان يتحلى به من صفات الاستقامة واللطف والدماثة.

وفي 21 يوليوز 1908 توجه إلى الرباط على رأس محلة صغيرة من 4.000 رجل؛ نصفاً من فرسان الكيش ونصفاً من المشاة، زيادة على 400 من الفرسان المساعدين من تادلة أرسل بهم سي بن داود ولي بجعد. ومكث في قصبة تمارة خمسة أيام لتنظيم عمليات النقل، وتعزز بـ 250 من فرسان المداكرة، وكان ينتظر أن يتوصل بفرسان آخرين من الشاوية والسراغنة.

وقد كانت السبيل السلطانية الكبيرة الممتدة من الرباط إلى مراكش والتي يُفترَض أن تقطعها المحلة كما هي العادة، تلك السبيل كانت تمر بأراضي الشاوية. لكن وبينما كان الجنرال داماد قد مُنِع من اعتراض سبيل مولاي حفيظ، عدوٍّ فرنسا، لدى مروره بتلك المناطق، وجدنا أولئك المحايدين الفرنسيين يحصلون على ترخيص بمنع السلطان الشرعي صديقِ فرنسا من اجتياز هذا القسم من مملكته الذي كانت فرنسا تحتله باسمه. إن سياسة الحياد التي كانت فرنسا تتشبث بها بأي ثمن قد أدت بها إلى ارتكاب ظلم حقيقي.

فلم يجد [مولاي عبد العزيز] بداً من الانعطاف على الشاوية والعودة أدراجه مروراً بأراضي زعير الوعرة. وقد تلقاه أهلها بحفاوة كبيرة وأمدوه بالمونة لرجاله والطعام لدوابه، وساروا يخفرونه عبر أراضيهم ويتدافعون من حوله في كل مرحلة من مراحل تلك الرحلة، ويتمسحون بركابه طلباً لبركته. وكان المسير عبر سيدي يحيى وعين توزر ووادي الدردار بطيئاً وعسيراً لطبيعة تلك الأرض والحر ونقص الماء. وفي 20 يوليوز نزلت القوات العزيزية القليلة على بني خيران وعسكر في بوخال ولبثت هناك يومين. وفي 24 منه بلغ صخرة الدجاجة حيث كان مولاي عبد الحفيظ قد توقف أثناء مسيره إلى فاس ثلاثة أشهر قبلُ على وجه التحديد.

كان سهل صخرة الدجاجة المحفوف بتلال صخرية لا تزال تكسو جنباته عظام البغال والجمال التي نفقت فيه بأعداد كبيرة أثناء حملة الشتاء للعام 1897-1898 (راجع الفصل الرابع)، وكان مكاناً ملائماً للمفاوضات مع القبائل. ولذلك قر رأي مولاي عبد العزيز على المكوث هناك بضعة أيام طلباً للتفاهم مع قبائل تادلة وبني مسكين والسراغنة، وقد كان هؤلاء عادوا إلى التمرد من جديد على مولاي عبد الحفيظ، وأوقعوا الهزيمة بمحلته التي كان يتولى قيادتها عمر السكتاني.

لقد كان حضور مولاي عبد العزيز مبعثاً للقبائل التي في تلك الناحية إلى ما يشبه الانقلاب على مولاي عبد الحفيظ. وجاء السماعلة يذبحون الثيران للتكفير عن الاستقبال الذي كان منهم نحو هذا الأخير. وأغدقت المونة على المحلة والهدايا [على السلطان]. وكان مولاي عبد العزيز ما برز للناس إلا اندفعوا نحوه للتمسح ببرنوسه أو لمس ركابه وطلب بركته. واستعاد المخزن شجاعته وصار الجنود من يقينهم بقرب دخولهم إلى مراكش يتميزون حمية ونشاطاً. وقد حق لهم أن يأملوا الكثير؛ فالمتوكي قد فسد ما كان بينه وبين مولاي عبد الحفيظ، وكان في تلك الأثناء يزحف على مراكش من جهة الغرب في سوقات من كل القبائل الداخلة ضمن لفّه.

وفي 27 [يوليوز] استأنفت المحلة تحركها، فسارت بطول الحد الجنوبي للشاوية وجازت أراضي بني مسكين. ثم صارت تزداد أعداداً بتوالي المسير بما كان ينضاف إليها من السوقات الواردة عليها من هاتين القبيلتين حتى صارت تضم نحو الألف والمائتين من الفرسان. وجاءت قبائل تادلة لتقديم الولاء والدخول تحت الطاعة في صخرة الدجاجة، فأعيدت إلى موطنها وكلفت بمهمة الذود عن أراضيها من هجوم محتمل يقع عليها من زايان وأن تشكل حماية للجناح الأيسر من الفيلق الشريف.

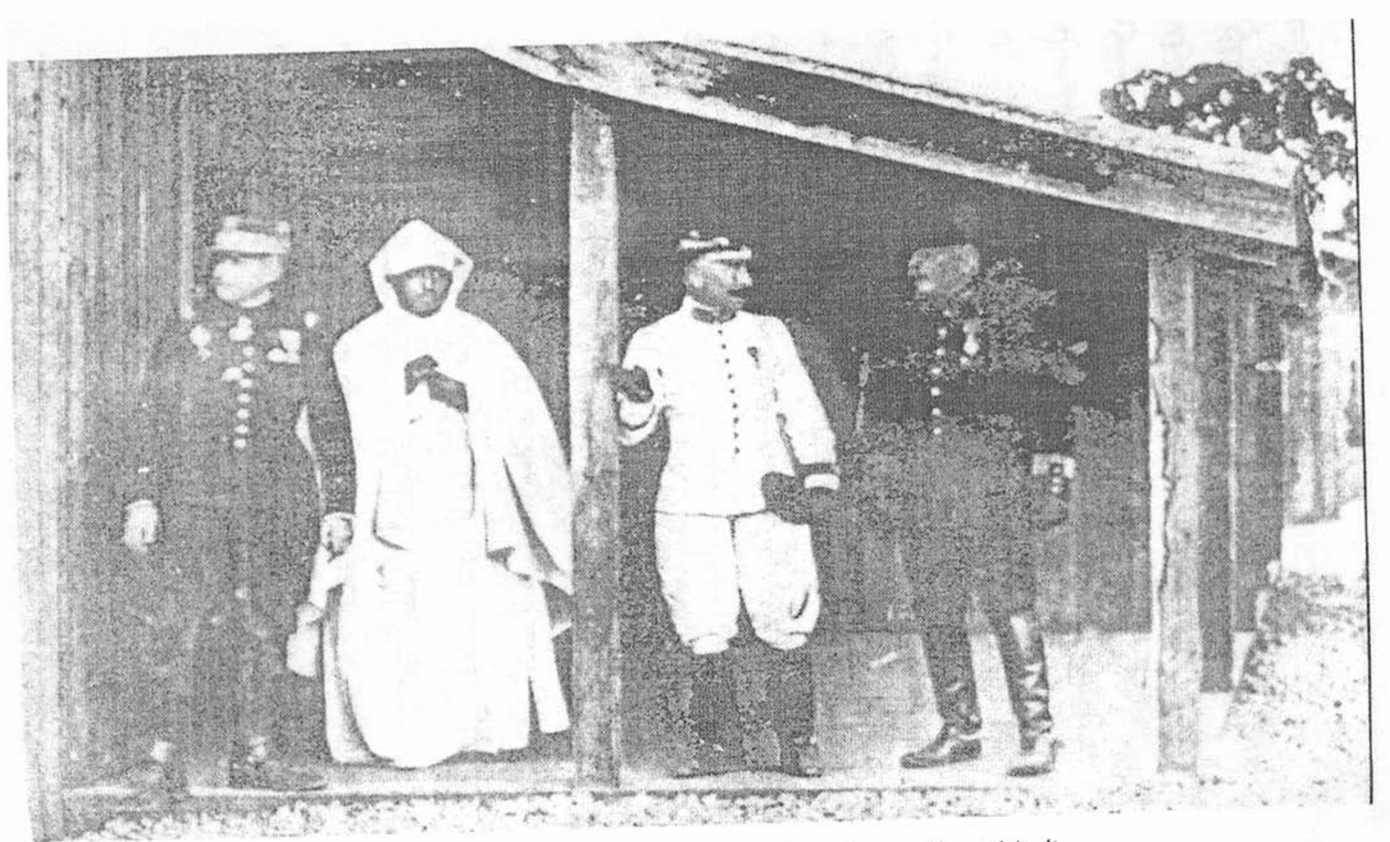
وفي 1 غشت نزلت المحلة على ضفاف أم الربيع في مشرع القنيدلات على تخوم بني مسكين والسراغنة والرحامنة. وقد كان يُفترض بالمحلة كما هو معهود، أن تعبر الوادي في عاليته للمرور عند السراغنة، غير أن البرابيش وفخدات أخرى كثيرة من الرحامنة كانت قد أرسلت ببعض المراسيل تعرض الاستسلام، فلذلك تقدم السلطان نحو سافلة الوادي بغية الاقتراب منهم، وليكون زحفه عند الاقتضاء على مراكش عبر الرحامنة. غير أن مفاوضاته وإياهم منيت بالفشل بسبب الخطإ الذي كان من سوقات الشاوية التي أن لم تستطع أن تمنع نفسها من التعرض لدواويرهم بالنهب.

ولذلك عادت المحلة القهقرى حتى مشرع بن خلو، ومن هناك عبرت وادي أم الربيع في 8 غشت، بعد أن أضاعت وقتاً ثميناً، ظل السراغنة خلاله يبذلون وسعهم في دفع الهجومات التي كانت تقع عليهم من القوات الحفيظية بقيادة عمر السكتاني.

وفي 10 غشت بلغت المحلة المدينة الصغيرة القلعة، وكانت لا تزال مضطربة الأحوال من التخريب الذي نابها من مولاي عبد الحفيظ في دجنبر 1907، وكان معظم ساكنتها من الذكران لا يزالون يقبعون في سجون مراكش. فكنت ترى النهار بطوله طابوراً متواصلاً من النساء عجائز وفي مقتبل العمر، يأتين متوسلات الإفراج عن أزواجهن وأبنائهن وإخوتهن الأسارى لدى مولاي عبد الحفيظ.

وقد علم السلطان [مولاي عبد العزيز] في مساء ذلك اليوم أن القايد عمر السكتاني سيعاود الهجوم على السراغنة، فأرسل بمساعدة من 1.500 من الرجال، من نظاميين ومساعدين، وزودهم بمدفعين من نوع مكسيم. وفي صباح اليوم الذي بعدُ باغتت أولئك الجنود القواتُ الحفيظية وأنزلت بهم الهزيمة، ولاحقتهم حتى فم الجمعة، على بعد ثلاثين كيلومتراً من دمنات، وجاءت منهم بعدد من الأسرى وغنمتهم عدداً من الخيول والمواشي.

لقد أصبحت المحلة الشريفة وقتها تتكون من 6.000 من الرجال فيهم 2.000 من فرسان الكيش، ومثلهم من المشاة النظاميين ومثلهم من الفرسان المساعدين من الشاوية وبني مسكين وتادلة والسراغنة. وقد ألحقت تلك المحلة الهزيمة بقوات عمر السكتاني والرحامنة، وما بقي أمامها غير القوات الحفيظية التي يقودها سي علال الكلاوي قايد دمنات الذي كان يسير متقدماً صوب القلعة.



السلطان مولاي عبدالعزيز في مركز قيادة الجنرال داماد في الدار البيضاء

وفي 19 غشت ترك مولاي عبد العزيز معسكره في الموضع الذي نزل فيه، وتقدم لملاقاة خصمه وهو مغتبط وواثق بعد أن رتب جيشه الصغير على الصورة التالية : في الوسط قوات الكيش والمشاة وهي متراجعة قليلا، وعلى الجناحين القوات المساعدة من الشاوية وبني مسكين، وعلى اليمين السراغنة وتادلة.

كان اللقاء في بوعجيبة على مقربة من وادي تاساوت. لكن لم تكد الطلقات الأولى تلعلع من البنادق، حتى انفرط الجناح الذي يكونه الشاوية وبني مسكين عن بكرة أبيه وصار يركض مسرعاً نحو الوسط ينشر فيه الفوضى بما كان يطلق من رشقات. وفي تلك الأثناء ألقم فرسان الخصم بنادقهم، وفعل الجناح الأيسر في جيش مولاي عبد العزيز كفعل جناحه الأيمن، وتملك الهلع القوات التي في الوسط وقد صارت تتحمل وحدها ثقل الهجوم. فلم تصمد له وكانت الهزيمة. فما عاد في أذهان الجنود من القوات العزيزية والحفيظية حينذاك غير فكرة واحدة؛ تلك الفكرة نفسها التي كانت من وراء هزيمة الشاوية ألا وهي الوصول إلى المعسكر [الخصم] بأسرع ما في الإمكان لنهب ما فيه. فاندفعوا نحو المعسكرين، وكانت المذبحة ليس على مولاي عبد الحفيظ أو على مولاي عبد العزيز، بل على من يحوز الخيول والبغال والإماء والمال.

ودافع السلطان عن نفسه ببسالة في ذلك الخضم اللجب المختلط وهو يجهد في أن يجمّع أفراد حرسه. لكن عبثاً فعل؛ فما عاد الشخص الشريف يلقى توقيراً؛ وانخرق برنوسه بالرصاص، لكن شاء له حسن الحظ ألا تصيبه منه واحدة. ولم يعد أمامه إلا التراجع، وما بقي معه غير فرسان قليلين بينهم سي محمد المقري والدكتور ڤيردون وسي قدور بن غبريط، وقد هيأت لهم الحماية رشاشتان بيدي الملازم أول ماريشال من البعثة العسكرية الفرنسية والعقيد المدرب الأنجليزي بالدين.

وتواصل الفرار في ما تبقى من ذلك اليوم الحار الخانق وطوال الليلة التي بعد، على مسافة من حوالي مائة كلم، تحت وابل من الرصاص ينهال من الدواوير المجاورة للطريق. وكان الفارون يتجهون صوب الشمال، عبر السراغنة وأم الربيع وبني مسكين، وصولاً إلى كيسر حيث تلقت تجريدة من قواتنا في سطات السلطان المنكوب وما تبقى من محلته.

وفي 21 غشت وصل مولاي عبد العزيز إلى الدار البيضاء وأعلن تنازله عن العرش.

وما أن علم البارون لانكن، المكلف بشؤون السفارة الألمانية في باريس بتنازل مولاي عبد العزيز عن العرش حتى بادر إلى تنبيه وزارة الخارجية الفرنسية إلى أن من مصلحتها أن تسارع إلى الاعتراف بمولاي عبد الحفيظ لأن فيه ضماناً لتهدئة المملكة الشريفة. وقد بدأ الفرنسيون بمطالبة السلطان الجديد بالاعتراف بميثاق الخزيرات وغيره من الاتفاقات المبرمة مع سلفيْه كما طالبوه بتسوية مشرفة لوضعية مولاي عبد العزيز ومخزنه والتنكر لمجاهدة الفرنسيين. حتى إذا حصلت الموافقة على هذه المطالب، وافقت فرنسا وإسبانيا والقوى الأخرى على الاعتراف بمولاي عبد الحفيظ في يناير 1909.

ثم وجدنا المتوكي، وهو المنتصر على القوى الحفيظية في الحوز الجنوبي يسارع إلى مسالمة السلطان الجديد. واستُقبل حلول مولاي عبد الحفيظ بطل الإسلام، في سائر أنحاء المغرب بالمظاهرات المعبرة بوضوح عن الحماس الشعبي.

الفصل الخامس عشر

احتضار المخزن

لم يدم تحمس الناس في فاس لمولاي عبد الحفيظ طويلاً. فقد رأوا في مجيء مخزن يكاد كل أفراده يكونون من كبار القادة البدو، زيادة على أنهم من البربر، وفي تعيين ابن الزيّاني عاملاً على المدينة ما يشبه التحدي للأرستقراطية المغربية ولقبائل الكيش التي كانت إلى ذلك الوقت تستأثر بالوظائف الحكومية. ولم يلق السلطان بالاً إلى الشرط الذي رهن به الأعيان بيعتهم له. وطال انتظار الجهاد ولم يُتنكر لميثاق الخزيرات وكان المسيحيون لا يزالون يدنسون حاضرة مولاي إدريس بوجودهم والمعاملات جارية بينهم والمغاربة، وعاد العمل بالضرائب المجحفة بعد أن كانت أُلغيَت في يونيو 1908 هديةً بمناسبة تولي السلطان الجديد. ثم إن الأوليغارشية الدينية المتكونة من الشرفاء والعلماء، وهي التي كانت قوية جداً قبل مجيء السلطان والتي بايعته طمعاً في أن تصير لها الوصاية عليه رأت نفسَها وقد جرّدت من كل سلطة وحرِمت الفوائد التي كانت تؤمل أن تعود إليها، فإذا هي تخرج إلى معاداته الصراح. ولم تلبث ساكنة فاس قاطبة أن صارت تتحسر على حكم مولاي عبد العزيز السمح الحليم.

غير أن بدايات حكم مولاي حفيظ تميزت بمجموعة من الوقائع كان من شأنها أن تمكن لسلطته وترسخها وتثبت لرعاياه أنه وحده صاحب البركة. ففي نونبر 1908 تنادت القبائل المجاورة لقصبة الصخيرات بأخيه الأكبر مولاي محمد سلطاناً، فزحف على الرباط في مظاهرات مؤيدة من

البدو، لكن اعترضه فرسان باشا مكناس الحاج بن عيسى واقتادوه إلى فاس حيث أودِع السجن.

وأعلن الريسولي ولاءه لمولاي عبد الحفيظ، فجُعلت له القيادة على قبائل الشمال الغربي قاطبة مقابل أداء نصف مليون والتخلي عن الحماية البريطانية التي كان قد حصل عليها مقابل إفراجه عن السير ماك لين.

وساء الشريفَ محمداً الكتاني، رئيس الزاوية الكتانية، الذي رأس لجنة فاس الثورية إلى حين مجيء مولاي عبد الحفيظ، أن يفقد نفوذه كله فلجأ في مطلع 1909 إلى برابر ناحية مكناس؛ حيث الكثير من أتباعه المستعدين كما كان يُقال للمناداة به سلطاناً. فوقع في أسر بني مطير بيد القايد عقا البويدماني، وحمِل إلى فاس حيث لقي حتفه حسبما قيل تحت الجلد.

وكان بوحمارة لا يزال متمادياً في حركته ومتنكراً باسم سيدي محمد بيد أن التحمس العام للجهاد الذي أعقب مجيء مولاي عبد الحفيظ لم يلبث أن حول عنه كثيراً من أنصاره، ثم كان اعتقال سيدي محمد الحقيقي فتحقق معظم من بقي معه من دجَله، وما بقي إلى جانبه غير التسْول وغياتة. فلما وقع الاستيلاء والنهب على قصبة سلوان بعد أن كان أقام فيها إدارته العسكرية؛ أي ابتداء من أكتوبر 1908 صار يهيم على وجهه أشبه بالهارب في ما بين ملوية وتازة وليس معه غير بضع مئات من الفرسان. ثم رأى مولاي عبد الحفيظ، في مارس 1909 أن الوقت أصبح ليوجه إليه ضربة قاضية؛ فأرسل عليه 2.000 رجل يتقدمهم القايد بن سعيد، لولا أن أعاق المحلة الشريفة سوءُ أحوال الطقس في عنق الجمل على الضفة اليمنى من نهر سبو، فلم تكد تبتعد عشرة كيلومترات عن فاس وهي التي لم تقبض أجورها، ولم تجد ما تقتات به في تلك البلاد، حتى انتهت بالتشتت شذر مذر.

فلما كان شهر غشت، وكان بوحمارة قد بدأ مفاوضاته مع جبالة طلباً للتقرب منهم، زحف رتل صغير من القوات الشريفة بجنود تؤطرهم البعثة العسكرية الفرنسية ويرافقها الملازم أول بن سديرة وضابطان مساعدان فرنسيان ليتولوا إعمال المدافع، لملاقاته فأدركه وهو على مقربة من ورغة. فما كان الاشتباك الأول حتى فر أنصار الروكي من حوله تاركين في أيدي هازميهم 160 من الأسرى و40 من الرؤوس. ولاذ بوحمارة نفسه بأحد الأضرحة ظناً منه أنه سيكون فيه بمنجاة من طالبيه. لكن هذا الوهم سرعان ما تبدد بفعل طلقتين مدفعيتين محكمتي التسديد، وجُعِل الروكي والأصفاد في قدميه في قفص بعلو أقل من متر صنع من ألواح وقضبان حديدية، وحُمِل على ظهر جمل وسير به إلى فاس، فدخلها في 20 غشت في خضم من استنكار السكان الذين ظل يرهبهم طوال ثمانية أعوام.

جُعلت الرؤوس المقطوعة في الفتحات المتخللة باب المحروق، وأعمِلت العصا في الأسرى. ثم عين مولاي عبد الحفيظ بنفسه ثلاثين من بينهم اعتباطاً، فبُتِرت أطرافهم بين مقطعي أيدٍ ومقطَّعي أيد وأرجل من خلاف. وأُعمِلت الطريقة التقليدية لوقف النزيف بتغطيس الجدعة في القار الفائر. وأما رئيس جوقة الروكي [العسكرية] فقطِّعت أشداقه حتى أذنيه وقُلِعت أسنانه. وقد نفق معظم الذين قطِّعت أطرافهم، في ما عدا قلة منهم عثر عليهم الأطباء الفرنسيون وأسعفوهم بتضميد جراحهم.

وأما الروكي نفسه فقد أعدِم في يوم 10 شتنبر في ظروف لا يعرف بها الكثيرون. وقد كانت الرواية التي قدِّمت إلي شهرين بعدُ تقترب كثيراً من تلك التي جاء بها صديقي [موريس] لوكلي في قصته الأخاذة التي أسماها «**موت الروكي**»*. فقد علمت ممن أخبرني هذه الرواية أن

* *Mort du Rogui*



وصول الروكي بوحمارة إلى مشور فاس

السلطان قد تملكه الخوف الشديد أن يفر سجينه، كما خشي أن تطالبه الهيئة القنصلية التي كان سيستقبلها في اليوم الذي بعد بإطلاق سراحه فلذلك أعطى أمره إلى رئيس الحرس الأسود امبارك السوسي بقتله. فقام بإخراج بوحمارة من محبسه بذريعه اقتياده إلى السلطان وأمره بأن يسير قدامه، فأطلق عليه رصاصة من مسدسه فأرداه قتيلاً ثم استأصل رأسه ليقدمه إلى السلطان دليلاً على تنفيذه ذلك الأمر وألقى بالجثة في قفص الأسود في معرض الحيوانات الموجود في القصر. فمزق أحدها بضربة من قائمته كتفه وبطنه. غير أن الحيوانات عافته فامتنعت من افتراسه. فسعى امبارك السوسي حينئذ إلى إحراق الجثة، حتى إذا طالت به تلك العملية قام بدفن بقايا الرفات وهي شبه متفحمة في ركن من أكدال. وقيل إن الرأس دفن بمعزل عن الجسد في دار دبيبغ؛ حيث كان السلطان وقتئذ يستمتع بالاصطياف.

فلما تخلص مولاي عبد الحفيظ من أعدائه الداخليين حسب أنه قد بات لا يُقهَر وأن مجده لن يعرف من حدود. لكن أساليبه التي أعملها في السجناء قوبلت باستنكار عام في أوروبا، وكلفت الهيئة الدبلوماسية في طنجة قنصلنا السيد كايار بأن يقدم إليه مذكرة احتجاج جماعية. فكان رد السلطان بالقول إن تلك العقوبات لا يمكن أن يقع فيها لوم؛ هي التي تنص عليها الشريعة الإسلامية، وأن الإبقاء للمتمردين على حياتهم وما تخول لهم من القدرة على العيش والتناسل هي على كل حال عقوبة أرحَم من عقوبة الإعدام التي ما كان لأي سلطان، لو كان في موضعه، أن يتورع عن أن ينزلها بهم. واستسلم مولاي عبد الحفيظ لطبعه العصبي العنيف؛ فما عاد يراعي أحداً لا من رعاياه الذين باتت سيرته فيهم عسفاً وتنكيلاً ولا من الأوروبيين الذين صار ينالهم بسياسة قوامها التنغيص والتكدير على محمييهم.

وما أن عقدت للسلطان البيعة الرسمية حتى دعا إليه في مطلع سنة 1909 السيد رينو، فجاءه إلى فاس ليحل وإياه المسائل موضع خلاف بين فرنسا والمغرب. فكان اللقاء بينهما في أوله تنافساً في إظهار المجاملة والحفاوة. لكن سرعان ما تحول موقف مولاي عبد الحفيظ، وابتدأت المصاعب. وبعد أن كان السلطان وعد الفرنسيين إلى كل ما كانوا يريدون لم يلبث أن أعاد النظر في كل الأمور التي لم تُحرَّرْ بشأنها وثيقة عليها الخاتم الرسمي. وطالت المفاوضات، فعاد السيد رينو أعقابه في آخر مارس من دون أن يبرم شيئاً، إلا ما قَلَّ والسلطان من شروط إخلاء الشاوية والمناطق التي يحتلها الفرنسيون في شرق المغرب (وجدة وبني يزناسن وبوذنيب وبوعنان)، وحصوله منه على الاعتراف المبدئي بالدين الواقع عليه من الحرب، وموافقته إلى تعيين مهندس فرنسي ليكون مستشاراً للمخزن في الأشغال العمومية، وعلى الوعد بعدم الاستعانة على تنظيم جيشه بغير المدربين من البعثة العسكرية الفرنسية.

وفي تلك الأثناء تم التوقيع، في 8 فبراير، في برلين على اتفاق بين جـ. كامبون وفون كيديرلين فايشتر يسجل تعهد الحكومتين [الفرنسية والألمانية] بالعمل على إشراك مواطنيهما في مشروعاتهما الاقتصادية في المغرب، ويعترف بالمصالح السياسية الفرنسية الخاصة المترتبة عن الجوار مع الجزائر. لكن بقي هذا الاتفاق حبراً على ورق بسبب الفشل الذي منيت به جميع المحاولات الرامية إلى تفعيل بنده الاقتصادي، ولأن الفرنسيين لم يعرفوا كيف يفيدون من بنده السياسي.

وبُعيد رحيل السيد رينو في شهر ماي رحل الحاج المقري في مهمة إلى باريس ليسوي مع الحكومة [الفرنسية] المسائل التي بقيت عالقة وكان الغرض الرئيس من رحلته هو الحصول على قرض جديد. ولم يكن الموقف

الذي اتخذه السلطان بعد سقوط الروكي [من الفرنسيين] مما يساعد على التعجيل بإبرام ذلك القرض. ثم أمكن بعد لأي توقيع اتفاق فرنسي مغربي في 4 مارس 1910 ينص على إخلاء الأراضي التي تحتلها القوات الفرنسية ما أن يصير في مقدور السلطان أن يقيم عليها قوات بمقدورها أن تحفظ لها الأمن والأمان.

وما مرت أسابيع قليلة حتى وقع المقري عقداً بقرض بمبلغ 90 مليوناً مرهون بعائد الجمرك الذي كان لا يزال متوفراً، واحتكار [فرنسا] التبغَ والكيف وعائد الأملاك الجماعية الموجودة في نطاق عشرة كيلومترات من حول المراسي. وقد سخر القرض كذلك للوفاء بالديون [المستحقة على المغرب]؛ فلم يتبق للسلطان شيء يُقدِره على أن يعيد تنظيم قواته ولا ما يسعفه على النهوض بأحوال البلاد، ولا تبقّى بين يديه حتى ما يدفع به الأجور لطوابير الشرطة المفروضة على المغرب بموجب ميثاق الخزيرات.

ثم ما كاد المقري يطأ أرض المغرب حتى لزمه أن يعود إلى باريس للتفاوض في قرض جديد لتسخيره في تسديد مبلغ ديون المخزن وتنظيم جيش يقدر به على جباية الضرائب وتسديد رواتب شرطة المراسي ومواصلة الأشغال العمومية أشدها استعجالاً.

وقد أمكن التوقيع بعد لأي على مشروع اتفاق في مارس 1911 لكن بعد فوات الأوان، وذلك لدرء الخطر الذي عرض له الفرنسيون المخزن بفعل جمودهم؛ إذ اضطروه للجوء إلى الأساليب الضريبية الشنيعة التي كانوا يؤاخذونه بها ويطالبونه بإلغائها.

وكان السيد رينو لا يزال في فاس وقت أن وصلتها السفارة الإسبانية في مارس 1909 ممثلة في السيد ميري ديل بال. وقد كان مولاي عبد الحفيظ حينها في أسوإ حال؛ فلم يستقبل المندوب الإسباني إلا في اليوم

السادس لوصوله، وكان استقبالاً على غير حفاوة كبيرة. وقد عزا السيد ديل بال الذي كان يحمل لفرنسا من المشاعر كمثل ما يحمل لها أخوه الكاردينال كاتب الدولة بي إكس، ذلك الاستقبالَ إلى التأثير العدائي للسفير الفرنسي؛ الذي سعى في إنجاح مفاوضاته مع السلطان فكان نصيبه هو الآخر الاصطلاء من تعكر مزاجه، فصار يبذل قصاراه لإفهامه خطل الموقف الذي كان منه نحو نظيره [الإسباني].

واستمع السلطان إلى المطالب التي جاء السيد ميري ديل بال يعرضها عليه، والمتمثلة في الموافقة للقوات الإسبانية على احتلال الجبال المطلة على مضيق جيل طارق بين سبتة وطنجة، وتأكيد الامتيازات المنجمية التي حصلت عليها شركتا «نورتي أفريكانو»* و«ميناس ديل ريف»* الإسبانيتان من الروكي، وإقامة بعثة فرانسيسكانية دائمة في فاس، فلم يكن لهذه المطالب إلا أن تزيده تكدراً على تكدر. بل إن السفير [الإسباني] قد جاء معه لأجل هذا الهدف الأخير براهبين كبوشيين وحمولة بغلين من الماء المقدس. وقد كان مولاي عبد الحفيظ بطبعه شديد الريبة والشك وكان لا يزال شديد تشبث بالصفة التي جُعلت له؛ أمير الجهاد، فلم يكن هنالك من احتمال لقبوله بتلك المطالب. فجاء رفضه لها باتاً وقاطعاً. وعادت السفارة الإسبانية أعقابها إلى طنجة.

وأما الشركات المنجمية المتفقة وسلطات مليلية فلم تعر اهتماماً إلى [قرار السلطان]، وعادت إلى مباشرة ما كانت تركت من أشغالها منذ شهر أكتوبر الذي قبل. فكانت حرب الريف.

---

* Norte Africano
* Minas del Rif

اندلعت تلك الحرب في 9 يوليوز 1909، كما اشتعل التمرد الذي عم الشاوية قبلها بسنتين، بسبب المذبحة التي تعرض لها بعض العمال على بعد خمسة كيلومترات من مليلية. وجاء رد الجنرال مارينا على هذين الاعتداءين بالاستيلاء على قلعة أطالايون، ثم خاض سلسلة معارك ساحقة ماحقة حققت فيها الجيوش الإسبانية انتصارات كبيرة استولى على أثرها على جبل كوروكو.

وتحصن الريفيون بالجبال، فكانوا شديدي مهارة بالرماية وشديدي حذق في تدبير ما بحوزتهم من الذخيرة فأمكن لهم بها أن يرهبوا الإسبان فبعض الفيالق لم تكد تحط في تلك الجزيرة حتى فقدت في أقل من أربع وعشرين ساعة نصف رجالها. وسرعان ما زيد في قوات الإنزال من 10.000 إلى 40.000 رجل. وقد أفلحت القوات الإسبانية في شهر شتنبر في أن تحتل جبل الناظور ثم قصبة سلوان وفي نونبر غزت وادي وجبل إيكسان الذي فتح في وجهها أرض قلعية.

والحال أن المعاهدتين المبرمتين بين المغرب وإسبانيا في 1767 و1799 كانتا تخولان للحكومة الإسبانية أن تتخذ في شبه جزيرة قلعية ما ترى من الإجرات البوليسية قميناً بحفظ الأمن في مليلية. وأما اتفاقيتا 1860 و1894 فقد نصتا على أن يتعهد السلطان في هذه القبيلة حامية من 400 رجل. وحيث إنه لم يعد لهذه الحامية وجود، فتكون إسبانيا لم تزد على أن مارست حقها بقضه وقضيضه، وما اعتبرت نفسها داخلة في حرب مع المملكة الشريفة.

وقد كانت توجد في ذلك الوقت سفارة مغربية في مدريد. فتواصلت المفاوضات الإسبانية المغربية لتنتهي في نونبر 1910 إلى اتفاق مستوحى من الاتفاق السابق المبرم في 4 مارس الذي قبلُ.

ولما تم للبعثة العسكرية الفرنسية الاعتراف من لدن مولاي عبد الحفيظ ذهبت بضباطها الأربعة وملازميها الستة لتأتمر بأوامره. فتلقاها بحفاوة وعهد إليها بتدريب القوات ومراقبة أعداد الجنود وأداء الرواتب والتسليح والكسوة. واتجه أول اهتمام القائد إ.[ميل] مانجان رئيس تلك البعثة إلى أن يبعد عن الطوابير العناصر العاجزة وغير المرغوب فيها وأن ينشئ مدرسة لضباط الصف لتمده بمساعدين يكون بهم الجنود ويكونون نواة صلبة للجيش الشريف في المستقبل. وقد قوبل هذا الأمر باحتجاجات كثيرة من القادة العسكريين من الأهالي لكن السلطان أخرسهم. وانبرت هذه البعثة في مدينة فاس نفسها تباشر هذه الأعمال مجتمعة، وقد ألحقت بعض أفرادها بالمحلة التي خرجت في حرْكات في ما بين يناير ومارس 1909 على آيت يوسي، وبين مارس ويونيو على بني مطير، وبين يونيو إلى غشت على الروكي.

وقد كانت الأمور كلها تسير على خير ما يرام. حتى إذا تم لمولاي عبد الحفيظ القضاء على بوحمارة استخفته نشوة الانتصار وظن أنه قادر على الاستغناء عن البعثة العسكرية الفرنسية، فانقلب انقلاباً مفاجئاً في موقفه نحو فرنسا. لقد تبدل حال السلطان رأساً على عقب، وصارت تتلبسه حالة من التصوف والخوف من الأجانب. فإذا هو قد انحاش في لمح البصر إلى جانب الشرفاء والعلماء، وصار يقضي سحابة يومه وإياهم في تذاكر الكتابات الدينية. ونكث بوعده الذي كان قطعه للسيد رينو فاستقدم من القسطنطينية عشرات الضباط وضباط الصف من جيش عبد الحميد بعد أن سرحتهم الحكومة التركية الجديدة، وما عاد يقيم اعتباراً لآراء البعثة العسكرية الفرنسية، وعاد إلى النظام المشؤوم؛ نظام القيادات تباع بالمزاد العلني ونظام المحلات غير المأجورة تعيش عالة على البلاد.

وفي دجنبر 1909 اهتز مولاي عبد الحفيظ للعصيان الذي كان من أخيه مولاي الكبير في تازة، فأرسل رتلاً من عشرة آلاف رجل على القبائل المحيطة بإناون. وأقام عشرة أشهر عند الحياينة في منتصف الطريق. وعلى الرغم من التعزيزات التي أرسِلت إليه مرات كثيرة فإنه لم يحقق شيئاً ذا بال. ثم خرجت المحلة عن العقال، فصارت تحكي عصابة من اللصوص، وصارت تعيث نهباً وسلباً وحرقاً في الدواوير والأسواق؛ تعترض سبل القوافل وتبيع عتادها الحربي وتسلب ما بأيدي البدو الداخلين في بلاد المخزن حتى من ساكني نواحي العاصمة وتذبّحهم، وترد على جميع الأوامر إليها بالهجوم بطلب التعزيزات والذخيرة والأموال. وأطلقت سراح السجناء من الذكور مقابل فديات، وباعت النساء بيع الرقيق وباعت الأطفال للزناة الفاسقين بما بين نصف دورو ودوروين؛ وهو نصف سعر خروف. ولم تزد مغانم المخزن من هذه الحركة عن بعض رؤوس الماشية رضي بها القادة حتى لا يزحفوا على غياتة والتسول والبرانس وحتى لا يعودوا إلى فاس إلا بعد أن «يأكلوا» القبيلة التي كانوا فيها معسكرين وإن تكن من بلاد المخزن فلا يبقوا منها على شيء.

ثم كان التوقيع على اتفاق 4 مارس 1910، فتم على أثَره تسريح المدربين الأتراك، وإن ظل الضباط الفرنسيون طوال ستة أشهر أخرى يُختبَرون في صبرهم اختباراً عسيراً، بفعل تقلب السلطان وعنجهية العلاف، وهو هجين شاب، لم يكد يتجاوز العشرين؛ ابن الوزير الصدر سي المدني الكلاوي. حتى إذا وقعت الحرْكة في ذلك الفشل الذريع عند الحياينة قرر مولاي عبد الحفيظ أن يشرع في إعادة تنظيم جنوده وفقاً للنظام الذي كان مانجان عرضه عليه بُعيْد مجيئه إلى فاس.

ولزم أن تجرّد المحلة من سلاحها قبل الشروع في هذا الإصلاح. فلذلك دعاها السلطان إلى فاس، وأطلق أيدي البعثة العسكرية في تسريحها. فقد عادت القوات في أكتوبر 1910 وتم في 23 منه تجميع أفرادها في ساحة المشور المسورة الفسيحة كما لو بغرض الاستعراض. لكن بدلاً من أن يجدوا أمامهم السلطان وأعيان [المخزن]، تلقاهم المدربون الفرنسيون وشرعوا من فورهم في عد الرجال والعتاد. فما وجدوا باقياً من جملة 10.000 رجل الذين كانوا يشكلون تلك القوات في البداية ومن التعزيزات التي أرسلت إليها والبالغ تعدادها 40.000، غير 5.000 من الرجال، وأما الباقون فقد لاذوا بالفرار. ولما باشروا إحصاء العتاد ألفوه ينقص بـ 400 حصان و120 بغلاً فضلاً عن 480 سرجاً و1.500 بندقية و3.000 لباس عسكري.

وقد مكنت الاحتياطات التي اتخذها قائد البعثة من استرداد العتاد من دون أن يثير شكوك الجنود وريبة قيادهم، وما انتبهت المحلة إلا بعد أن أخذت منها بنادقها إلى أنها قد جرّدت من أسلحتها. فسَرَت حينئذ في الصفوف همهمة تمرد وارتفعت صيحات، لكن لم تلبث بوادر التمرد أن هدأت لدى رؤية الغاضبين فرقة التدريب والحرس الأسود قد احتلا جميع المنافذ في المشور، ووجدوا ذلك الموقف الحازم من تلك الكمشة من الفرنسيين الذين أنجزوا مهتمهم على أحسن وجه.

حتى إذا هدأ الهياج أمر القائد مانجان بقراءة مرسوم شريف في إعادة تنظيم الجيش والنظام العسكري، وتبيين الشروط الجديدة للتجنيد والالتحاق والعقوبات التي تقع على المخلين بالنظام والمكافَآت المرصودة للجنود من ذوي الجدارة.

ومن جملة 5.500 من الجنود الذين حضروا إلى فاس قَبِل قرابة 4.000 بالعمل وفق الشروط الجديدة؛ فبوشرت على الفور عمليات

التجنيد. ثم عُرضوا على الفحص الطبي فتبين أنٍ ثلاثة أرباعهم هم الذين يصلحون للخدمة، وتم إلحاقهم بالجيش. وأُعطيَ الأمر إلى الآخرين وأولئك منهم الذين رفضوا الشروط التي جاءت في الظهير الشريف بمغادرة فاس في الحال والعودة إلى قبائلهم. ثم نبه قائد البعثة السلطان إلى ضرورة ألا يلحق به من الجنود فوق العدد الذي يستطيع دفع رواتبهم، فقرر لذلك أَن يقتصر مؤقتاً على تكوين خمسة طوابير من سلاح المشاة وثلاثة من الخيالة واثنين من سلاح المدفعية وواحد من الهندسة [العسكرية] ومجموعة مدربين؛ بما مجموعه 4.000 رجل و670 حصاناً و220 من البغال. وينبغي أن يُزاد إلى تعداد هذه القوات الحرس الأسود وقوامه حوالي 700 من زِنوج القصر؛ نصفهم خيالة في طابورين. وزيد إلى هذه القوات رجال أُخِذوا من محلة صغيرة بقيادة مولاي يوسف (السلطان المقبل) كانت تقوم بعملياتها ضد شراكة.

وعلى الرغم من تواضع هذا البرنامج الأول، فالذي يبدو أن البعثة العسكرية الفرنسية كانت غير كافية لتخرج به إلى التنفيذ. ولذلك طلب القائد مانجان بعد موافقة السلطان ابتداء من أكتوبر 1910 ببعض التعزيزات؛ إذ أرسل أولاً في طلب ضابط ترجمان وطبيب عسكري، ثم أرسل بعد ذلك في طلب ضابط من سلاح الخيالة و7 من ضباط الصف ثم 10 ضباط و20 من ضباط الصف من كافة الأسلحة.

بيد أن مكاتب وزارة الحربية كانت معادية لهذا التنظيم الذي كانت لا تكاد تفقه فيه شيئاً، ولذلك لم ترسل من تلك التعزيزات المطلوبة مهما كان من إلحاحات وزارة الخارجية عليها، إلا بتقتير شديد. حتى إذا ارتأت في مارس 1911 أن تستجيب إلى الالتماسات الملحة إليها من رئيس البعثة، كان قد فات الأوان. فقد اندلع العصيان العام وشمل

جميع القبائل في المناطق من فاس إلى الساحل. وبات من المستحيل على ضباطنا المعينين لتعزيز بعثتنا العسكرية أن يلتحقوا بها.

بيد أن ضعف السياسة الفرنسية وتنافرها كان فيه بعض خير؛ فهو قد كانا سبباً في التسريع من وتيرة الأحداث، وحمل الحكومة على القبول بتدخل كانت تود تحاشيه بكل الوسائل.

كان المغرب القديم يومذاك قد بات مهدداً بالزوال.

الفصل السادس عشر

إغاثة فاس

لقد جف المورد الذي كانت تأتي منه المساهمات الطوعية في الجهاد منذ وقت طويل، ودخول بيت المال التي يمكن مراقبتها استنفدتها كلها مصلحة القروض، وصارت موارده الأخرى من سوء التدبير غير كافية بأي حال. فما عاد بمقدور المخزن أن يؤمن لنفسه البقاء إلا بقهر القبائل الخاضعة له بصورة مؤقتة وإرهاقها بالضرائب. فقد صار يفرض على البدو في ناحية فاس مبالغ ضريبية تزداد عِظماً بفواصل زمنية تزداد قِصراً؛ تلك كانت النايبة الكريهة تتكرر إلى ما لانهاية بفعل جشع القياد. إنه عهد مرير من الانتهاكات والسلب والنهب.

ولعل هذه الأفعال، وهي ليست بالجديدة، ما كان لها أن تثير غير تمردات هينة، لولا أن بالغ بها الوزير الصدر المدني الكلاوي بمطامعه الشخصية ولولا أن دفعت سياسته الظالمة بجميع القبائل وجميع الشخصيات النافذة إلى الخروج عن المخزن، وهي التي كان يفترَض به أن يعول عليها.

كان بين هؤلاء الشخصيات القايد عقا من آيت أوبويدمان إحدى فخدات بني مطير، وهو الذي كان اعترض سي محمد الكتاني عند فراره من فاس فأفشل بذلك التمردَ الذي كان يدبر له هذا الشريف. وقد كان عقا في سنة 1909 هو الوحيد بين سائر قادة بني مطير الذي ظل وفياً للسلطان يُحارب في صفوف القوات الشريفة لدفع المتمردين ويساعد في

ردهم إلى الطاعة. والحال أنه في أواخر سنة 1910 دعاه الكلاوي إلى فاس حتى إذا جاءه ألقى به في السجن بذريعة تافهة، وما أُخلي سبيله إلا في يناير 1911 مقابل فدية عظيمة.

فصار عقا البويدماني يطوي نفسه على حقد دفين على المخزن للجزاء السيء الذي لقيه منه بما قدم له من خدمات، ووطّن نفسه على الانتقام منه شر انتقام. حتى إذا رجع إلى قبيلته انبرى يكرس لذلك الانتقام نفوذه كله وما أوتي من دهاء. فصار المحرك والموجه للعصيان.

وكان أن انعقد في 22 فبراير 1911 أجتماع ضم بني مطير ومجاط وزمور وكروان في أكوراي جنوبي مكناس، وقررت هذه القبائل أن تتحد ضد المخزن، على أن تلتزم الهدوء حتى حلول عيد المولد الذي كانت تفصلها عنه ثلاثة أسابيع. فإذا حل ذلك الموعد أرسلت إلى فاس بعدد من فرسانها حتى إذا برز السلطان في الساحة خارج أسوار المدينة حيث يُحتفل بالأعياد الدينية حاولت أن تختطفه هو ووزيره الصدر.

غير أن التمرد اندلع عند الشراردة، فأجهض مخطط البربر. ففي اللحظة نفسها التي اتخذت فيها قبائل البربر القرارات التي ذكرنا، إذا الشراردة تعلن بعد وفاقها مع بني حسن وحجاوة خروجَها إلى السيبة. وقد كان يُتوقع لخروج هذه القبيلة من قبائل الكيش على المخزن أن تتبعه حركة انفصالية أوسع نطاقاً، فقرر السلطان من فوره أن يرسل عليها حرْكة اجتمع فيها سائر القوات النظامية الموجودة يومئذ في العاصمة.

فقد خرج فيلق القائد إ. مانجان في 28 فبراير في 2.600 من الرجال فخاض سلسلة اشتباكات ظافرة، أفلح بعدها في 7 مارس في أن يقيم معسكره على أراضي الشراردة في دار القايد حفيظ عند السفح الشمالي الشرقي من جبل سلفات؛ ثم لم يلبث أن أعاقته الأمطار من المسير.

لم يجد بني مطير وحلفاؤهم بداً وقد فشل مخططهم من الخروج بدورهم إلى التمرد. فقد شاركو في 7 مارس في الهجوم على معسكر القائد مانجان. فلما دُفعوا عنه تحولوا صوب فاس لقطع كل اتصال بين العاصمة وفيلق الشراردة. وابتداء من 12 مارس تم لهم الاتفاق مع القبائل العربية من ساكنة سايس فتمركزوا في راس الما وفي بويب الريح وفي بن يطو مشكلين قوساً عريضاً يتحكم في جميع السبل الرابطة بين فاس والمدن الساحلية.

لقد باتت السلطة الشريفة وقتها في خطر قاصم، بحيث لم يجد السلطان بداً من التفاوض مع المتمردين. فكان للمتوكي في 16 مارس لقاء أول بقادة التمرد، وبدا أن الاتفاق في سبيله إلى التحقق، لولا أن رفضت قوات البربر المعسكِرة في راس الما من تحفزها لنهب فاس أن تنخرط في الاتفاق المبرم؛ بما يعني أن قادة التمرد لم يعودوا يمسكون بزمام الحرَكة التي أطلقوها.

وانخرط آيت يوسي في اليوم الذي بعد في ذلك التمرد، فأحرقوا بعض الدواوير في ضواحي المدينة ونهبوا قطعان العاصمة. وساءت الوضعية حتى لم يعد بدٌّ من استدعاء القائد مانجان على وجه السرعة ليتولى تنظيم الدفاع عن المدينة. فجاء إلى فاس في 12 مارس بعد أن أسند قيادة الفيلق إلى القائد بريمون. ووجد في المدينة حامية متنافرة الأفراد من نحو 2.000 من الرجال يدخل فيهم زنوج القصر وخدم قياد الجنوب العظام وبقايا من جنود المحلات السابقة غير المدربين ولا المنظمين؛ بما لا يكادون يكفون حتى ليُجعلوا على أسوار المدينة.

غير أن السلطان قرر في 26 مارس أن يهاجم معسكر راس الما، لم تثنه عنه اعتراضات رئيس البعثة العسكرية، فمنيت تلك المحاولة بفشل ذريع

وعاد جنود المخزن يجرون ذيول الخيبة، بعد أن قُتِل منهم 40 وأصيب 50 وأُسِر 30. وما منع عنهم كارثة ساحقة ماحقة إلا سلاح المدفعية الذي أعمله بعضُ المدربين الفرنسيين، فتمكنوا به من اعتراض الملاحقين للفارين وهم على بعد كيلومترات معدودة من المدينة.

وابتهج المتمردون بما أصابوا غاية الابتهاج والتمسوا العون من جميع القبائل للقضاء على المخزن، فكان منهم هجوم أول على المدينة في 2 أبريل بيد أنه كان هجوماً هيناً ما أيسر ما رده سلاح المدفعية. وكان منهم هجوم آخر في 9 أبريل فتم دفعه هو الآخر. غير أن القوات المتمردة كانت لا تفتأ تزداد أعداداً. فقد خرج أولاد جامع وأولاد الحد وبني سادن بدورهم [إلى العصيان]. وساءت وضعية المخزن حتى لم يجد السلطان مناصاً من التماس من فرنسا أن تمده بالقوات المتمركزة في الشاوية.

وباشر المخزن في الوقت نفسه مفاوضات جديدة مع المتمردين بواسطة الشريف مولاي إدريس الأمراني. فمنيت من الفشل بأسوأ مما لقيت المفاوضات الأولى، وإذا المفاوض الشريف، الذي جاء يحمل رسالة شريفة بالعفو العام ومبلغاً مالياً قدره 8.000 دورو لأجل قادة التمرد، قد تعرض للهجوم في نزالة فراجي على مشارف المدينة من بعض الفرسان من البربر فجردوه من كل ما يحمل حتى لم يتركوا له غير قميص. فدخل مدينة فاس ملفوفاً في إزار وما بقي له من كرامة مع خدامه وهم منه أعرى.

وحينئذ تلقى الرتل الذي يقوده بريمون الأمر بدخول فاس، على الرغم من العواقب الفادحة التي ستكون لهذا الإجراء؛ فهو إذا كان سيطلق أيدي الشراردة فإنه سيؤدي لامحالة إلى خروج القبائل المجاورة لها عن المخزن والقضاء على كل إمكانية للاتصال بمنطقة الغرب وبطنجة. وقد أحرز هذا الرتل المذكور في 12 أبريل نصراً بفضل سلاح المدفعية الذي

أمكن له به أن يشتت قوات خصومه العظيمة التي احتشدت شمالي جبل سلفات لمهاجمة المعسكر، بيد أن هذا الرتل لبث محاصراً في دار القايد حفيظ بفعل وعورة المسالك والأودية. وما أمكن له إلا في 23 [أبريل] أن يعبر أراضي زكوطة والمكس ويترك أرض الشراردة.

اكتمل لأولاد جامع الذين أقاموا معسكرهم في سيدي أحمد البرنوصي في تلك الأثناء حصار فاس باحتلالهم لجبل كبكب في الشمال الشرقي من المدينة. فصارت العاصمة منذ تلك اللحظة وقد حوصرت من كل جانب. ووقع الرقاصة في أيدي المتمردين وهم يحاولون فك الحصار فعُذّبوا وقتلوا تقتيلاً.

وقامت الحامية التي في فاس في ما بين 19 [مارس] و16 أبريل ببعض الخرجات، لكنها لم تفلح في كسر الطوق المحيط بالمدينة. ثم سُمِع دوي المدفع في الناحية الشمالية الشرقية معلناً مقدم رتل بريمون الذي ظل رجاله طوال أربعة أيام في هجوم ضار لا يعرف الهوادة وفي قتال يبتدئ من الصباح ويستمر حتى المساء، وكثيراً ما يسهرون الليل من غيرِ أكل، إلى أن أفلحوا في شق طريق المرور. لكن ام تلبث تلك الطريق أن أغلِقت من ورائهم، وما لبثت القبائل التي أخضعوها أن التحقت بالمحاصِرين.

وفي اليوم الذي بعد أرسل مولاي عبد الحفيظ بثلاثة رقاصة في ثلاث جهات مختلفة برسالة يلح فيها في طلب إرسال قوات فرنسية. فأفلح منهم واحد في المرور والوصول إلى وجدة، ومن هناك أرسِل ملتمس السلطان إلى باريس. وقد كان من حسن الصدف أن الحكومة لم تنتظر إلى ذلك الحين لتتخذ التدابير التي تتطلبها تلك الظروف. فقد كان السيد رينو أنذر منذ شتنبر 1910 بقيام عصيان عام. وكان السيد كايار نبه في دجنبر [بعده] إلى انهيار المخزن وسعي القبائل إلى الاتحاد ضده. وكان المكلف بالشؤون

الفرنسية في طنجة السيد دو بيلي قد بين في مارس 1911 التقدم الذي يعرفه العصيان والخطر الذي يشكله على الأوروبيين في فاس.

كان الفرنسيون يتوفرون في الشاوية يومذاك على 7.000 رجل، بينهم كتيبتان قد أنزلتا في تلك الأثناء بغرض القيام بعملية بوليسية لدى زعير انتقاماً لاغتيال الملازم أول ميو، الذي بقي من غير قصاص منذ فبراير 1909 والاقتصاص للملازم أول مارشان الذي لا يعود اغتياله إلا إلى 14 فبراير 1911. وتم تعزيز هذه العناصر في النصف الثاني من شهر أبريل بـ 14 كتيبة و15 سرية وفرقة كوم من الجزائر و4 بطاريات و3 فرق من الهندسة العسكرية. وقد تجمعت هذه القوات في المهدية ثم جعلت تحت إمرة الجنرال موانيي لاحتمال قيامها ببعض العمليات من دون أن تبيت لنية الغزو. فلما وصل نداء مولاي عبد الحفيظ اليائس إلى باريس تلقى الجنرال موانيي الأمر بالزحف على فاس ثم الانسحاب إلى الساحل فور أن تستتب الأوضاع في المدينة.

غير أن الجنود في رتل بريمون كانوا قد بلغ منهم الإجهاد كل مبلغ من فرط ما أبلوا في تلك العمليات، فلم يلبثوا أن ابتُلوا باليأس المسيطر على دهماء فاس وعلى العناصر غير المنظمة من حاميتها. وكان بين قيادهم من بلغ منهم الاقتناع ببطلان أي مقاومة، حتى إنهم لم يتورعوا عن الانضمام إلى العدو. وصارت أعمال العصيان والفرار تتزايد يوماً بعد يوم. وما عاد بيد السلطان من المال ما به يدفع رواتب الجند، وامتنع الكلاوي أن يسلفه شيئاً منه. وتدارك السيد كايار ذلك الوضع بالتدخل لدى أحد الأبناك الفرنسية فوجد منه القبول بإسعاف المخزن، وبذلك أُبعِد الخطر الذي بات يومها وشيكاً؛ خطر الفرار الجماعي للجنود.

لكن المتمردبن علموا من أصدقائهم في المدينة بما كان يجري، فباتوا يعرفون أن هذا الوضع لا يمكن أن يدوم. وقد كانت تستدعيهم أعمال الحصاد فقرروا التعجيل بالانتهاء من ذلك الأمر. ولذلك جاءوا في 4 و11 و18 - وكانت أيام خميس، وهي الأيام المواتية للمغامرات الكبرى - متزودين بالحبال والكلاليب ليتبسلقوا بها الأسوار والبنزين ليضرموا النار في الأبواب. ثم اندفعوا يهاجون الأسوار بحمية ملتهبة. وأمطروا المدينة بالرصاص حتى طالوا به ساحات القصر. لكن هجماتهم الهوجاء المسعورة كانت تتحطم عند أسوار المدينة. وقد أفلحت الحامية في دفعهم مرة أخرى، لكن لم يتبق لديها بعد هجوم 18 [أبريل] من الذخيرة ما يكفيها لغير معركة واحدة.

بيد أن رتل النجدة بقيادة الجنرال موانيي كان في طريقه إلى فاس. فقد غادر المهدية في 11 ماي، بعد أن قضى في طريقه على محاولات المقاومة في سيدي عياش ولالة يطو وضاية [بن] عيشة، ثم اجتاز سهل بني حسن وجاز المنطقة الجبلية في شرقي فاس من باب تيوكة وعنق زكوطة وقنطرة مكس.

وفي عشية وصوله إلى فاس كانت الوضعية على النحو التالي : خرجت جميع القبائل في ناحية العاصمة، إلا قبيلة الحياينة، إلى العصيان، وكانت معسكرات قواتها تشكل طوقاً يتراوح قطره ما بين عشرة كيلومترات إلى خمسة عشر كيلومتراً من حول المدينة. وكان بحوزة المخزن قرابة 4.000 رجل يتشكل نصفهم من الرتل الذي يقوده بريمون، وقد كانوا جنوداً مدربين لكن نال من معنوياتهم الوسط والاقتناع بأنهم يدافعون عن قضية خاسرة. ولئن كانوا لم يفروا جماعات فالفضل فيه يعود إلى مدربيهم وإلى الأخبار الشحيحة عن [قرب] وصول الجنود الفرنسيين. وأما نصف الحامية الآخر

فكان يتألف من جنود غير منظمين وبقايا متنافرة من المحلات السابقة التي دخل قادتها في ما يشبه التحالف مع المحاصِرين، وسوقات الحياينة وعبيد القصر وخدم الكلاوي والمتوكي وحشود غير منظمة من فرسان يقاتلون متى استهواهم القتال.

وما عاد يوجد شيءٌ من المال لدفع أجور الجنود، وما بقي من الخرطوش قليل، وأما المدافع الجبلية عيار 80 ومدافع شنايدر عيار 75 فما بقي لها من القذائف لا يزيد عن مائة. وكان السكان المدنيون يكادون يكونون كلهم معادين للسلطان، وإن كان يمكن التمييز فيهم بين معسكرين اثنين : معسكر البورجوازية الميسورة، التي كانت تخشى على المدينة أن تتعرض للنهب من المتمردين، ومعسكر الحشد الكبير من الدهماء الذي كان يعلن تعاطفه الصراح مع المتمردين ويتمنى لهم النصر ليتسنى له أن ينال حصته من الغنيمة.

لقد أصبح التمرد ناضجاً كالدمل على وشك الانفقاء، وما عادت مقاومة المخزن تجدي في رد أعداء الداخل وأعداء الخارج ولا عاد بمقدوره الصمود إلا لأيام ... أو ساعات.

لكن حدث أن رفع المتمردون فجأة في ليلة 20 وصبيحة 21 ماي معسكراتهم من راس الما ومن كبكب. وفي صباح اليوم الذي بعد خرج المحاصَرون وارتقوا المرتفعات في الشمال الشرقي من فاس من دون أن يلاقوا فيها مقاومة. وفي الساعة الحادية عشرة أشار بعض حراس الجناح إلى [وجود] العدو في الدويات على طريق زكوطة؛ وتلك كانت طلائع رتل النجدة! فلما كانت الساعة 4 بعد الزوال عسكر الجنود الفرنسيون في دار دبيبغ.

لقد نجح فيلق موانيي في الوصول إلى فاس من دون أن يلقى مقاومة كبيرة. وأما موكب الإمداد المخفور من الكولونيل كورو، الذي بلغ فاساً عشرة أيام بعدُ، فقد تعرض للهجوم وتحتم عليه أن يظل يقاتل على طول الطريق.

تحولت الأوضاع في العاصمة بوصول الجنرال موانيي كما لو بفعل السحر، وهو تحول جاء في أوانه. فإن هي إلا أيام معدودة حتى وقعت فاس وقعة محققة في أيدي المتمردين. ولا يحتاج المرء أن يكون متنبِّئاً ليعرف ما كان سينتج عن تلك الواقعة، ولاسيما أن قادة التمرد ما عادوا قادرين على توجيه الأهواء والنعرات التي أطلقوها من عقالها. وبات الأوروبيون عرضة على كل حال لخطر كبير، فكنت تراهم جميعاً من أنجليز وإسبان وفرنسيين يرحبون بوصول القوات الفرنسية ويتلقونها فرحين مبتهجين.

وبقي تخليص مكناس، مقرِّ المخزن المتمرد بقيادة مولاي الزين أخي مولاي عبد الحفيظ، الذي بايعه البربر في مارس. وقام الجنرال موانيي بهجوم مضلل على البهاليل في 8 يونيو؛ ثم انقض على بني سادن وآيت يوسي وآيت سغروشن، وشق طريقه في وادي ويسلان الذي كان يحميه بني مطير وكروان. وتغلب في 8 يونيو على الطامع في العرش واستولى على عاصمته ثم عاد إلى فاس بالالتفاف على زرهون بعد أن انتهك في مروره حاضرة مولاي إدريس المقدسة. ثم لم يلبث أن عاود المسير إلى مكناس. وتلقى في الحاجب في 28 يونيو الطاعة من رؤساء بني مطير، وأقام هناك حامية شريفة من 1.200 جعل عليها القائد لوكلي والقايد إبراهيم بوعودة. وترك في 2 يوليوز الجنرال دالبيي في مكناس ومعه الجنود المنسحبون من فاس، ورحل يريد الساحل سالكاً إليه طريق زمور، وفاتحاً سبيل الاتصال المباشر التي ظلت مقطوعة إلى ذلك الحين حتى في وجه السلاطين. وفي 9 [يوليوز] قفل راجعاً إلى الرباط.

ثم توجهنا إلى فاس استجابة إلى نداء السلطان واضطراراً بالأحداث. وقد كان الجنرال موانيي امتثل للأوامر التي تلقاها، فلم يدخل جنوده المدينة بل انسحبوا إلى مكناس ما أن سمحت الظروف. ولم يلبث الجنرالان دالبيي في مكناس وديت في الرباط والمهدية إلا لدرء الخطر من معاودة القبائل الهجوم. وكانت الحكومة [الفرنسية] عاقدة العزم على سحب قواها ما أن تسنح لها الإمكانية. غير أن أوروبا عامة كانت تشك في صدقها.

وفي يونيو 1911 احتجت إسبانيا باتفاقها مع فرنسا لسنة 1904 واستغلت بوادر هياج قام عند قبائل ناحية القصر لترسل على العرائش البارجتين «كاطالونيا»* و«ألميرانتي لوبو»*، وتنزل جنوداً وتحتل العرائش والقصر. واحتج ممثل السلطان في طنجة لدى الهيئة الدبلوماسية لكن لم يجد لاحتجاجه مجيباً.

لقد انتُهك ميثاق الخزيرات الذي ينص على استقلالية المملكة الشريفة ووحدة ترابها، وصارت ألمانيا تتهيأ للمطالبة بنصيبها من الكعكة المغربية. ففي فاتح يوليوز أعلم السيد شوون سفير ألمانيا السيدَ سيلڤ الذي تولى يومها إدارة الشؤون الأجنبية بإرسال [ألمانيا] سفينة حربية إلى أكادير «لتقوم فيها على حماية المصالح الألمانية المهددة». وما كان إرسال تلك السفينة في الحقيقة إلا لإرضاء الرأي العام الألماني المضطرم وإجبار فرنسا على التفاوض.

وأما اختيار أكادير فقد أملته تقارير المنقبين الألمان التي كانت تتوقع لمنطقة سوس أن تشهد تطوراً هائلاً في المستقبل، خاصة في ما يدخل في المجال المنجمي، كما أملت هذا الاختيار الأوساط البحرية التي كانت

* Cataluña
* Almirante Lobo

ترى في هذه المدينة المجال لإقامة قاعدة بحرية. لكن جاء اعتراض بريطانيا في غشت على تحقيق هذا الحلم البحري. وانطلقت المحادثات في غشت تحت تهديد مدافع «بانتر»*، لكنها اتخذت وجهة أقل خطورة وصارت إلى شيء من الاتساع، ثم انتهت في 4 نونبر 1911 بالاتفاق الفرنسي الألماني الذي أقرت فيه ألمانيا لفرنسا بالحق في تقديم المساعدة للمغرب لإدخال جميع الإصلاحات الإدارية والقضائية والمالية والعسكرية التي يراها الفرنسيون نافعة، ولا تعترض على أن يكون ممثلُ فرنسا في المغرب هو الوسيط بين المملكة الشريفة والقوات الأجنبية في مقابل احترام التكافؤ الاقتصادي وتعويضات هامة في الكونغو.

* Panther

الفصل السابع عشر

ذكريات شخصية (1910)

أرسلتني صحيفة «**الطان**» في أكتوبر 1910 إلى المغرب من دون تعليمات واضحة، وقد أمكنني بفضل تدخل السيد تارديو أن أحصل من وزارة الشؤون الخارجية على توكيل بمهمة طبية وجغرافية شديدة الإبهام ليكون في مقدوري أن أحملها على المحمل الذي أريد.

وكان القائد لاراس بعد عودتي إلى أوروبا قد شمل بلاد المخزن كلها بشبكة من 8.000 كيلومتر من السبل. وقطعت الخرائطية العامة للمغرب أشواطاً كبيرة بفضل أعمال دي سيكونزاك وجنتيل وآخرين، وما عاد ينقص إلا الشروع في الاستكشاف المحكم لمختلف مناطقه.

والحال أني كنت مقتنعاً على الرغم من معارضة البرلمان لكل تدخل في الشؤون الداخية للمملكة الشريفة، واستنكاف الحكومة من الانسياق إلى هذا التدخل، بأن الأحداث لن تلبث أن تجبرنا على احتلال فاس ومراكش. ولذلك عقدت العزم على سبر هاتين المنطقتين والإلمام بدقائقهما. وآثرت الابتداء بالمنطقة منهما التي كان يبدو أن تدخلنا سيقع عليها هي الأولى.

فتوجهت رأساً إلى فاس، من غير أن أتوقف في طنجة إلا للوقت الذي يلزمني لتقديم نفسي للمكلف بالشؤون الفرنسية السيد بيلي، وشراء حصان وبغلين ولأتخذ لخدمتي خادماً وسائساً من الأهالي. فلما جئت إلى فاس تلقاني القنصل الفرنسي السيد كايار الذي كنت عرفته في الدار

البيضاء في سنة 1900 أو نحوها، بحفاوة كبيرة، وأود في مقامي هذا أن أقدم إليه التحية للمساعدة الثمينة التي خصني بها لإنجاز مهمتي. فبفضله حصلت من مولاي عبد الحفيظ على رسائل شريفة إلى قياد القبائل التي كنت أزمع زيارتها. وقد كان لي في هذه الرسائل أول الأمر خدمات جليلة غير أن مفعولها أخذ بعد ذلك في التضاؤل، إلى أن زال بزوال سلطة ذلك الذي تحمل خاتمه.

لقد صارت الخريطة التي وضعتها لفاس في 1909-10 جاهزة ليتوسلها الجنرال موانيي عند زحفه على عاصمة الشمال. وأما الخريطة التي وضعتها لناحية مراكش وكنت أنهيت مسودتها فقد سلمت وهي على حالها تلك إلى الكولونيل شـ.[ارل] مانجان حين هجومه المشهود على عاصمة الجنوب. وقد كان في الخريطتين نفع جليل لمستعمليهما، وتملكني شعور بالرضا أنني لم أخطئ في تخميناتي وأني قدمت [البلادي] خدمة نافعة بتوجيه مهمتي الوجهة التي أوحت إليَّ بها.

وقد سرت في توزيع وقتي على النحو التالي : كنت أخرج من فاس لخمسة عشر يوماً أرسم سبلاً وأجمع المعلومات العراقية والسياسية وأفحص المرضى وأوزع الأدوية. وأعود إلى المدينة لأنقح أعمالي وأستخبر عن الأحداث وأبعث برسالة إلى صحيفة «**الطان**». ثم أنطلق في وجهة أخرى تارة لوحدي في قافلتي الصغيرة، وطوراً في أعقاب محلة من المحلات الشريفة... لقد كانت عيشة مثالية؛ حرة ومفيدة وملأى مفاجآت وإن تخللتها بعض المغامرات التي سأجملها في الصفحات التالية وفي مقتطفات من مذكراتي، لأمكّن للقارئ من خلالها أن يتتبع اختلاجات المغرب القديم المحتضر وأنفاسه الأخيرة.

فاس، نونبر 1909

قدمني السيد كايار إلى السلطان بكوني مراسل صحيفة «**الطان**»، وقد كان مولاي عبد الحفيظ عارفاً كفاية بأهمية هذه الصحيفة، كما يشهد حسن الاستقبال الذي وجدت منه. فأطلعته على الهدف من مهمتي بكل صدق ووعدني أن يمدني بكلٍ الرسائل التي يمكن أن أحتاجها إلى قياد المنطقة. وهيأ لي كذلك خفراً من مخزنيين، وما كانا في الواقع إلا جاسوسين قد كلِّفا بالاستخبار عن كل حركة من حركاتي.

وإذا كان مولاي عبد الحفيظ يحرص أن يكون على وفاق مع الصحافة فما ذلك إلا لأن القلق قد بدأ يتملكه من الاستياء الذي عم العالم من فظاعاته وأنه قد أخذ يدرك أن نجاحاته الداخلية مهما بلغت من الأهمية لم تكن لتخيف أوروبا.

ومن المؤكد أن انتصارات مولاي عبد الحفيظ المتلاحِقة على مولاي عبد العزيز وعلى سيدي محمد وعلى الشريف الكتاني، وخاصة على بوحمارة، الذي كان السبب الرئيس في سقوط سلفه، من المؤكد أن تلك الانتصارات كان لها في المغرب نفسه أثر عظيم، وأَنها قد ساهمت كثيراً في الترسيخ لسلطة مولاي عبد الحفيظ. لكن الرجل استبدت به نشوة النصر حتى صار يبالغ في إظهار سلطته لأوروبا نفسها. وسرعان ما صار هذا الوهم يُترجَم إلى موقف متعاظم تجاه القوى [الأجنبية]، كما يظهر في الإجراءات التضييقية التي اتخذها في حق محمييها، وما كان يريد بها أن يحد من التجاوزات المحققة التي نجمت عن الحماية، بقدر ما كان مراده ليظهر للقبائل أن المسيحيين لم يكونوا يفرضونها عليه.

ثم إن مبلغ السلطان من المعرفة بأوروبا كان زهيداً، وكانت هذه المعرفة الزهيدة تقوم على تصورات مغلوطة كان بعض الأوروبيين ممن اتصلوا به

بعد انعقاد البيعة له في مراكش يجدون مصلحتهم أن يرسخوها في ذهنه. ومع أنه كان على وعي، وإن ملتبس، بتفوق الفرنسيين، فإنه كان على اقتناع بأن جميع بلدان أوروبا على وشك أن تنهار بفعل ثقل نفقاتها العسكرية وهجومات الفوضويين.

وأما فرنسا فقد كان يعتبرها واقعة عن بكرة أبيها تحت نفوذ البرلمانيين الذين كان بعض مخبريه الأوائل يزعمون له قدرتهم على التأثير عليهم. وزادت من ترسيخ هذا الاعتقاد لديه تقارير تلك البعثة الأولى شبه الرسمية التي أرسلها إلى باريس، والتي وإن لم تحظ بالاستقبال الرسمي فإنها قد تمكنت على الأقل من إقامة علاقات موصولة بشخصيات سياسية من الذين لا يهتمون كثيراً لكرامتهم، ومنهم من لا يزالون يواظبون على عرض خدماتهم.

وانطلاقاً من هذا التصور ستصير سياسة مولاي عبد الحفيظ تقوم على التسويف والمماطلة لربح الوقت وانتظار أن تنهار أوروبا ذلك الانهيار الذي سيمكن للمغرب أن يبقى في عزلته ويطرح عنه نهائياً تلك الإصلاحات التي يراد فرضها عليه. وإنها لسياسة ثقيلة بالمخاطر، لأنها ستقضي على كل تعاون فعلي كما يتصوره الفرنسيون، وتلغي بالتالي كل إمكانية فيه للتطور السلمي، ولن يبقى معها غير العنف سبيلاً لحل المسألة المغربية.

فاس، دجنبر

بعد أن كان السلطان تلقى البعثة الفرنسية بحسن الاستقبال، وفوض إليها السلطة الكاملة لتقوم على تجهيز جيش نظامي صغير مسلح تسليحاً لائقاً وموحد الأزياء ومدرب ومؤدى الرواتب، ها إنه قد صار اليوم يعتقد أن في مقدوره الاستغناء عن هذه البعثة. فقد عاد إلى النظام القديم؛ نظام

المحلة والعصابات رثة الثياب وغير المنظمة والفاقدة لأي قيمة عسكرية والتي ليس لها في معظم الأحيان غير السلب والنهب وسيلة للعيش. غير أن مولاي عبد الحفيظ كان بذلك قد آثر جانب الكم بدل الكيف؛ فقد صار بحوزته يومذاك عشرون ألفاً من العساكر، وخيِّل إليه أن هذا الجيش يكفيه في مواجهة جميع الاحتمالات، حتى احتمالات الحرب تجمعه مع إحدى القوى الأوروبية بتقديم الدعم للقبائل المتمردة عليها.

بل إنه قد كان فكر جدياً في هذه الحرب شهوراً معدودة قبلُ. فقد أوحى إليه العصيان الذي اندلع في كاطالونيا بأن يمد العون للريفيين لدفع الإسبان عن مليلية، فيقدم بذلك للعالم لأول مرة منذ إجلاء البرتغاليين عن مدينة الجديدة في سنة 1769 مشهداً لنجاح فعلي قد أحرزه سلطان من سلاطين المغرب على المسيحيين.

وقد كان مولاي عبد الحفيظ استقبل منذ وقت قريب كذلك أحد أهم القادة الريفيين؛ جاء يطلب عونه لمحاربة الإسبان، وما رده خائباً إلا بعد أسابيع من التردد. وقد اغتنمت مقام هذه الشخصية في فاس لأستعلم منه عن طريقة أبناء جلدته في القتال، فقال لي: «إن منا كثيرين يمتلكون قربينات سريعة الطلقات، وإن بحوزة كل دشر من دشورنا مخزوناً صغيراً من هذه القربينات ليتسلح بها أولئك من أفراده الذين لا يملكونها. ولدينا كذلك قوالب للرصاص وآلات لإعادة تعبئة الخرطوش من البارود الذي نصنعه بأنفسنا إذا أعوزنا البارود المهرب. وأما ما ينقصنا فهو القدرة على تزويد عدد كاف من المقاتلين بالمؤونة والذخيرة. فلذلك صارت قواتنا لا يخرج منها اليوم للقتال إلا العشُر، ويُستبدلون كل خمسة عشر يوماً. ويفترض بنا أن نقدر على أن نضرب في وقت واحد بربع قواتنا على الأقل».

فاس، يناير 1910

لقد تراجعت شعبية السلطان كثيراً. فمنذ أن تولى الحكم، ومنذ سقوط الروكي خاصة وإدارته تقوم على قهر واستنزاف السكان من بدو ومن حضر، من دون أي مراعاة. فكانت تلك الأفعال سبباً في نشوء ظاهرة غريبة أدهشت جميع من واكبوا عن كثب الأحداث التي عرفتها هذه السنوات الأخيرة. إنه انقلاب في الرأي العام [المغربي] إلى جانب أوروبا.

لقد أسقط المغرب مولاي عبد العزيز بسبب ما أحدث من تجديدات وجاء بسلطان ليحكمه بالأساليب التقليدية. ثم لم تسفر التجربة عن نجاح النظام القديم، وإذا المغاربة حتى أبعدهم عن الانحياز إلى جانب الفرنسيين قد صاروا ينتظرون منهم أن يقوموا بما يحررهم ويلزم السلطان بنظام في الحكم يكون أقل قهراً واضطهاداً.

وكم كانت دهشتنا عظيمة ونحن نرى الأوروبي وقد صار يلقى من الحفاوة في مدينة فاس بعد ما كانت تلقاه به من عداء، وهي التي لم تبايع مولاي عبد الحفيظ، منذ ما يقرب من سنتين قبلُ، إلا باشتراطها عليه مجاهدة [المسيحيين] واسترداد الأرض التي احتلها الفرنسيون، ومنع الأوروبيين من الإقامة في المدن الداخلية، وإلغاء جميع المؤسسات ذات الطابع الأجنبي؛ من قبيل بنك الدولة وشرطة المراسي ومراقبة الجمرك والبريد والبعثات العسكرية والحماية.

فما عاد الفاسيون يجدون يومئذ غضاضة في التعامل مع الأوروبيين أو إكرائهم بيوتهم، وما عادوا يتلقونهم إلا بوجوه باشة وعبارات مجاملة بدل الشتم والسب الذي كانوا يلقونهم بهما من قبل.

وصرتَ تجد هذا التحول في الرأي العام كذلك تجاه الأوروبيين من لدن سكان البوادي. فقد كانت لي رحلة طالت بي عدة أسابيع في ناحية

قد كانت تعرضت بضعة أشهر قبلُ للنهب من عصابات بوحمارة؛ ولم تكن بعض المناطق منها قد وطأتها بعد قدمٌ لأوروبي. فكنت حيثما حللت من هذه المنطقة أجد حفاوة شديدة في الاستقبال من البدو المستائين من الضرائب الفادحة التي وقعت عليهم من المخزن؛ فصاروا يرون في الفرنسيين حماة ممكنين من تجاوزات السلطة.

غير أن هذا الترحيب من القبائل انقطع بخروجنا من المناطق الخاضعة لسلطة الحكومة الشريفة وتعدياتها. فقد ذهبت برفقة مخزنيين وبضعة فرسان من أولاد الحاج للتعرف على ملتقى [وادي] إناون و[وادي] اللبن اللذين كانت الخرائط تمثلهما يصبان مفترقين في سبو على بعد أقل من خمسة وعشرين كيلومتراً على خط مستقيم من فاس، فتلقانا ساكنو الضفة اليمنى من وادي إناون بطلقات البنادق.

وأياً ما يكن فلقد ظل السكان يتفانون سنتين قبلُ أيما تفان في كره الأجانب فما عاد عليهم إلا بصنوف الخيبات. ثم استخبروا حول ما كان يجري عند الشاوية وفي وجدة وعرفوا أن الأهالي قد صاروا هناك في مأمن من الاعتداءات، فإذا انقلاب الرأي العام إلى جانب الفرنسيين في ناحية فاس قد صار شيئاً لائحاً. بيد أن هذا الذي قلت لا يعني أن المخزن لن ينجح في إيغار صدور الأهالي من جديد بكره الفرنسيين لو رأى فيه مصلحته ولا أن الترحيب الذي يلقونه حالياً من السكان سيستمر قائماً لو تأخروا في الإتيان له بما يعززه من الأعمال التي ينتظرها منهم المغاربة.

ليس ما يمنحنا فكرة جلية عن الهيبة التي تتمتع بها الدولة الشريفة أكثر من المشاركة التي تكون للشعب في الاحتفالات الرسمية بالأعياد الدينية الكبرى. ففي هذه المناسبة يظهر السلطان لرعاياه في كامل أبهته التي تشهد له بالسيادة الدينية والدنيوية، فيهب إليه رعاياه ليتلقوا بركته. وتكون الحشود كثيرة نسبياً حسب شعبية السلطان ونجاح سياسته أو الخشية التي تكون منه في النفوس.

ومع أن العيد الصغير، أو عيد الفطر، الذي يلي شهر رمضان، والذي وقع الاحتفال به في أكتوبر الذي قبل، بعد شهرين من القبض على الروكي قد كان باعتراف جميع من حضره أبدع ما شاهد الناس من احتفالات في فاس منذ وقت طويل. فقد شاركت فيه سائر القبائل في ما عدا زمور وكروان، وكثير من قبائل الحوز، وقدرت المبالغ التي دخلت بيت المال في هذه المناسبة بعدة ملايين.

وأما العيد الكبير، وهو عيد الأضحية، الذي وقع الاحتفال به في شهر دجنبر، فقد كان فشلاً ذريعاً، وربما يعود السبب فيه إلى التسريح الذي وقع في معظم قياد الحوز وقوادهم، ويعود خاصة إلى المشاركة الضعيفة جداً التي كانت من سكان العاصمة وقبائل الغرب فيه.

وكان الاحتفال بعيد المولد، وهو عيد مولد الرسول، الذي حضرته مؤخراً، مشهداً بديعاً؛ زاد من نجاحه المناخ الساحرُ الذي كان فيه. ولئن شارك الفاسيون وشاركت قبائل ناحية فاس في الاحتفال بهذا العيد بأعداد أكبر مما كان منهم في العيد الكبير، فإن حشودهم فيه كانت أقل بكثير من تلك التي حضرت في العيد الصغير.

ولا أجد تفسيراً لهذا الانقلاب إلا في سياسة جديدة، وهي سياسة دينية صراح صار إليها السلطان وقتذاك. فهو بعد أن حارب نفوذ الشرفاء ورؤساء الزوايا، صار يرى أنه لم يعد له من القوة ما يُقدِره على الاستغناء عنهم، فصار يومئذ يُغدِق عليهم من اللطف والرعاية، ويقرب إليه القادة العسكريين الذين تميزوا في مجاهدة الفرنسيين في الشاوية. ثم أطلق على أحد أبنائه، قيل يومها إنه معسكِر في مشرع الشعير، لقب «المجاهد»، وزاد مولاي عبد الحفيظ نفسُه إلى ألقابه الكثيرة لقب «الغازي»...

***

استشعرت خلال الأشهر الثلاثة التي بعدُ اقتراب الأزمة التي يمكن أن تجعل لأعمالي بعض قيمة، مما دفعٍ بي إلى التعجيل بإنجاز رسوماتي الجغرافية، فلم أمكث في فاس إلا قليلا. وبقيت الأوضاع في تلك الأثناء متوترة لم يُجد فيها التوقيع على الاتفاق الفرنسي المغربي. والشخص الوحيد بين أفراد المخزن الذي كنا لا نزال على علاقات طيبة، بله ودية به كان هو سي عيسى بن عمر وزير العلاقات الخارجية. وقد صار لذلك يلقى الضغينةِ والكره من الوزير الصدر الكلاوي، ثم لم يلبث أن أقيل من منصبه وأُجبِر على مغادرة العاصمة. وأسنِدت بعده قيادة عبدة إلى ولده سي أحمد مقابل مبلغ مالي عظيم.

ولقد سعيت أواخر شهر ماي في الحصول من السلطان على حوار لصحيفة «**الطان**» وطلبت مقابلته. فأجابني إلى ذلك اللقاء دون تأخير واستقبلني في بوجلود في جناح تكنُفه الأشجار المزهرة كان احتضن في السنة التي قبلُ مفاوضاته مع السيد رينو. وقد حصلت على ترخيص من السلطان بالتحدث إليه بكل صراحة، فقلت له إني كنت عند مجيئي إلى فاس على اقتناع من أن ما بينه وبيننا لا يعدو أن يكون سوء تفاهم

لا يلبث أن يزول، لكنني صرت بعد ستة أشهر قضيتها في عاصمته على اقتناع من معاداته لكل تعاون مع فرنسا، وقد ساءني كثيراً أن أجد نفسي مضطراً للتعبير عن هذه القناعة في مراسلاتي إلى صحيفة «الطان». فقاطعني بقوله :

- إنك لمخطئ! ولتعلم جيداً، ثم أحسن نقل كلامي إلى صحيفة «الطان»، أنني راغب بكل صدق في السير يداً في يد مع فرنسا، لكن من حولي أناساً أشراراً يجدون مصلحتهم في تعكير صفو علاقاتي مع الحكومة الفرنسية. وقد أخطأت الصحافة في حقي كثيراً؛ إذ صورتني في صورة العدو اللدود للأوروبيين وللإصلاحات، ورمتني بأسوإ الشرور، وهي لا تفتأ تنتقد أسلوبي في الحكم. ومع ذلك - وأنت مؤهل حقاً لتشهد على ما أقول - فقد كانت نتيجة هذا الأسلوب أن استتب النظام، ولم يسبق للأوروبين في المغرب على عهد سلفي أن وجدوا قط من الاعتبار والأمن قدر ما ينعمون به اليوم».

ثم انتقلت بالحديث إلى السياسة فذكرته بالوضعية التي جعلت لبعثتنا العسكرية، ومطاعننا في بعض قياد الغرب، واستدعائه المندوب الشريف في مراقبة الجمرك طنجة، والعراقيل التي واجهت أعمال لجنة المطالب وتأخير رحيل المندوب السامي الشريف إلى الحدود الجزائرية المغربية. فرد السلطان بحدة :

- «هذه التهم مردودة لا تقوم على أساس. فأنا أقدر الخدمات التي تقدمها لي بعثتكم العسكرية حق قدرها، وأعاملها حسب ما تسمح لي الأوضاع. وأما مسألة قياد الغرب فستتم تسويتها في أقرب الأوقات بما يسركم ويرضيكم. وإذا كنت استدعيت الحاج إدريس بن جلون من طنجة فليس بغرض الحيلولة دون تنظيم مراقبة الرهون، بل استدعيته

لأسباب شخصية خالصة. وأما أفراد لجنة المطالب فإنهم جميعاً في طنجة حيث لا ينتظرون للشروع في أعمالهم إلا وصول الحاج محمد المقري الذي تعطلونه في باريس منذ عام وزيادة. وأما الحاج عبد السلام بن عبد الصادق فقد غادر فاساً اليوم للالتحاق بمنصب المندوب السامي الشريف للحدود. وقد كلفت فضلاً عن ذلك سفيري في باريس بأن يتقدم إلى حكومتكم بتصريحات لن تدع كما أؤمل من شك بشأن مشاعري».

فلم يبق لي إلا أن أنحني وأشكر للسلطان استقباله الكريم، ومع احتفاظي بحريتي في التقرير في شأن أعمال حكومته، إلا أنني أعربت له عن السعادة التي سأجدها في أن تمكن لي أعماله في المستقبل ألا أرسل إلى صحيفة «**الطان**» بغير الأخبار السارة. فرد قائلاً :

- إن شاء الله! وكن على يقين أنك لو اضطُرِرت إلى أن تراسلها بسيء الأخبار فلن أكون أنا السبب فيها».

ثم عاد السلطان شهراً بعدُ فخصني بلقاء آخر طلبته منه لأودعه وأشكره على أن يسّر لي جولاتي في ناحية فاس. فوجدته متأثراً غاية التأثر بنبإ الاستفهام الذي جاءه من مجلسِ العموم في موضوع التعذيب الذي راج أنه أنزله بالباشا السابق على مكناس، الحاج بن عيسى، وبزوجته لالة البتول، حتى قيل إنهما هلكا في ذلك التعذيب.

فقال لي السلطان :

- «إن هذه القصة ملفقة من كل الوجوه؛ وهي عينة من الدسائس التي حدثتك عنها في ذلك اليوم، وعينة من تلك المؤامرات التي يحكيها أعدائي مرادهم منها تشويه صورتي عند الرأي العام الأوروبي».

ودعاني أن أصحبه إلى سجن الدكاكن؛ حيث سأرى الحاج عمراً بن عيسى، وأن يأتيني بلالة البتول من مكناس. وقد رأيت الباشا مكبل

القدمين في زنزانة كريهة تعج قذارة وهو في أسوإ حال، لكنه لا يزال بعدُ على قيد الحياة. وأما زوجته فقد فحصتها نساء من البعثة الطبية الأنجليزية فوجدت بها ورماً بليغاً ووجدنها تشكو ألماً شديداً في كتفها الأيمن، ووجدن رضوضاً كثيرة على ذراعيها تدل دون شك على أنها قد كبلت وعلّقت من معصميها لإجبارها على الإفشاء بما يكتم زوجها المتهم بالتآمر مع البربر.

وقد رجوتُ السلطان أن يطلق سراح السجينين. فأجابني من فوره إلى الإفراج عن لالة البتول. وأما الحاج بن عيسى فقد وعدني بأن يزيل عنه أغلاله ويخفف من محبسه وأن يطلق سراحه ما أن تسمح الظروف السياسية. وقد وفى السلطان بهذا الوعد أيضاً.

وفي 10 يوليوز عدت مجدداً إلى فرنسا، في طقس حار قد بلغت حرارته 50 درجة تحت الظل.

القصر، 14 يوليوز

أمضيت أربعة أيام في مسير بطيء على ظهر جوادي تحت شمس حارقة في البادية بين فاس والقصر التي تستحيل في تلك الفترة من السنة صحراء ماحلة. وسرت أربعة أيام ظللت خلالها في مشهد رتيب من هضاب متصحرة لم يحد من رتابتها غير فجوات ومجازات تلوح من بعيد من وادي سبو ووادي ورغة أو فتحات ومنافذ ترى من جنبات زرهون المشجرة وصنوبر سلفات وهضبة كورت.

وفي اليوم الخامس ولجنا، ونحن على مشارف وادي لوكوس الأراضي الداخلة تحت نفوذ الريسولي والتي تمتد حتى مشارف طنجة، ووصلنا القصر في وقت الاحتفال بالعيد الكبير. ثم اتخذت مكاني من حول المائدة الباذخة التي أقامها العون القنصلي الفرنسي الحفي الودود السيد بواسي.

نصبت خيامي في حديقة على أبواب المدينة حيث نزلت ضيفاً على الريسولي الشهير، وقد حصلت على حصتي من المونة التي يحوزها بالطرق غير المشروعة؛ وكانت مونة باذخة اشتملت على خروف وست دجاجات واثنتي عشرة خبزة وعلبة شاي وقالب سكر وقدر من الزبدة وطبق كبير من الخضر والفواكه وعلبة من الشمع وطبق من الفحم وشحنة من الشعير لإطعام دوابي. فلا يمكن للقارئ أن يتوقع مني منطقياً أن أذكره بكثير من السوء...!!

ثم ذهبت لزيارته. وهو رجل عظيم الهيأة يميل بملامحه إلى الخشونة لكنها ملامح توحي بحيوية صاحبها، وتحف بوجهه لحية سوداء كثة مشعثة. وقد جدته يهم بركوب جواده للذهاب للقاء المقري العائد من باريس؛ إذ جاء من يخبره أنه كان يسلك طريق العرائش، فلم أستطع أن أحصل منه على تصريح ذي بال، إلا قوله إن فرنسا بلد عظيم وإن باريس أجمل مدينة في العالم، وإنه يكفي المرء أن يكون فرنسياً ليتبوأ مكاناً في قلبه. ومن الواضح أن الريسولي خبير بالنفوس؛ وهو يعرف نقائصنا ويعرف كيف يعاملنا.

وقطعت مرحلتين صغيرتين أخريين نقلتاني من القصر إلى طنجة. وبعد ثمانية أيام قفلت عائداً إلى باريس.

الفصل الثامن عشر

ذكريات شخصية (1911)

عدت في نونبر 1910 إلى طنجة. وقد صارت الطريق المباشرة من فاس إلى القصر متعذرة الاستعمال بفعل ما تهاطل عليها من الأمطار المتواصلة فلم أجد بداً من سلوك سبيل الشتاء، وهي إن تكن أطول من السبيل الأولى فإنها إذ تمتد على الساحل حتى لوكوس ستمكنني من التعريج على أصيلا والعرائش. فالتقيت في الأولى قنصل إسبانيا وقائد طابور الشرطة في العرائش، اللذين جاءا ليدشنا هناك مدرسة ومستوصفاً. وأما العرائش فقد صار فيها النفوذ الإسباني واضحاً جلياً، وصار يعمها نشاط غير هين بفعل الأعمال التي شرعت تباشرها الشركة الألمانية صاحبة الامتياز في المرسى.

ثم راق الجو، وظل كذلك منذ أن بارحت طنجة، ولذلك عن لي بعد خروجي من العرائش أن أتحول إلى سبيل الصيف عند عرباوة. فلما مررنا على مقربة من القصر رأينا عند سفح جبل أهل سريف معسكر الريسولي وهو يقوم بتأديب بقايا أنصار عدوه اللدود القايد الرميقي. فلما اجتزنا ورغة ثم سبو دخلنا أراضي الشراردة، وقد كان يعمها وقتها الهياج على المخزن. وجاءت محلة شريفة لتأديبها فكانت تعسكر في سوق الاثنين بقرب خنق زكوطة. فلما أدركنا المساء حططنا رحالنا في نزالة بني عمار وسمعنا مدفعها يعلن عن صلاة المغرب. وفي مساء اليوم الذي بعد وصلنا إلى فاس.

لم أُقِم في المدينة إلا الوقت اللازم لي للاستعلام عن الأوضاع. فوجدتها ساءت كثيراً. فقد صارت القبائل وقد بلغ بها اليأس مداه من المعاملة التي تلقاها من المخزن؛ فهي تميل إلى الاتحاد عليه. وحل العيد الكبير في شهر دجنبر فكان أتعس من سابقه، وما أنقذ الأمور إلا مشاركة القوات الشريفة التي تولتها البعثة العسكرية الفرنسية وأعادت تجهيزها من جديد.

وتنبه السلطان من أوهامه فصار يسعى بكل الوسائل إلى التقرب من الفرنسيين ويترقب في قلق نتيجة المفاوضات المالية لسفيره في باريس. وقد خصني بلقاء في 24 دجنبر فألفيته لا يريد الإقرار بخطورة الأوضاع في المغرب. لكنه ذكر لي القائد مانجان ومعاونيه بكل الإشادة. وزاد قائلاً:

- إنني عاقد العزم على الإفادة من مساعدتهم القيمة لأواصل إعادة تنظيم جيشي الذي هو أساس لكل إصلاح إداري وضريبي في هذه البلاد. وسوف أنجح إن شاء الله وأرادت فرنسا حقاً أن تعينني عليه».

كان الرأي العام المغربي المعادي للمخزن قد بقي منحاشاً إلى جانبنا. وكان القنصل الفرنسي يتمتع بنفوذ كبير وكانت البعثة العسكرية تحظى بالشعبية بدءاً من قائدها وحتى آخر عريف جزائري ضارب للطبل وكان المستشفى الفرنسي لا يفرغ أبداً، وإذا المدرسة الفرنسية العربية التي أقيمت في يناير 1910 وكان مبتدؤها بـ 18 تلميذاً، قد صارت في أواخر تلك السنة تضم 80 تلميذاً جميعهم من أبناء الشرفاء والتجار الكبار فيما لا يزيد أبناء المحميين لفرنسا بينهم عن 14 تليمذاً. وكان الأهالي يستعجلوننا في ما يجمعنا بهم من أحاديث خاصة في تأديب المخزن.

غير أن عاصفة كانت تنذر بالانفجار. فكنت أتعجل الذهاب لرؤية ما كان يحدث في الجنوب، ووضع خريطة لناحية مراكش، بعد أن صارت الخريطة التي وضعتها لفاس قيد الطبع.

ثم خرجت من فاس في أواخر يناير 1911، وظللت حتى مكناس لا أرى شيئاً غير مألوف. حتى إذا تجاوزت عن هذه المدينة لم يعد في مقدوري المرور بزمور ولا بكروان ولا بالشراردة؛ إذ كانوا جميعاً في عصيان وإن لم يسفروا عنه. فتسللنا بين القبيلتين الأخيرتين وجئنا إلى سهل بني حسن مروراً بأولاد نصير الذين لا يزالون مطيعين وغنامة. زيادة على أن هذه القبائل كانت قد تعرضت للإغارة من عصابات اللصوص. ومررنا هناك بقرب دوار قد نهب فريق من كروان منذ وقت قريب قطعاناً له. فلما تجاوزناه التقينا حشداً من قطاع الطرق فتعقبونا طوال كيلومترات؛ وهم لم يسيروا في أعقابنا ليصيبوا مغامرات أنفع لهم وأسلم إلا بعد أن حسبوا حساباً لما سيجنون من فوائد وتنزل بهم من خسائر من التعرض لقافلتنا الصغيرة. وكنا في كل الدواوير التي نزلنا بها، وصولاً إلى المهدية، يقوم نصف الساكنة من الذكور على حماية دوابنا؛ فكانت تلك الليالي تتخللها طلقات البنادق على لصوص حقيقيين أو وهميين.

وبلغت في اليوم السابع الرباط؛ حيث أمكنني أن ألاحظ صور التقدم الذي تحقق للنفوذ الفرنسي بفضل جالية فرنسية نشيطة قد أصبحت كثيرة العدد، يتولاها قنصل ذو كفاءة عالية؛ هو السيد لوريش، وكذلك بفضل طابور شرطة يتولاه ضباط فرنسيون، وبفضل مستوصف الدكتور مورات ومدرسة فرنسية عربية من 70 تلميذاً. وقد علمت إذ أنا في الرباط بالفتنة التي نشبت في مغشوش لدى زعير خمسة عشر يوماً قبلُ، وبقيت من غير عقاب لقلة عدد الجنود الفرنسيين الذين في الشاوية.

توقفنا ليومين، ثم عاودنا الرحيل إلى الدار البيضاء. فلما بلغنا الصخيرات رأينا التجريدة الصغيرة الأولى من الجنود الفرنسيين. ثم طالعنا من فوق قصبة بوزنيقة العلم الفرنسي. فنصبنا خيامنا في ذلك

المكان. وقد صرت من هناك وحتى الجسر النقال في مشرع بن عبو، عند تخوم الرحامنة، أدرك في كل خطوة أخطوها عِظَم العمل الذي أنجزه جنودنا تحت قيادة الجنرال داماد أولاً، ثم تحت قيادة الجنرال موانيي.

وفي مساء اليوم الذي بعد لاحت لنا، وقد شارفنا على نهاية تلك الرحلة، مدينة الدار البيضاء مترامية الأطراف يكنفها البياض على خلفية زرقاء يكونها مرساها؛ حيث تتحرك عشر سفن تعلوها أصناف من الأعلام... لقد نبتت البنايات الجديدة في كل الأرجاء حتى اكتسحت الضاحية، ولم تكد تسمح لي بالاهتداء إلى السبل التي كانت مألوفة لديّ عشر سنين قبل.

الدار البيضاء، فبراير 1911

قضيت خمسة عشر يوماً في الدار البيضاء. ويمكنني أن ألخص الوضعية التي وجدتها عليها كما يلي : لقد أنجِز الشيء الكثير، لكن لا تزال الحاجة في إنجاز المزيد. والحال أنه لم يعد يوجد شيء من المال، وصار عمل الفرنسيين مشلولاً بالاعتبارات ذات الطابع السياسي.

عدت من جولاتي ومحادثاتي مع السكان الأهالي مشبعاً بانطباع واضح ليس يشوبه شك بأن الشاوية راضون عن الوضعية التي صارت لهم من الاحتلال. لن أذهب إلى حد القول إنهم يشعرون نحو الفرنسيين بالجميل، بل حسبي القول إنهم مدركون أن الفرنسيين انتشلوهم من الفوضى والبؤس وإن الفضل يعود إلى وجودهم في ما صاروا ينعمون به من أمن ورفاهية. وإنني لعلى اقتناع من أنهم، في ما خلا بعض العناصر المشاغبة، يقبلون بالنظام الحالي من غير تحفظ، وأنهم يعولون على الفرنسيين لإطالة أمده، بل وسيكونون عند الاقتضاء على استعداد للقتال إلى جانب الفرنسيين للذود عنه.

لكن هذه الصورة لم تكن تخلو من بقع سوداء؛ متمثلة في الحماية [القنصلية] والتعسفات التي تنجم عنها والفوضى التي تسود المعاملات العقارية وتبديد أملاك الدولة وأملاك الحبوس.

وأما الجاليات الأوروبية فقد صارت بمختلف مكوناتها تزداد بمضي الأيام التجاء إلى الفرنسيين ليدافعوا عن مصالحها؛ وصارت تجمعها بجنود الاحتلال الفرنسي علاقات طيبة، وما عاد وجود - إلا ربما عند بعض الأفراد المنعزلين - للعداء الدفين الذي كان الفرنسيون يجدونه منها ثلاثة أعوام قبل. وقد جمعتني محادثات ببعض التجار الفرنسيين والأنجليز والألمان والإسبان، فوجدتهم جميعاً يشتكون بطء الأشغال في المرسى وانعدام المستودعات وما ينجم عنه من ازدحام الأزقة بالسلع. فكانت تظلماتهم أفضل دليل على النمو الاقتصادي الهائل الذي تحقق للدار البيضاء وإنهم ليقرون جميعاً بالحسنات المادية التي جاء بها الاحتلال الفرنسي والمتمثلة في استتباب النظام و[عودة] الهيبة الأوروبية وتيسير المعاملات مع المناطق الداخلية من البلاد وتأمينها وإمكانية شراء الأوروبيين للأراضي بقصد البناء، إلخ. وإنني لعلى اقتناع من أنهم جميعاً يصدقون في سرائرهم على ما قال لي أحد أفراد الجالية الأنجليزية : «إن خروج [الفرنسيين] اليوم من الشاوية سيكون جنوناً وإجراماً!».

قضيت ثلاثة أسابيع في الدار البيضاء وفي جولات في الشاوية، عاودت الرحيل بعدها إلى مراكش، لأصلها من غير معيقات في أوائل شهر مارس. فجعلت أنظم فيها عملي كما كان دأبي إذ أنا في فاس؛ فكنت أقضي بين ثمانية أيام وخمسة عشر يوماً أتعرف على المجال المربع الذي يحده من الشرق والغرب خط تاملالت-سيدي رحال ووادي نفيس ومن الشمال والجنوب الجبيلات وسفح الأطلس. ونعمت خلال تلك الجولات بالراحة

بضعة أيام في مراكش في جناح مريح داخل ما يشبه البارادو الحقيقي قد هيأه لي صديقي الفاضل الدكتور كيشار الذي خلَف [الدكتور] موشام.

مراكش، ماي

قضيت شهرين أجوب ناحية مراكش. ولم أستغرب أن علمت هناك بالأحداث الخطيرة التي كانت تجري في تلك الأثناء في ناحية فاس. لكنها ظلت إلى ذلك الحين دون أن تؤثر بشيء على الحوز؛ حيث ظل البدو منهمكين في أعمال الحصاد لا يشغلهم عنه شاغل. بيد أن عامل الفتنة التي نجم عنها العصيان في الشمال كان له وجود كذلك في الجنوب أريد به السخط الناجم عن جشع كلاوة الذين صارت لهم اليوم السيادة المطلقة على جنوب المغرب.

كان الحوز حين تولي مولاي عبد الحفيظ بين أيدي خمسة من القياد العظام؛ بينهم الوزير الصدر سي المدني الكلاوي. وقد اختفى اليوم اثنان من هؤلاء القياد الخمسة من معترك السياسة وانحط ما كان من سلطة بأيدي اثنين آخرين منهم انحطاطاً لا يجعل سبيلاً إلى مقارنتها بالسلطة التي هي اليوم بيد الوزير الصدر وزمرته.

فأما سي عيسى بن عمر الذي كان يحكم عبدة واحمر ويمتد نفوذه إلى قسم من دكالة والرحامنة، فقد صار يعيش خامل الذكر في فاس بعد أن زال عنه ما كان له من حظوة. وتوفي سي أحمد أنفلوس وما عاد ولده معدوداً بين قياد حاحا الثلاثة. وأبعِد سي الطيب الكندافي عن مناصب المخزن وبات محاصراً داخل قلعته المنيعة في الجبال. وآخر هؤلاء هو سي عبد المالك المتوكي الذي بعد أن كان نفوذه يمتد من تانسيفت إلى الجناح الجنوبي من الأطلس ومن مشارف مراكش حتى بعض المواضع من الصويرة، إذا سلطانه قد صار اليوم لا يزيد عن قبيلته الأصلية وخمس

قبائل صغيرة مجاورة موزعة بين السهل والأطلس، وصار يتظاهر بأنه يقنع بدور التابع لذلك الذي جرده من منطقة نفوذه.

واتسعت سلطة كلاوة حتى صارت تشمل يومئذ معظم الحوز وتمتد من الأطلس إلى أقصى سوس فالنواحي النائية من وادي درعة. وقد استأثر الوزير الصدر لنفسه بالقيادة الأبوية على كلاوة، وعلى مسفيوة وهي أخصب الأراضي، وعلى تكانة التي يسوسها بعض الخلايف.

وأما أخوه الحاج التهامي، باشا مراكش، فيحكم آيت إيمور وأولاد دليم والمنابهة وتيكنة ومجاط وكدميوة ومزوضة. وله أخ آخر هو سي حسي الذي قام الجنرال داماد بطرده من أزمور، وهو اليوم قايد على سكساوة وغيغاية. وله أخ رابع هو سي علال وهو عامل على دمنات وفطواكة.

وسائر القبائل الصغيرة، التي يزعَم لها أنها مستقلة، والمشمولة بهذا النطاق الشاسع؛ وهي سكتانة وأكركور ووزكيتة وأوريكا وزمران والأوداية وحربيل وأولاد بو السبع، إلخ.، تدخل تحت نفوذ كلاوة ليس لها سبيل إلى الخروج عنه. وسائر ما بقي من الحوز ودكالة وعبدة والرحامنة والسراغنة واحمر وحاحا والشياظمة تتوزعه قيادات كثيرة تخضع لأوامر الوزير الصدر أكثر من خضوعها لأوامر السلطان. ولاأهمية بين هؤلاء القياد الصغار لغير اثنين : القايد العيادي الذي يحكم نصف الرحامنة، وسي محبوب أحد المقربين إلى مولاي عبد الحفيظ وهو حديث تعيين في قيادة احمر.

وأما مولاي بوبكر، أخو السلطان وخليفته على الحوز، فليس له من شأن، ويمكن للمرء أن يمضي شهوراً في مراكش من دون أن ينتبه إلى وجوده. فالحاج التهامي فيه مطلق السلطة؛ إنه خليفة السلطان الحقيقي على الحوز يسوسه في صورة طاغية شرقي حقيقي. لكن من أسف أن كل همه، على غرار أخيه الوزير الصدر، إنما هو الإثراء الخاص. وعلى الرغم

من الاحتياجات الشديدة التي يعاني منها المخزن فلا أراني أبالغ إن قلت إن ثلثي المبالغ التي يحصلها الكلاوي تحول إلى قصبتي تلوات وأغبالو في الأطلس بدلا من أن تأخذ طريقها إلى فاس.

***

إن هذه الصورة التي كانت عليها الوضعية في شهر ماي قد تبدلت كثيراً في الشهر الذي بعده. فقد أفاد مولاي عبد الحفيظ من وجود الجنود الفرنسيين في فاس ليخلع وزيره الصدر ثقيل الظل ويستبدل باشا مراكش بأحد أصدقاء طفولته؛ ذلك هو سي دريس بن منّو، ابن أحد قياد الرحا في جيش مولاي الحسن. وقد كانت هذه الحركة إذ تصدر عن سلطان يوجد في ضيق شديد، وكان هذا النَّفَس الضعيف ينفخه ولو من بعيد، كافيين لزعزعة صرح سلطة كلاوة مهما بدا حصيناً منيعاً؛ ذلك الصرح الذي لم يقم على رضا القبائل، بل قام أساساً على التنصيب المخزني. وإذا معظم القبائل التي ظلت إلى ذلك اليوم خاضعة مطيعة قد هبت لكسر النير والخروج عن الطوق. وإذا المتوكي، الذي لبث مترصداً قد هب لاغتنام تلك الأحداث، وسرعان ما صار لنفوذه الغلبة في الحوز.

عاودت أثناء ذلك الرحيل، في 10 يونيو أو نحوه، إلى الشمال، ورافقني حتى مشرع بن عبو السيد لادرايت دي لاشاريير الذي تعرفت عليه في مراكش عند عودته من رحلة كانت له في سوس، بعد أن كنت عرفته من مقالاته التي كان يبعث بها إلى صحيفة «**الطان**» في سنة 1910 متناولاً فيها شؤون الدار البيضاء والشاوية. ووصلت إلى الرباط في 18 [يونيو]. ثم لم ألبث أن تركتها في 20 منه إلى مكناس التي كانت قد وقعت من بعد فاس في قبضة الجنرال موانيي. وسأقتصر فيما يلي على إجمال الملاحظات التي دونتها في مفكرتي.

المهدية، 20 يونيو 1911

تركت هذا الصباحَ معسكر دار بلعروسي في رفقة الجنرال ديت قائد منطقة الرباط-المهدية. وسار يخفرنا رتل توپان الذي وقع فيه في اليوم الذي قبلُ لدى خروجه من المهدية قتيلان وعشرة جرحى بينهم ضابطان. فلما صرنا على بعد 12 كيلومتراً من سلا رأينا في عرض الطريق جثة لرجل مغربي. وتبادل الكوم الذين يحمون ميمنتنا الطلقات مع بعض الفرسان البدو، فلم يستطع هؤلاء صموداً، وأضرموا النار انتقاماً في المحاصيل وهي بعدُ على عروشها، فأقاموا بين رتلنا وغابة المعمورة ستاراً هائلاً من النيران.

وفي الساعة الثانية بعد الزوال بلغنا قصبة المهدية القائمة عند مصب نهر سبو، وهي قاعدة العمليات، وقد كانت توجد فيها في تلك اللحظة سبع عشرة سرية من سلاح المدفعية والخيالة والهندسة العسكرية والخدمات. ووجدنا في الوادي ثلاث سفن بخارية صغيرة وأربعاً راسية بينها «الدوشايلا». وقد جمعني العشاء عند الجنرال ديت بقائد الأركان الحربية لديه داكوت، ففاجأني، هو الذي لم يكن مر على نزوله إلى البر وقت يسير، بسعة معرفته بالمغرب، وما كان يصدر عنه من سديد الأفكار عن الناس والأمور في هذا البلد.

مولاي إدريس، 25 يونيو

غادرنا المهدية في 21 [يونيو] في موكب من نحو ألف جمل ومآت من العربات والدواب وفي خفر من كتيبتين من سلاح المدفعية والخيالة. ثم بلغنا مولاي إدريس، قاطعين إليه خمس مراحل هي سيدي عياش ولالة يطو وسيدي كدار وباب تيوكة والحاج عياد وخنق زكوطة. خمس مراحل جهنمية عبر سهل بني حسن المحروق وهضاب الشراردة الجرداء الغاص

معظمها بضبابة من الغبار الكثيف والذباب والبراغيث والبعوض، ناهيك عن زمور الذين جعلوا يرشدون فرساننا على بعد بضع مئات من الأمتار خلال سبيل قد غصت في هذا الموضع بجثث البهائم «النتنة» لا يعسر على الأعمى أن يهتدي فيها إلى طريقه.

وجاء قايد ناحية مولاي إدريس وأعيانها لتقديم أنفسهم إلى الكولونيل قائد الموكب وليدعونا إلى احتساء الشاي. وها إن الفرصة قد واتتني بعد لأي لأدخل هذه المدينة التي ما أكثر ما طفت من حولها. وإذا السكان قد بادروا إلى اغتنام هذا الانتهاك الذي وقع على مدينتهم؛ فتلقونا باشين وصاروا يجرون المعاملات المربحة مع جنودنا بما يبيعونهم من فواكه وخضر ودجاج وبيض.

عين بوقبة، 26 يونيو

رفعنا خيامنا مع بزوغ النهار. ووصلنا مكناس في منتصف النهار. وهناك علمت أن الجنرال موانيي قد خرج في ذلك الصباح إلى الحاجب لكن كان لا يزال بمكنتي أن ألحق بالكوم من جلفة ومن الغوات، وهم الذين بدأوا بالتحرك وكان سربهم لا يزال يظهر ناحية الجنوب. فغددنا في سيرنا للحاق بهم، فما تمنَّع جوادي وسرعان مع عرفت السبب؛ فقد كان أولئك الكوم يركبون جميعاً أفراساً وأما أنا فقد كنت أمتطي جواداً فحلاً. ولذلك سأظل أتذكر هذه المرحلة الإضافية الصغيرة.

وجدنا الجنرال موانيي برفقة أرتال دالبيي وبرولار وكورو في عين بوقبة في منتصف الطريق بين مكناس والحاجب.

الحاجب، 26 يونيو

في اليوم الذي قبل أمكننا، بعد مرحلة لا تزيد عن خمسة عشر كيلومتراً، أن نرتقي مدرج بني مطير بمغاراته وكهوفه ومياهه المصطخبة فبلغنا الحاجب الذي احتلت قصبته في تلك الأثناء حاميةٌ من 1.200 عسكري من قوات المخزن تحت قيادة القايد إبراهيم بوعودة أحد أفضل مقاتلي المخزن وأكثر أصدقائنا وفاء واستقامة.

اليوم يوم استراحة. وقد جاء خمسة من جملة قياد بني مطير العشرة ليقوموا بالتركيبة (بالكاف المعجمة). فمنحهم الجنرال موانيي الأمان لكنه أمرهم أن يذهبوا لتقديم الطاعة إلى السلطان في فاس. وجلسنا للعشاء عنده وكان معنا رئيس هيأة الأركان لديه القائد دوكان ورئيس مصلحة الاستخبارات لديه القائد سيمون، تحت خيمة حربية لم تكد تتسع لنا. ولقد انزعجت من التوقير - لا أجد كلمة أخرى أصفه بها - الذي كان يسألني به الجنرال آرائي. وقد علم أني سأتوجه في اليوم الذي بعد إلى فاس، فقال لي إنني سأقدم له معروفاً لو رافقت بني مطير الذين سيتوجهون إليها. ثم تحدثنا عن الاحتلال الروماني وعن فيالق سويتينيوس پاولينوس التي خرجت من وليلي، ولا يبعد أن تكون مرت بهذا المكان في محاولتها غزو الأطلس.

راس الما، 29 يونيو

رحلت في حشد بني مطير ومائة من البغال يقودها 12 من جنود المخزن تحت إمرة الرقيب ماكين. وقد امتد بنا المسير ثماني ساعات في أرض معظمها صعب عسير، وفي ريح شرقية جنوبية خانقة وحرارة لاشك أنها تجاوزت 60° تحت الشمس، وصلنا بعدها إلى راس الما، منبع وادي فاس على بعد اثني عشر كيلومتراً من العاصمة.

وبينما كان يجري إنزال الأحمال عن الدواب، سارعت نحو المغارة الباردة الظليلة التي ينبثق منها ذلك النبع ولازمتها بقية النهار. وفي حوالي الساعة السادسة جاءني ماكين يخبرني بأن بني مطير قد قرروا بعد مشاورات طويلة بينهم، أن يعودوا أدراجهم إلى مواطنهم. فسارعت إلى ارتداء ثيابي وقصدت جاري في الخيمة القايد عقا الحرزلاوي فوجدت عنده الشيخ بوعزة الملواني.

- علمت أنك تريد أن تدخل في السيبة؟ أنت الذي وعدت الجنرال بأنك ستذهب لتقديم الطاعة إلى السلطان، وقد كنت أحسب البربر صادقي الوعود.

- نحن كذلك، لكن إخواني لم يعودوا يرغبون في الحديث في هذا الأمر. إنهم يخافون أن يلقوا من مولاي عبد الحفيظ كمثل ما لقي منه عقا البويدماني.

- ألستم رؤساءهم؟

- بلى، بشرط أن نمضي بهم إلى حيث يريدون.

- إنني أضمن لك أنهم لن يروا مكروهاً إن هم ذهبوا إلى فاس.

- إنهم مقتنعون بالعكس.

- إذا كان الأمر كذلك فأنا أعرض أن أبقى رهينة في راس الما تحت حراسة يتولاها قسم من رجالكم، فيما ستتوجهون إلى فاس برسالة من قنصلنا.

وقد أعاد هذا الاقتراح الثقة إلى النفوس، ثم كانت محادثات جديدة. وفي حوالي منتصف الليل جاءني القايد عقا ليعلن لي أن بني مطير سيرحلون معي غداً إلى فاس.

فاس، 30 يونيو

غادرنا راس الما في السادسة صباحاً، وجئنا إلى فاس في حوالي السادسة مساء. وقد توسط السيد كايار لدى السلطان فاستقبل بني مطير ومنحهم الأمان.

وفي 10 يوليوز استُدعيت إلى القصر، فأدلى إليَّ السلطان بالتصريحات التالية، التي اقتصرت على تدوينها ولم أكد أزيد عليها كما سمعتها منه وظهرت في عدد صحيفة «**الطان**» ليوم 20 يوليوز :

«إنني أعرب عن امتناني العميق لما قامت به فرنسا من أجلي. لقد كنت في ضيق وناديت عليها لتنجدني فلبت ندائي وجاء جنودها لتخليصي. وكان لي في السيد كايار المعين الحازم في أوقات الحرج. ولن أنسى أبداً أن بفضل نصائحه الحكيمة وبفضل الحمية التي تميزت بها البعثة العسكرية وبفضل الوصول المبارك للجنرال موانيي قد أبقيَ لي علي عرشي، وربما على حياتي.

«إنني لم أوجه أي دعوة إلى إسبانيا، ولذلك فأنا أحتج على تدخلها الذي لا أرى له مسوغاً أو مبرراً. وأما إرسال سفينة حربية ألمانية إلى أكادير فلا أجد ما أفسره به. إنني أعلم أن كثيراً من الرعايا الألمان قد صاروا يجوبون منطقة سوس ويقومون فيها بنشاط كبير ليخلقوا لهم فيها مصالح اقتصادية. غير أنني لا أعرف أنهم قد تعرضوا هناك للإزعاج.

«أعلم أن محادثات تجري في هذا الموضوع بين باريس وبرلين. وإنني أفوض أمري إلى فرنسا لتصون لي حقوقي التي يقررها ميثاق الخزيرات وهو الميثاق الذي أظل متشبثاً به بقوة.

«لقد عاد الأمن إلى فاس بفضل الجنرال موانيي، وأمكن التخلص أخيراً من التهديد الدائم بالعصيان. وسيصير بوسعي أن أهتم جدياً

بالإصلاحات الإدارية والضريبية. وإنني في سائر هذه الإصلاحات أوجه ندائي مرة أخرى إلى فرنسا، وأنا على اقتناع، مثلما كنت قبل ثلاثة أشهر خلت، أن ندائي سيجد لديها الآذان الصاغية».

وسأقفي على هذه التصريحات بعرض مستفيض عن الأوضاع مع الاقتصار على الجوانب الأساسية فيها.

فاس، 10 يوليوز 1911

لقد أعادت قواتنا نشر الأمن والنظام وأعادت بناء السلطة الشريفة بسرعة فاقت كل التوقعات. فقد دخلت سائر القبائل المتمردة تحت الطاعة في ما خلا بعض الشخصيات الذين التجأوا عند بني مكيلد أو عند زايان. وما عاد ينقص إلا أن نقيم حامية شريفة في صفرو وأن نفتح سبل الاتصال الكبرى مع الساحل عبر مكناس وباب تيوكة في وجه التجارة. وبعد ذلك (وكما يُلزمنا مجلس النواب والحكومة) ستنسحب قواتنا بالتدريج لتمضي للقيام بعملياتها في معاقبة زعير وزمور وتهدئتهما. فماذا سيحدث في فاس بعد أن ترحل هذه القوات؟

ربما لم تسنح الفرصة للجنرال موانيي لسحق بعض القبائل، فلذلك سيكون بمقدورها أن تعود إلى العصيان من جديد بدفع أو استدراج من قبائل أخرى أبعد منها لم تقيض لها بعد أن تتواجه مع قواتنا. وقد بدأنا نسمع اليوم عن بعض الاضطرابات لدى سكان الجبال في الأطلس المتوسط حيث قام وليان، على غير اتصال بينهما، هما مولاي امحمد السغروشني وعلي أمهاوش يدعوان إلى الجهاد بين قبائل أعالي ملوية وأعالي أم الربيع. وإن ما هو أخطر بكثير مما يدبر له هذان البعبعان هو نقص القوات الشريفة والاختلال الذي يشكو منه المخزن والحالة المزرية التي توجد عليها الوضعية المالية.

ويجري العمل الآن لتكوين جيش قوامه 6.000 رجل. وهو عمل يسير على الطريق الصحيح، لكنه غير كاف بأي حال؛ ذلك بأن هذه النواة للجيش لا تكاد تكفي لزويد حاميتي فاس ومكناس وملحقتيهما في صفرو والحاجب. ولن يعود من قيمة لكتيبة من القوات المتحركة وسيتعين علينا - إن كنا لا نزال نحرص على سحب قواتنا - أن نعتمد البرنامج الذي وضعه الجنرال موانيي، وأن نمد المخزن بالأطر والرجال اللازمين لإنشاء جيش من 20.000 رجل. وإلا كان مجبراً على العودة إلى نظام المحلات المشؤوم. وسرعان ما سنجد أنفسنا مكرهين على إرسال بعثة جديدة مكلفة في الرجال والأموال.

وبموازاة للإصاحات العسكرية يريد السلطان أن يقوم بإعادة تنظيم لشؤون الإدارة والضريبة. وهو أمر بات ملحاً، وليس بمقدور مولاي عبد الحفيظ أن يقوم فيه بشيء بدون مساعدتنا. لقد بات المخزن المركزي يعمُّه الاختلال، وباتت جميع الأمور تقع على كتفي وزير المالية الشاب الطيب المقري، وهو إن يكن لا تنقصه النباهة فهيهات أن تكون له خبرة أبيه سي الحاج محمد، الذي اضطر إلى البقاء في باريس منذ 1909، وأصبح غيابه يؤثر كثيراً على سير الأمور. وسيتعين على السلطان أن يكون بمقدوره أن يملأ جميع المناصب ولن يعييه أن يختار لها النزهاء من الرجال.

وأما من جهة أخرى وللحيلولة دون تجدد التمردات فسيكون من اللازم تغيير الإدارة الإقليمية. فينبغي التوقف عن جعل القياد يشترون وظائفهم ويسوسوا الرعية بما يحلو لهم من صنوف الاستغلال. وقد حاول بعض الموظفين في فاس وبعض القياد أن يهتبلوا الطاعة التي صار إليها السكان بفضل قواتنا ليعملوا على قهرهم واستغلالهم. وقد تصدى قنصلنا وقادة مراكزنا بكل ما أوتوا من تيقظ وحزم، واسترجعوا منهم المبالغ المغتصبة.

وفي الأخير فإن أي تنظيم إداري لن يكون له من حظ في الوجود ما لم يُرفق بإصلاحات ضريبية. وقد أصبح السلطان عاقد العزم على إعمال الترتيب، تدرجاً مع دخول القبائل تحت الطاعة. وأعلن للقبائل في الوقت نفسه تعهده لها أنها لن تتعرض في المستقبل للتعسفات التي كانت من وراء خروجها إلى العصيان. بيد أن إعمال الترتيب يتطلب إرسال لجنة إلى القبائل تتولى الإحصاء، ولا يمكن إعمال هذه الضريبة إلا مع الربيع ولا يمكن جبايتها قبل شهر غشت من سنة 1912.

وأما من جهة أخرى فإن القبائل قد وقع عليها استغلال قاصم بحيث إن المبالغ التي يمكن أن نعول عليها منها لن تسمح للمخزن لا بالشروع في الإصلاحات ولا حتى بالبقاء إلى أن يكون بمقدوره مباشرة تلك الإصلاحات.

فلابد أن يُنص في القرض الجديد الذي ينبغي التعجيل بإبرامه على التسبيق الذي سيحتاجه السلطان لمواجهة الأوضاع. ولو رفضنا أن نمده بذلك التسبيق فمعناه أن الإصلاحات ستظل حبراً على ورق؛ وسيعود المغرب ليسقط في فوضى عارمة؛ بحيث لن تجدي مولاي عبد الحفيظ جهوده للخروج منها وسينساق إلى جانب أولئك الذين يفيدون من الاختلالات والاضطرابات.

ولن تلبث القبائل التي تعول على فرنسا لتجنبها العودة لتكون فريسة لصنوف التعسفات والتجاوزات القديمة أن تفقد كل ثقة فينا.

إن الضرورة تدعو إلى التعجيل بالإصلاحات العسكرية والضريبية ويدخل في مصالحنا الحيوية أن تتم تلك الإصلاحات تحت إشراف منا وتوجيه. وينبغي أن نقول لأوروبا ما نريد بكل وضوح : في مقابل اعترافنا من غير أي خلفيات، بمبدإ الباب المفتوح في مجال الاقتصاد [في المغرب]

ينبغي أن تقر لنا بالحق في مساعدة السلطان على تقوية الأمن والسلم في مملكته، من غير أن نظل نلقى منها العراقيل على الدوام في هذا العمل الحضاري الذي يخدم الجميع. فلنبذل التضحيات اللازمة، ولنمض قدماً على الدرب! وإلا فلنصرف نظرنا عن سياستنا في المغرب، ولنخل المجال للآخرين... ولنختف من على الساحة!

وقد كانت لي في شهر شتنبر كذلك مشاركة في العملية التي باشرها رتل دالبيي لإقامة حامية مخزنية في صفرو. ثم شاركت بصفتي طبيباً متطوعاً للقوات الشريفة في العمليات التي كانت من رتل بريمون على آيت يوسي. وفي أكتوبر رجعت إلى فرنسا لأضع آخر اللمسات على خريطتي لجهة مراكش.

وفي 4 نونبر وقع السيدان جول كامبون وكيديرلين-فايشتر في برلين على الاتفاق الذي يقر لنا بحق إقامة نظامنا للحماية في المغرب. وبُعيدها جاءت مصادقة السلطان على ذلك الاتفاق برسالة بعث بها إلى وزيرنا للشؤون الخارجية السيد دو سيلف.

وها إننا قد خلا لنا المجال في المغرب.

القسم الثالث

مستهل الحماية

الفصل التاسع عشر

توقيع معاهدة الحماية

صادق مجلس النواب ومجلس الشيوخ على الاتفاق الفرنسي الألماني فلم يبق إلا الدفع بالسلطان إلى القبول بمعاهدة قانونية. وهو الأمر الذي كلفت به الحكومة مندوبنا في طنجة السيد رينو. ولم يكن اختيار بقية أفراد البعثة الآخرين بحكم أهمية موضوعها في المجمل بالأمر العسير. فقد ضمت هذه البعثة وزيراً مفوضاً شرفياً مستعرباً قد عمل طوال حياته في مدارس المشرق، وبرلمانياً في مقتبل العمر ذا مزاج مندفع مغامر، وقد أثبت منذئذ أنه لم يكن بالمخطئ، وموظفاً سامياً من الحكومة العامة في الجزائر وقد قام بعمل هائل؛ إذ وضع مشروعاً لتنظيم الحماية، وقنصلاً من الشرق مترشحاً لتولي وظائف الكاتب العام للحماية، وضابطين بارزين وأربع سيدات، علاوة على أربعة أعوان من المفوضية (كاتب في السفارة وقنصل ملحق وترجمان وترجمان متدرب)؛ بما يكون في المجمل عصبة متميزة شديدة التوادد من خمسة عشر شخصاً، يكاد يكون ثلثاهم على جهل بكل ما يتعلق بالمغرب، ولا يكاد ثلثهم الباقي يعرف، بدرجات متفاوتة، من المغرب غير طنجة والجوانب الدبلوماسية. وغاب عن هذه العصبة السيد ميشو بلير والدكتور ليناريس وشخصيات أخرى كثيرة كان يمكن أن يقع الاختيار بينها على مستشارين أكفاء. والحقيقة أننا كنا نعول على وسيطنا الوطني في الشؤون المغربية في فاس؛ فقد كان وجوده في العاصمة قميناً بأن يبعث الثقة في نفوس أفراد البعثة ويطمئنهم إلى النتائج التي يمكن أن تكون للوثائق المجتمعة لديهم مهما تكن قليلة.

وأما الصحافة فقد كانت ممثلة في مراسلي وكالة «هاڤاس»* والصحيفتين «لوماتان»* و«لاديپيش ماروكين»*، ولم تغب عنها صحيفة «الطان».

وسأحاول في الصفحات الآتية أن أستعين بمذكراتي وذكرياتي لاستبيان حقيقة كل ما راج عن الوقائع التي سبقت التوقيع على معاهدة الحماية وتلك التي تلته. فلقد تملكني ضيق شديد؛ ذلك بأن ما أعتبره الحقيقة يجبرني على التصريح ببعض الانتقادات، خاصة في حق شخصيتين وإن كنت أحمل لأحدهما الإعجاب وتربطني بالثاني أواصر الصداقة.

أول هاتين الشخصيتين هو سفيرنا نفسه، الذي لا أجد إجمالاً ما أؤاخذه به إلا المبالغة في صفتين وسوء استعمالهما : العناد والثقة. فلقد أسدى السيد رينو لقضيتنا في المغرب خدمات جليلة. وكان الفضل في عناده أن صرنا بعد ثماني سنوات من العمل الدؤوب قاب قوسين من إقامة نظام الحماية في المغرب؛ فتراه يؤمل أن يكون أول مقيم عام. لكن مما يؤسف له أنه قد صار من قلقه ونفاد صبره من كل ما من شأنه أن يعرقل هذه الرغبة المشروعة أو يؤخر تحققها يصر على ألا يستشير غير ذلك المنكر للصعاب والذي أسميته «وسيط الوحي».

والحال أن هذا الأخير لم يكن الشعور بالمسؤولية عنده في مستوى الثقة التي نجح في أن يوحي بها إلى رئيسه. فقد كان هو الآخر مهووساً برغبة أكالة : الدفع بأسرع ما في الإمكان إلى التوقيع على معاهدة الحماية والتوجه إلى الرباط؛ حيث كانت تدعوه أسباب لم تكن تمت بصلة إلى مصلحة فرنسا. وقد كان مؤهلاً أكثر من غيره للإحاطة معرفة بالعراقيل، فكان يعتقد أنه يزيلها من طريقه بتجاهلها وغض الطرف عنها، ونجح في أن يخفيها عن

* Havas

* *Le Matin*

* *La Dépêche Marocaine*

عيني السيد رينو. لكن الرجل كان هو الآخر قد أسدى لفرنسا في ظروف أخرى خدمات كثيرة وجليلة، ولذلك أفضل ألا أذكر اسمه.

لست أزعم بأي حال أنه لو كان يتحلى بمزيد من بُعد النظر لكان في الإمكان أن نغير من مسار الأحداث، لكنني أعتقد صادقاً أننا لو كنا تصدينا للأوضاع في حينها واتخذنا الإجراءات التي كانت تمليها علينا لكان يمكن التخفيف من خطورتها.

تركت السفارةُ طنجة في 16 مارس 1912، ووصلتْ إلى فاس في 24 منه سالكة إليها طريق القصر - قرية الحباسي - مشرع بلقصيري - سيدي كدار - باب تيوكة - بني عمار. وقد كان السلطان أرسل إليها في طنجة خفراً من بعض المخازنية يتقدمهم قايد من قياد الرحا، وخيلاً ودواب للركوب وخياماً وحشيات وزرابي وأعطى أوامره إلى القبائل أن تمدها بالمونة في كل مرحلة من تلك الرحلة.

ففي المركز الأول للمنطقة التي يحتلها الجنود الإسبان بقرب سيدي اليماني، في منتصف الطريق بين طنجة والقصر أو نحوه، قدم لنا التحية خفرٌ من أربعين فارساً من فيلق «كاثادوريس دي بيكتوريا»* تحت إمرة قائد وملازم أول، ثم سار يتقدم الرتل. فلما وصلنا القصر حيتنا الجالية الفرنسية التي جاءت للقاء وزيرنا على بعد فرسخ من المدينة، وتلقاه الكولونيل سيلڤستر بطل سانتياغو دي كوبا، الذي اختفى في ظروف مأساوية في أنوال، بكثير من اللطف وقدم له الحامية ثم قاده حتى اللوكوس. وسار قناصو بيكتوريا يخفروننا لبضعة كيلومترات، إلى أن جئنا الموضع حيث كان ينتظرنا طابور الخيالة الشريفة في معسكر عرباوة الذي يتولاه القائد فاري. وقد تلقى السيد رينو في أربعاء سيدي عيسى التحية من السيد

* Cazadores de Victoria

بواسي وقياد الغرب وأعيانه. وقطعنا وادي سبو على متن قارب حتى مشرع بلقصيري. وفي دار الزراري وجدنا الجنرال موانيي الذي قدم من الرباط لملاقاة وزيرنا. وفي نزالة فراجي، وهي آخر مرحلة إجبارية تقطعها السفارات، على بعد أربعة كيلومترات من فاس، أرسلت الحكومة الجنرال بويو الذي كان وصل لتوه من مكناس، ليسلم إلى الجنرال موانيي حمالة وسام الشرف، والتقينا هناك قنصلنا في فاس وضباط البعثة العسكرية.

كان السيد رينو لا يفتأ أثناء تلك الرحلة يرد عليه الرقاصة بقصاصات تطلعه على سير الأحداث. وذات مساء - أظن في مرحلة الفوارات - جاء في واحدة من هذه الرسائل التي أمر السيد رينو بقراءتها على المائدة خبر بنهب قطيع خرفان في ملوية وتراشقات رصاص بين جنودنا من الكوم واللصوص. فلما فرغنا من العشاء اختلى بي م. ب.، وزيرنا الشرفي مطلق الصلاحية جانباً ليستشيرني في إمكانية الانعراج لتحاشي «ذلك الملوية». وما ذهب عنه تشنجه وعاد إليه هدوؤه إلا بعد أن تبين في خارطتي المسار الذي نسلكه وموضع ملوية.

وأثناء ما كان الجميع صباحاً في نزالة فراجي قد تحلوا باللباس الرسمي وهم على أهبة الركوب استعداداً للدخول الرسمي إلى فاس، إذ برز السيد م. ب. من خيمته وقد جعل فوق رأسه مقرنة رائعة قد زُينت بريش أبيض. ويبدو أن الرجل قد قام بمخالفة صارخة لقواعد التشريف التي تقصر هذه الزينة على قادة البعثات وحدهم. واقتضانا الأمر نصف ساعة بالتمام والكمال لنقنعه بالأمر ونجعله يزيل عنه تلك الريشات. ولم تكن تمطر مدراراً، وإنه لحظ عظيم.

كان دخولنا إلى فاس في مبتدئه طيباً. فقد جاء كبار الموظفين المخزنيين والهيئة القنصلية ليتقدموا سفيرنا. وشكلت القوات الشريفة وبضع مئات

من فرسان القبائل الذين استدعوا لهذه المناسبة سياجاً امتد بطول سور أكدال. فلما اقتربنا من باب السجمة تلقتنا ساكنة الملاح عن بكرة أبيها بفورات من الفرح، وجاءت فرق موسيقية يهودية كثيرة لتعزف لنا نشيد «الأم ميشيل» الذي كان يعتبر وقتذاك هو نشيدنا الوطني. ثم لم نعد بعد ذلك نسمع شيئاً! فما وجدنا طوال المسافة من باب الدكاكن حتى بوجلود غير الفراغ! ووجدنا ساحة بوجلود الفسحية مقفرة! ومن أعلى المسجد حيتنا مجموعة مومسات قد وضعهن الباشا خصيصاً في ذلك المكان، بزغاريد حادة ليوهمننا بأنه تعبير تقائي عن فرحة نساء فاس. ومن هنالك حتى مدخل حي الدوح كان أصحاب الجوانيت وزبناؤهم المعهودون ينظرون إلينا نظرات خفية أو يتظاهرون بأنهم لا يكترثون لموكبنا الباهر. وأما بقية مسيرنا فقد مرزنا فيه خلال أزقة الدوح الملتوية والضيقة والفارعة، وصولاً إلى دار الكلاوي الذي أعد لتقيم فيه السفارة.

وترجل السيد رينو عن جواده، فأعرب عن ارتياحه للاستقبال الذي وجده من الفاسيين، فلم أتمالك نفسي من الرد على كلامه بالقول : «إذن فأنت يا سيدي الوزير لست صعب... [الإرضاء]»*. لكن وسيط الوحي كان يقف على مقربة منا، ففاه بما يزيد في تأكيد الانطباع الذي خامر السيد رينو؛ فقد وجد ذلك الاستقبال حماسياً... وما بقي لي إلا أن أقر له بسداد رأيه وأحدث نفسي أنني لاشك أخطأت في الحكم.

غير أني لم ألبث أن تبين لي أن انطباعي كان هو الصحيح، وأن الميول التي كانت من الساكنة نحونا، والتي كانت لا تزال طيبة وقت أن غادرت فاساً ستة أشهر قبل، قد صارت ميولاً سيئة على نحو سافر. فقد صار السكان من بدو وحضر متفقين في ما بينهم، من غير اكتراث بالاعتبارات

* « Eh bien, Monsieur le Ministre, vous n'êtes pas difficile... ».



وصول السيد رينو إلى فاس

البرلمانية أو الدبلوماسية، على رأي أننا، ونحن الذين نمسك بزمام الأمور في فاس منذ ستة أشهر، لم نقم بما من شأنه أن يحسن من أوضاعهم، وأنهم على العكس يرون المخزن، الذي يستمد كل قوته من وجود جيشنا، لم يعد يراعي شيئاً وأنه قد عاد يستغلهم بأشد مما كان. فإذا كراهيتهم للمخزن قد انقلبت نحونا نحن حماته المفترضين، وأصبحت تترجَم في عداء صراح نحو الأجانب.

تلك هي الأجواء التي دارت فيها المفاوضات بغاية التوصل إلى التوقيع على معاهدة الحماية. وقد كان السلطان قبل مجيء السيد رينو تملكته سورة هياج عارمة، وبلغ منه الأمر إلى إعلان نيته في التنازل عن العرش. فهل كان موقفاً متعمداً منه لإنقاذ كرامته؟ أم كانت مناورة أراد منها أن يزيد الامتيازات المادية التي كان ينتظر الحصول عليها من فرنسا؟ أم كان حرصاً من الإمام المتردد في أن يسلم جزءاً من أرض الإسلام إلى قوة كافرة؟ يصعب علينا أن نجزم بجواب.

كانت الجلسة العلنية الأولى التي احتضنتها قبة بوجلود يغلب عليها البرود. وفي اليوم الذي بعد ابتدأت المفاوضات، وقد أمكن بفضل التمهيد الذي قام به السيد كايار، وبفضل دبلوماسية السيد رينو وحنكة سي قدور بن غبريط وحصافته، أن تسير هذه المفاوضات سيراً مرناً. وبعد ستة أيام من المكابرة والمساومة والعرض الذي قدِّم إلى السلطان بترحيله إلى فرنسا ومده بمبلغ مالي عظيم، وبعد أن رأى أن تهديداته بالتنحي الفوري لم تعد تجدي فتيلاً، وأنه قد حصل من الطرف الآخر على أقصى ما يمكن أن يؤمل الحصول عليه، بعد ذلك كله قرر مولاي عبد حفيظ في زوال يوم 30 مارس 1912 أن يوقع على معاهدة الحماية.

ولما كان السيد رينو عائداً من القصر وجدني عند باب دار الكلاوي. فكان متهللاً. ثم بادرني بالقول وهو يترجل عن حصانه : لقد قُضيَ الأمر وتم التوقيع على المعاهدة، لكني وعدت السلطان بأن أكتم الأمر فلا يعلم به أحدٌ، إلا بعد أن يرحل إلى الرباط. وإذن فلا تبح بشيء لا لصحيفة «الطان» ولا لأي شخص!

ولقد التزمت بما أمر. لكن السيد هوبير جاك* علِم بخبر توقيع المعاهدة من مصدر آخر، ثم لم يُطلَب إليه أن يكتم السر، فقام بالإبراق في اليوم نفسه بخبرها إلى صحيفة «لوماتان». وفي المساء أقيم حفل استقبال في القصر فجاء يقدم تهانئه إلى السيد رينو، الذي فوجئ بما سمع، وهو الذي وعد السلطان بكتمان الأمر، فلم يجد بداً من إنكار وجود هذه المعاهدة. لكن عبثاً فعل؛ فلم يعد له أن يحول دون انتشار الخبر.

فلما شاع ذلك النبأ في فاس عم المدينة وجوم واندهال. فقد اعتُبرت معاهدة الحماية عقد بيع؛ فقامت المدينة عن بكرة أبيها، بدءاً من الشرفاء والعلماء وحتى آخر بقال فيها، تستنكر هذه الصفقة التي قام بموجبها الإمام أمير المؤمنين، الذي بويع أربع سنوات قبل سلطاناً للجهاد، بـ«بيْع» المسيحيين قسماً من دار الإسلام.

صار يخيم على المدينة صمت ثقيل، لكن العلامات المنذرة بالعاصفة لم تبدأ تلوح للأوروبيين، وما استشعرتها إلا القلة القليلة منهم المطلعة على الحياة الخاصة في العاصمة. غير أنك صرت لا تلقى في الشوارع وجهاً باشاً؛ فإذا الأهالي لا يكادون يردون على تحيات الأجانب، وإذا أصدقاء الأمس يتظاهرون بأنهم لا يعرفونك. لكن لم يبذر أي عمل من أعمال العنف يفضح سورة الغضب الذي كانت تعتمل به النفوس. وما

* (هـ.م) انظر في هذا الصدد كتابه *Les journées sanglantes de Fès* الصادر سنة 1913.

كان ذلك الهدوء الظاهر إلا خداعاً وتضليلاً؛ فلم يجد الجنرال موانيي بداً من الرحيل إلى الساحل وبرفقته جميع الجنود الموجودين، إلا من كتيبتين وسرية ونصف سرية كانت معسكرة في دار دبيبغ على بعد أربعة كيلومترات من المدينة وخمسة كيلومترات من إقامة السفير.

كان بين الشروط التي وضعها مولاي عبد الحفيظ للقبول بمعاهدة الحماية رحيلُه في أقرب الآجال إلى الرباط، ومنها إلى أوروبا، وفي جيبه مبلغ مليون فرنك. فكان يلزم أن يتم رحيل السلطان ورحيل السفير في يوم واحد مع فارق بضع ساعات بينهما. وكان يتعين أن نتوقف في الطور الأول من تلك الرحلة في راس الما الذي لا يبعد إلا بنحو اثني عشر كيلومتراً عن العاصمة. واشترط السلطان، كما في معاهدة الحماية، أن يُتكتَّم بشدة عن تاريخ الرحيل.

وعلى قدر ما كان مولاي عبد الحفيظ مغتماً قلقا قبل التوقيع على المعاهدة على قدر ما صار بعد التوقيع باشاً مطمئناً كثير الاهتمام باستعدادات الرحلة. غير أن رحيله كان مثاراً لشتى أنواع الافتراضات والتعليقات. فمن قائل إن السلطان يريد زيارة أوروبا للاستنجاد بالقوى الأوروبية منا، وقائل إنه يريد ترك فاس هرباً من الاضطرابات التي لن تلبث أن تندلع، وقائل إن رحيله لا يعدو أن يكون مناورة لإنقاذ ماء الوجه وإيهام السكان بأنه معتقل من فرنسا ليؤجج حركة العداء للفرنسيين.

وقد خصني السلطان بلقاء فسألته رأيه في تلك الشائعات. فكان جوابه:

- «لا يمكن أن يكون لرحيلي أي أثر سيء. فمنذ أن جاء الجنرال موانيي إلى فاس وأهالي القبائل يعرفون أنني على وفاق مع فرنسا. وإذا كانوا ينشرون الشائعات المغرِضة فأنا وأنتم عدونا واحد؛ إن أعداءنا هم أولئك الذين يجدون مصلحتهم في إفساد ما بيننا. وهم لا يتوانون عن

تسفيه أقل فعل نقوم به. إن وجودي لم يمنع دسائسهم ومؤامراتهم وقد لا يكون لغيابي أن يهدئ من ثائرتهم.

«غير أن الغالبية الساحقة من الفاسيين لا تلقي بالاً إلى هؤلاء المسوسين، ولسوف أترك ههنا أخي مولاي يوسف خليفة لي، وهو يحظى بكامل ثقتي ويتمتع بالتقدير من السكان. وأما فرنسا فسوف تكون ممثلة ههنا بالجنرال برولار الذي أكن له تعاطفاً صادقاً وتقديراً خاصاً.

«فأنا لذلك مطمئن كل الاطمئنان على أهالي فاس. وأما القبائل فلست في حاجة إلى أن أقول لك إن خروجها إلى التمرد العام وهجومها على العاصمة هما اللذان كانا سبباً في مجيء جنودكم إلى فاس. والفضل في إخضاع القبائل المجاورة لفاس يعود إلى التدخل القوي من الجنرال موانيي وأما القبائل البعيدة فسوف تدخل بدورها في الطاعة عندما تدرك بطلان مقاومتها. إن وجودي أو غيابي لن يكون لهما من تأثير على مواقفها».

ثم سألت السلطان رأيه في التنظيم المقبل الذي ستكون عليه الحكومة المغربية، فأجاب :

- «هنالك طريقتان لتصور حل لهذه المشكلة : إما إدارة مباشرة بأعوان فرنسيين، أو تعاون محكم بين موظفي المخزن وأجهزة تنفيذية تكون على اتصال مباشر بالسكان والأعوان الفرنسيين المكلفين بالإدارة المباشرة والمراقبة.

«ولست في حاجة لأن أقول لك إنني أوثر الطريقة الثانية؛ غير أن خبرتي بالطبيعة البشرية تجعلني أشك في إمكانية تطبيقها الفعلي. فالإنسان الذي يمتلك السلطة يميل عامة إلى الاستئثار بها لنفسه. أو ذلك على الأقل هو الحال عندنا نحن المسلمين، وربما لا تجري هذه القاعدة على المسيحيين...

«وعلى كل حال فإنني موقن من النوايا الحسنة لدى فرنسا، ومستعد لدعمها بكل ما أوتيت من جهد. إن الحكومة الفرنسية ومخزني هما اليوم كأنهما يدان لرجل واحد، وإن شاء الله سيحفظ لنا اليدين معاً، لنستطيع التصفيق للنتائج السعيدة التي سيسفر عنها النظام الجديد».

وفيما كنت أنقل إلى صحيفة «**الطان**» هذه التصريحات من مولاي عبد الحفيظ جعلت أذيلها بتعاليق أورد في ما يلي أهم ما جاء فيها :

فاس، 12 أبريل 1912

إن الناس ههنا لا يشاطرون جميعاً السلطان هذا التفاؤل بشأن الحالة الراهنة للأمور ولا يرون رحيله بالأمر المناسب.

والمؤكد أن الأطلس المتوسط من تافودايت حتى دبدو قد كان في تلك اللحظة يضطرم اضطراماً. فقد ساءت الأوضاع كثيراً، وكانت ستكون أكثر سوءاً لو أن قبائل البربر كانت أكثر تلاحماً. وأياً ما يكن فإن ما بأيدينا من جنود في المغرب في الوقت الحالي ليسوا من الكثرة التي تُقدِرهم على مراقبة هذه الناحية والتصدي لما قد يطرأ من احتمالات.

لقد صارت مواقف الناس منا في فاس نفسها وفي القبائل المجاورة أسوأ مما كانت غداة وصول جنودنا إلى هذه العاصمة. فقد وقعت اعتداءات متفرقة من بعض المتعصبين، وعاد الأطفال في الشوارع - وهذه ظاهرة ذات دلالة قوية - يتعرضون بالسب والشتم للمارة من الأوروبيين. وإنما نعرف بحقيقة مشاعر الآباء من أفواه الأبناء.

وقد كان الناس في فاس خلال الحصار الذي ضرب على هذه المدينة قبل عام منقسمين إلى حزبين : حزب البورجوازية التي كانت تؤمل في وصول جنودنا ليقوها النهب من المتمردين ومعسكر الدهماء الذين كانوا يؤملون الغلبة للمتمردين عساهم يحصلون على نصيبهم من الغنيمة.

وكان في وصول جنودنا مثار عند البعض لفرحة ممزوجة بشيء من القلق وكان مبعثاً لدى البعض الآخر على خيبة عارمة. بيد أن هؤلاء وأولئك قد أذعنوا للأمر الواقع، وقد كانوا جميعاً ينتظرون من تدخلنا أن يكون فيه إنهاء للتجاوزات وتحسين فوري للحال التي كانوا عليها.

لكن كانت الخيبة نصيبهم جميعاً. فطوال الأشهر العشرة التي تصرمت منذ احتلال فاس لم يُسعَ إلى إنشاء أي تنظيم ولو كان مؤقتاً. وعلى الرغم من كل ما تحلى به أعواننا من حسن النية فإنهم عجزوا بحكم افتقارهم إلى الأموال لدفع أجور الموظفين المخزنيين وافتقارهم إلى الموظفين ليقوموا على مراقبتهم، بما استحال عليهم قمع التجاوزات، فصار السكان يتساءلون ترانا جئنا لمجرد التمكين للمخزن أن يمعن في استغلالهم. لقد فقد السكان الثقة التي كانوا يحملونها لنا في السنة التي قبل، ويلزمنا لنعيد إليهم هذه الثقة أن نسارع إلى حمايتهم من غاصبيهم. لقد طالت النقاشات والمماحكات كثيراً، وقد آن الأوان للانتقال إلى الأفعال.

دفعت برسالتي إلى السيد رينو قبل أن أرسلها، فسعى في إقناعي بخطإ تذييلاتي عليها، حتى إذا أعيته المحاولة اكتفى بهز كتفيه.

في اليوم الذي بعد جاءني أحد الأهالي من أولاد يوسف كانت قد اتصلت بيني وبينه أواصر الصداقة أثناء جولاتي في زرهون. فلما فرغنا من المجاملة المعتادة بادرني بالحديث في الموضوع الذي جاءني فيه قائلاً :

- إذن سترحلون قريباً؟

قلت :

- لا أعلم.

- وأما أنا فأعلم، والقبائل كلها تعلم أن السلطان والباشادور (السفير) يعدان العدة للرحيل يوم الأربعاء القادم (17 أبريل) ليعسكرا في راس الما. وقد جئت لأثنيك عن الرحيل معهما لأنكم ستتعرضون فجر الغد لهجوم كاسح، وربما تعرضتم للقتل بعد أن رحل معظم جنودكم مع الجنينار (الجنرال).

- ومن أين جئت بهذه المعلومات؟

- إن القياد يعلمون بها. وما أعرف هو أن جميع العرب في سايس وبني مطير قد صار لهم جنودهم الرقباء من حول فاس، وأن القبائل ستحتشد بداية من الأسبوع المقبل.

- وماذا تريد؟

- تريد أن تدفع بالباشادور إلى التراجع عن عقد البيع.

قدمت تقريري عن هذه المحادثة إلى السيد رينو، فوجدت منه تفاؤلاً استغربت له في هذه المرة أيما استغراب. وفي اليوم الذي بعد تكلم وسيط الوحي فعادت الأمور كلها إلى أحسن حال في المغرب. غير أن موعد الرحيل الذي تم التكتم عنه بعناية شديدة، وكنت إلى اليوم الذي قبلُ أجهل به، قد صار معلوماً للقبائل...

وما كنت الوحيد الذي سعيت إلى إطلاع الوزير على الوضعية الحقيقية؛ فقد جهِد السادة كايار وسودان وميرسيي وجوفراي وسواهم في هذا الأمر، لكنهم قوبلوا منه برد واحد: «إن فلاناً (وسيط الوحي) لا يرى هذا الرأي، وعليكم أن تسلموا بأنه أفضل منكم اطلاعاً».

وفي 15 أبريل أقيم حفل عشاء باذخ في السفارة. وفي 16 أعددنا العدة للرحيل في اليوم الذي بعده. ففحصت مسدسي وحزمت حقائبي للسفر وأنا على شبه يقين أننا سنكون في اليوم الذي بعده طعاماً لغربان سايس.

في ذلك اليوم أقيم فطور باذخ في القصر. وبدا مولاي عبد الحفيظ في غاية الانشراح كأنما تخلص من همومه كلها. فلما فرغنا من الفطور لعب والسفير الشطرنج فلقي منه هزيمة نكراء، ثم لعب وصحافياً ففاز عليه بشيء من الخداع.

وأديرت علينا القهوة في المنزه في الطابق الأول من القبة المطلة على المشور، فجمعني حديث طويل بضباط كثر قد وصلوا منذ وقت وجيز وسمعت منهم إطراء ومديحاً للقوات الشريفة...

وفي حوالي الساعة الثالثة انفجرت أعنف عاصفة رأيتها في المغرب. وأمطرت مدراراً، فكان الماء يجري بطول حيطان الصالون الذي كنا فيه. وما أفلحنا إلا في الساعة الخامسة أو نحوها في العودة إلى حينا. فأذا الساحات قد استحالت سواقي وصارت الشوارع تجري سيولا، فكانت جيادنا تغوص فيها حتى رُكبِها وتعثر في الحجارة المقتلعة من الحفر.

وفي المساء أطلقت من فوق سطح السفارة وسط المدينة الخرساء المعادية الشهبُ الاصطناعية التي جيء بها من طنجة احتفالاً بالتوقيع على معاهدة الحماية. وفي الساعة التاسعة أو نحوها بدأت تمطر مدراراً وأدرك السيد رينو أن السبل قد باتت وعرة متعذرة، فأعلَم السلطان بصرف نظره عن الرحيل في اليوم الذي بعدُ.

الفصل العشرون

مذابح فاس

ها هو ذا تصوير للوضعية العسكرية التي كانت في فاس، في يوم 17 أبريل 1912.

لم يعد ما بحوزة الجنرال برولار قائد الأسلحة من القوات يزيد عن كتيبتين من الرماة محدودتي الرجال (فيليپو وفيلير)، وبطارية مدفعية ومجموعة من الرشاشات، ومجموعة من سلاح الهندسة العسكرية وسرية من الفرسان (بقيادة دوڤانلاي) ونصف سرية من قناصة إفريقيا أي ما قوامه 1.500 رجل على أبعد تقدير، كانوا يعسكرون في دار دبيبغ التي تبعد أربعة كيلومترات عن فاس تحت إمرة الكولونيل توپان. وتعين تسخير كتيبة وسرية من هذه القوات لخفر السلطان وخفر السفير.

كانت الحامية الشريفة تتألف من ثلاثة طوابير من المشاة وفرقة مدربين وسريتين وبطاريتين وطابور للهندسة العسكرية؛ أي ما يكون، باحتساب حرس السلطان، حوالي 5.000 رجل. وقد تم توزيع المشاة والفرسان والرماة بين قصبة الشراردة على مقربة من باب السجمة والحصون التي في الشمال والجنوب، وجعل سلاح الهندسة العسكرية في تامدرت قرب باب فتوح. وأما الضباط وضباط الصف من البعثة العسكرية فتمكرزوا في المدينة.

وخرجت في الصباح الباكر إلى المدينة، فلم ألحظ ما يبعث على القلق إلا من صوت ارتفع من جوف زقاق مظلم؛ إنه لعجوز خبيثة تصرخ بي لاعنة :

النصارى ف الصنارةْ
اليهودْ ف السفودْ*

ثم عدت إلى دار الكلاوي حيث سأتناول فطوري. وفيما كنت أتجول في صحن هذه الدار إذا بي أرى القائد بريمون ضابط البعثة العسكرية المعاون يقصدني مهرولاً يطلب مقابلة الوزير. وقد كنت رأيته بضعة أشهر قبلُ في صفرو وأيت يوسي يهاجمون معسكره، وهو تحت وابل من الرصاص لا يفارقه هدوؤه وبشاشته أو يفارق سيجاره زاوية شفتيه. وها إنني أراه في تلك اللحظة فينبئني وجهه وهيأته بحدوث خطب جلل. وقد انتظرته عند المخرج فبادرته بالسؤال :

- ماذا حدث؟

- لقد خرج طابوران من قواتنا إلى التمرد، وهم يذبحون مدربيهم. وقد يصلون ههنا في أقل من ربع ساعة؛ فلم يبق لكم من الوقت إلا أن تتسلحوا وتنظموا دفاع البعثة.

وقد كنت أعرف أن في القنصلية أسلحة وذخيرة، فعدوت إليها ومعي بعض الرجال من الحرس وجئنا منها بست بنادق قصيرة وصندوق من الخرطوش حملته حتى لا أفزِع السيدات إلى مكتب السيد رينو عند مدخل الصحن. فوجدت هناك السيد م. بـ. الوزير المفوض الذي كان ينتظر ساعة الإفطار. فسألني وهو يراني أدخل عليه حاملاً تلك الترسانة :

- ما هذا؟

فأسرعت بإخباره بالوضعية. قال :

- هيا، حسبك أن تفعل شيئاً واحداً...

* *En-neçara f'es-sennara*
El-yhoud f'es-esefoud

- أتقصد؟

- بالطبع! والحصانة الدولية ما نفعها عليك؟ فما عليك إلا أن ترفع العلَم!...

وقد وجدت شتى أنواع الصعاب في تبديد الغشاوة عن عينيه.

وفي تلك اللحظة سمعنا طلقات نارية تأتي من بعيد. وجلسنا إلى المائدة، وهناك وفيما كانت الطلقات تزداد اقتراباً علمنا بأسماء الضحايا الأوائل الذين سقطوا في ذلك الهياج.

وهاكم في ما يلي ما حدث بعدئذ؛ أستقيه من مذكراتي بعد أن تممتها بمعلومات التقطتها في وقت لاحق :

17 أبريل

في الحادية عشرة من صباح هذا اليوم تمرد طابوران من المشاة وطابوران من الخيالة كانا بإحدى الثكنات في قصبة الشراردة لعدم توصل أفرادهما بأجورهم، فأنحوا بالسب على مدربيهم وأطلقوا العيارات النارية في الهواء. ثم توجهوا إلى دار المخزن لعرض تظلماتهم على السلطان فردهم على أعقابهم دون طائل. وقد يكون تملكهم الفزع بما قدمت أيديهم، لكنهم رأوا أنفسَهم من الكثرة ما يجعلهم يفلتون من العقاب بعد أن يتخلصوا من الرقباء فشرعوا في مطاردة المسيحيين.

وكان الجنرال برولار والكولونيل مانجان قد أُعلما بهذا التمرد منذ بدايته من قِبَل السيد رينيي الضابط المترجم والملازم ميتزنكر من فرقة المدربين. وكان القائد بريمون والسيد رينيي تلقيا الأمر بالتوجه إلى قصبة الشراردة لمحاولة تهدئة المتمردين، لكن بعد فوات الأوان؛ فقد انتشرت الطوابير المتمردة في أنحاء المدينة تقتّل ضباطها.



وصول فرقة من الفيلق الأجنبي إلى فاس بعد قطع مرحلة من 60 كلم

في تلك اللحظة جاء القائد بريمون يقدم تقريره إلى السيد رينو.

فصرنا نتوقع أن يحدث بين الفينة والأخرى اجتياح لحي الدوح حيث يقيم معظم الأوروبيين، وحيث توجد سفارة فرنسا وقنصليتها وقنصليتا بريطانيا وإسبانيا والمستشفى العسكري.

في المستشفى العسكري أقام الجنرال برولار مركز قيادته. لكن لم يعد بحوزته حينها غير بعض العازفين المرافقين للفرقة الأولى من الرماة شاءت الصدفة السعيدة أن يوجدوا في المدينة، وبعض الممرضين وبعض الجنود في طور النقاهة وبعض الفرسان من خفر السفارة وحفنة من المدنيين؛ أي ما يكون في المجمل نحو مائة بندقية لمواجهة ألوف من الأراعن المدججين سلاحاً ومواجهة دهماء قد ملأتها نشوةً رائحة البارود فصارت متعطشة للدماء. فلما انتصفت الساعة بعد الواحدة أرسلت إلى صحيفة «الطان» ببرقيتي الأخيرة وربما تكون الأخرة.

إن كل ما كان في بوسعنا فعله في ذلك الحين، في انتظار نجدة تأتينا من الرماة في دار دبيبغ، هم الذين أُنذِروا بالهاتف هو حماية الحي الذي ننزل فيه. فقد جعلنا مراكز للألوية عند مدخل كل زنقة من الزناقي المؤدية إلى هذا الحي. وجعلنا المستشفى قطب المقاومة بطبيبه الرئيسي فورنيال الذي أبان في تلك المناسبة عن أفضل المزايا العسكرية.

صارت الفتنة تعتمل من حول ذلك الحي. وظل السفاحون يواصلون مهمتهم الكريهة، تؤججها الزغاريد الحادة اللجوجة تطلقها النساء من على الأسطح. فكان القتل مصير كل من تطاله أيدي المتمردين؛ بين قتلى في الشارع وقتلى في عقر بيوتهم. ثم اجتاحوا فندق فرنسا وقتلوا صاحبته وأحد نزلائه، فيما نجح باقي النزلاء في التحصن بإحدى الغرف أو فروا من فوق الأسطح. وظل الإبراقيون على بعد بضعة مئات الأمتار منا

عند مدخل الدوح يقاومون من مقرهم هجوم المتمردين. وما أكثر ما سعينا في تخليصهم، لكن اضطررنا إلى التراجع بفعل شدة الرمي.

وأعلمنا الكولونيل توپان بأن كتيبة فيليپو وفصيلين من سلاح الخيالة قد خرجت لنجدتنا في الساعة الواحدة والنصف، وأنه قد أرسل بفرقتين من كتيبة فيلير وفصيلين وفرقة من سلاح المدفعية إلى ظهر المهراز لتقوم على حماية جانبهم الأيمن. ولم يتبق بحوزته في دار دبيبغ لحراسة المعسكر والعدة والذخيرة والمؤن ودواب النقل غير فرقتين؛ فصيلة من سلاح المدفعية وأخرى من سلاح الرشاشات.

غير أن الحي الذي كنا نقيم فيه لم يتعرض لأي هجوم خطير. وعجز المتمردون عن مقاومة غريزة النهب لديهم فصاروا يمعنون في نهب المنشآت الأوروبية، وكان أكثر نهبهم للملاح، ثم نالوا اليهود بشتى الأعمال الوحشية. ففر منهم عشرة آلاف وقد جُنَّ جنونهم ليلوذوا بدار المخزن التي فتحت لهم أبوابها.

غير أن الطلقات من حولنا كانت لا تزداد إلا كثافة. وقد كنا لا نزال نترقب النجدة تأتينا من دار دبيبغ. وفي الأخير انضاف صوت المدفع إلى فرقعات الرصاص. فقد شرعت فرقة سلاح المدفعية التي يتولاها القائد فيلير والمتمركزة في أعالي ظهر المهراز في قصف الأحياء التي احتلها المتمردون. وفي حوالي الساعة الخامسة نفذت ثلاث فرق من كتيبة فيليپو قوامها 370 رجلاً إلى المدينة ثم إلى الحي حيث كنا من باب الحديد.

كانت الكتيبة قد خرجت من دار دبيبغ منذ ما يزيد عن ثلاث ساعات فتمكنت من بلوغ سور أكدال من دون مشقة. حتى إذا وصلت إلى ذلك الموضع تعرضت للهجوم من الخلف وعن اليمين من طابوري الخيالة المتمردين ومن فرسان القبائل ورُميت بالرصاص عن يسارها من

المتمردين المتمركزين فوق أسوار الملاح. فلم تجد بداً من أن تسير تتقدم في بطء شديد في مجرى وادي الأدهم ووادي الزيتون؛ تصد الهجوم عليها من الجانبين وتتكبد أفدح الخسائر. وقد تركت فرقة وفصيلان من الخيالة في الخلف لتؤمن لها المسير، فقُطِعت بينهما سبل الاتصال، فلم تلبث أن انعطفت على دار دبيبغ.

فصار يتعين علينا حينئذ لا أن نحمي حينا فحسب بل وأن نقدم النجدة للأوروبيين المقيمين خارجه ممن لا يزال في الإمكان نجدتهم. فانطلقت فرق استطلاع في جميع الجهات، وقد تحتم عليها أن تصمد للمعارك الحامية في الشوارع، لكنها أفلحت في جلب كثير من مواطنينا أحياء، بينهم ثلاثة مراسلين صحافيين كانوا محاصرين منذ الزوال في بيت من بيوت الطالعة، وجثث كثيرة مثل بها أشنع تمثيل. وبعد أن ظل الإبراقيون الأربعة يستميتون في الدفاع حتى المساء، لم يلبثوا أن هُزِموا. وما جاءتنا إحدى الدوريات بغير واحد منهم وكان لا يزال على قد الحياة لكن يحمل إصابات وحروقاً بليغة.

18 أبريل

بطلوع الفجر جاء الرماة يحمون خط الدفاع ويعززونه من حول الحي المحمي، وقد تعرضت الدوريات التي اخترقته للرمي من الأسطح العالية وتكبدت خسائر لا يستهان بها. وقد جلبت معها عشرين ناجياً، هم كل من كان في فندق فرنسا، وعدداً من الجثث بعضها مقطوع الرأس. وكُتِب الإنقاذ لمعظم مواطنينا بأيدي الفاسيين الذين كانوا كثيراً ما يجازفون بحياتهم. ومنهم من تلقاهم باشا فاس الجديد وقادهم إلى دار المخزن، ومن هناك سار بهم تحت جنح الليل إلى دار دبيبغ.

كانت حواجزنا حصينة لكن الصراع من حولها كان عنيفاً. وقد انضم عدد كبير من البدو من القبائل المجاورة إلى المتمردين في نهب الملاح الذي تركه سكانه [اليهود]. وصاروا وقتها يهاجمون حوانيت إخوتهم في الدين. وتحصن بورجوازيو فاس في بيوتهم وهم في فزع شديد.

وتعرض القائد نورمان الذي كان لا يزال صامداً في تامدرت وطابور الهندسة العسكرية الذي بقي إلى جانبه للهجوم من جميع الأنحاء، فصار يطلب التعزيزات، التي بات من المستحيل إرسالها إليه.

19 أبريل

تجدد القصف في الساعة السادسة صباحاً بعد ليلة هادئة نسبياً. فقد دارت معركة حامية من حول باب فتوح. وشق طابور نورمان منفذاً أفلح منه في الالتحام بالجنود الذين أرسلهم القائد فيلير ليكونوا في مقدمته وانسحب وإياهم إلى معسكر ظهر المهراز.

وجاءنا القايد سي عيسى بن عمر بملازمين وطبيبين بيطريين آخرين بعد أن ظلوا مختبئين في البالوعات لست ساعات يصارعون الجرذان فكانوا كأنهم خارجون من كابوس. وجيء إلينا كذلك بأرملة قبطان قتِل في اليوم الذي قبل في إحدى الغارات وبُنيته ولم يكن يعلم بمصيرهما.

وفي المساء وصلت من مكناس كتيبة مختلطة وفرقة مكونة من الفيلق الأجنبي وفرقة من سلاح الرشاشات وفصيل من الفرسان يتولاها القائد دودو فتنفسنا الصعداء.

صرت منذ مساء اليوم الذي قبلُ وقد نفد مني التبغ ولم يسعفني الشاي بديلاً عنه. ولاحظ خادمي الضيق الذي كنت فيه، فطلب مني رخصة تسمح له بالمرور من مراكزنا. ثم لم يلبث أن عاد بعد ساعتين

يحمل نصف دزينة من العلب المنهوبة من المخزن. فكان تبغاً لم يسبق لي أن دخنت أفضل منه.

20 أبريل

بعد ستين ساعة من الصخب والجلبة ها نحن اليوم ننعم بشيء من الهدوء. وقد صارت معظم المنازل ترفع فوق أسطحها أعلاماً بيضاء أو ثلاثية الألوان لتحاشي التعرض للقصف، وصار وادي فاس يجرف ركاماً من الأشياء المنهوبة كان الناس يتخلصون منها خشية التعرض للانتقام.

وتفرق معظم العساكر المتمردين. وأما من بقي منهم فكانوا لا يزالون ومعهم شركاؤهم من الدهماء مسيطرين على بعض الأحياء من فاس الجديد وعلى الملاح. وقد جاء بعضهم مستسلماً فسخّروا لحراسة بعض المواضع التي لم نكن نملك قوات لنجعلها عليها.

واجتمع بعض الشرفاء والعلماء والأعيان عند السيد رينو، ومعظمهم أصدقاء شخصيون لقنصلنا، وقد شرعوا يجتهدون في إعادة الهدوء. وصار الباشا وخليفته يحاولان وضع مصلحة تقوم على نشر النظام وتنظيم دفاع الأحياء.

وقد أفلحنا بفضل الجنود الذين جاء بهم القائد دودو، يعززهم الجنود الذين في ظهر المهراز، في تحرير الأحياء القريبة وإعادة احتلال الحصون والقلاع الصغيرة في شمال المدينة وجنوبها.

21 أبريل

ذهبت هذا الصباح برفقة السيدين بيرناي وكاستيل إلى القصر وإلى الملاح. وقد كانت المدينة ممنوعة عن الداخلين، فما استطعنا الدخول



اليهود الملتجئون إلى أقفاص الحيوانات داخل القصر

إليها إلا بتسلق أسوار البطحاء واجتياز حدائق بوجلود. وطلبنا إلى بعض مخازنية القصر في باب الدكاكن أن يقودونا إلى السلطان، فوجدنا مولاي عبد الحفيظ داخل أحد مخازنه منبطحاً فوق ركام من الطرود والحزم الصغيرة، وهو قلق مشغول البال، زائغ النظرات، يلوذ بخرس ينم عن شراسة وغضب.

وجدنا ساكنة الملاح كلها، وهي عشرة آلاف نسمة، مكومة في ساحات دار المخزن؛ حيث بدأت تهلك من الجوع لا ينفعها الخبز الذي أمر مولاي عبد الحفيظ أن يهيأ لها. وقد آوينا النساء منهم والأطفال في الأقفاص الفارغة من معرض الحيوانات بجوار القرود والحيوانات الجائعة لوقايتهم المطر. فكان مشهداً غريباً ومضحكاً، بقدر ما هو محزن يدعو إلى الرثاء.

ما عاد شارع الملاح الكبير سوى كومة خرائب وأبنية متداعية وأواني مطبخية محطمة تتكوم بينها جثث الرجال والنساء والأطفال قد تورمت وانتفخت في صورة بشعة شنيعة، تحيط بها عصابات من الجرذان. وبطول الأسوار المنهارة بعض الكلاب قد شبعت حتى صارت لا تقوى على الحركة فهي لا تزيد على أن تكشر لنا عن أنيابها. ورأينا لفافة من شريعة موسى ممزقة متسخة تسبح في بركة سوداء من دم متخثر تنبعث منها رائحة لا تطاق.

وتجرأ بعض اليهود على تعقبنا فأخذوا يجمعون موتاهم. فلما انتهينا إلى المقبرة حيتنا بعض القوات من ظهر المهراز بإطلاق قذيفة من عيار 65 ومن حسن الحظ أن كان مداها قصيراً جداً، ولوحنا بمنديل أبيض فتوقف ذلك القصف.

فلما عدنا إلى المدينة علمنا أن الجنرال موانيي قد وصل لتوه من تيفلت بعد مسير شاق عسير. وقد جاء معه بتسع سرايا وبطارية وفصيل من سلاح الرشاشات وفصيلين من الخيالة. فصار بحوزتنا حينئذ خمس كتائب

ونصف كتيبة وبطاريتان؛ واحدة من عيار 75 والثانية من عيار 65 وثلاثة فصائل من سلاح الرشاشات وفصيل من سلاح الهندسة العسكرية وسريتان، علاوة على جنود المخزن الذين جمعهم من بقي وفياً [لنا] من قياد الرحا في قصبة الشراردة.

22 أبريل

المدينة هادئة. توزع جنودنا بين فاس البالي وفاس الجديد ومعسكرات دار دبيبغ وظهر المهراز، يحررون جميع المنافذ ويقومون بدوريات في الأحياء. ثم قاموا بتجميع الجنود المخزنيين المتمردين الذين كانوا لا يزالون في المدينة وجردوهم من السلاح. وأوقفوا كذلك بعض الأهالي غير الحاملين لتصاريح ممن شاركوا في المذابح وأعمال النهب.

وعين السيد رينو لجنة لتقوم على الاحتياجات الماسة لليهود، وقامت السلطة العسكرية [الفرنسية] والقنصلية البريطانية بتوزيع المؤن عليهم.

لقد صرنا نعرف اليوم العدد الإجمالي لخسائرنا. فهي قد بلغت في المدنيين 9 قتلى (بينهم امرأتان) وجريحين اثنين، وبلغ عدد الضباط الذين قتلوا في البعثة العسكرية 19 ضابطاً وضابط صف، وبلغت الخسائر في صفوف الرماة 35 قتيلاً (بينهم ضابطان) و70 جريحاً (بينهم 5 ضباط) أي ما مجموعه 63 قتيلاً و72 جريحاً. وأما الخسائر التي وقعت في [ساكنة] الملاح فقد بلغت 51 قتيلاً و40 جريحاً. ومن المتعذر علينا أن نذكر ولو بصورة مؤقتة، ما وقع من خسائر في الطوابير المتمردة وفي الساكنة المسلمة.

وأُعلنت حالة الحصار، فشُرِع في تجريد السكان من السلاح. وفي يوم الجمعة الذي بعد، 26 أبريل، أمر السلطان أن تُقرأ في خطبة المساجد رسالة استنكر فيها المذابح التي شهدتها فاس ودعا الأهالي إلى التزام الهدوء.

تقول تلك الرسالة :

«خدامنا الأرضين وخير أغوات العسكر السعيد وقواد سيدي وكافة العسكر.
وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله وبعد

فقد رأيتم ما صدر من بعض العسكر من الطيش والهرج وما أداهم إليه زيغهم وخروجهم عن الطاعة من إيقاع الفتك بالحرابة وغيرهم حيث ما لقوهم بالطرق وفي محلات سكناهم وتعدى ذلك إلى التمثيل بجثثهم ونهب حوائجهم وسريان تلك الفتنة إلى الاعتداء على اليهود في ملاحهم والتعدي على الصاكة والبنك ونهب ما بهما وكل ذلك بغياً وعدواناً وزيغاً وطغياناً ومن غير مراعاة ما تلحقهم على ذلك من العقوبة ولا اعتبار بما يجري عليهم من الأحكام بل تسببوا بذلك إلى تعميم الهرج وإيقاد نار الفتنة التي قال الشارع في حقها الفتنة نائمة لعن الله موقظها.

بل لما ورد على جنابنا الشريف بدار المخزن بعضهم في خلال الهيعة وحال وقوع الطيش أمرناهم بملازمة الطاعة والإقلاع عن أسباب التشويش فلم يمتثلوا وارتكبوا ضد ما أمرناهم به من السكينة وهاجوا وماجوا حتى عمت المصيبة وشمل الفزع ولم يراعوا ما كابده الحرابة من السهر على تعليمهم وتدريبهم وتلقينهم دروس العسكرية النظامية التي صار لهم بها من الاعتبار والأهمية ما جعلهم معدودين من جملة العساكر التي تقضى بهم المهمات ويعول عليهم في دفع الملمات. ولكن خاب الظن فيكم وأتيتم من منكر الفعل وقبيح العمل ما تخجل منه الوجوه وتسود به الصحائف وتلك عاقبة الجهل بعواقب الأمور.

وعليه فإن جنابنا الشريف باذل مجهوده في إرجاع السكينة إلى طورها وإلحاق العقوبة بمن يستحقها. ولتعلموا أنكم عسكر جنابنا الشريف وقوة المخزن وخدام مصلحة البلاد والعباد وأن جنابنا الشريف على اتحاد تام مع الدولة الفرنسوية ومحبة أكيدة وأن كل ما يصدر من أحدكم من الأمور المذمومة فهو ضد إرادة جنابنا الشريف وخلاف مقصود المخزن ونقيض مصلحة الأمة والوطن.

وبناء على ذلك نأمركم بملازمة الحد والتمسك بالطاعة والمحافظة على السكينة والتمشي على طبق ما يقتضيه القانون العسكري وما يرشدكم إليه حرابتكم حتى تبرهنوا بحسن سيرتكم على أن العقلاء منكم غير راضين بما صدر من الجهلاء وتمحوا حسناتكم سيئات السفلة منكم.

ألهمكم الله الرشد وجنبكم موارد الردى والسلام في 7 جمادى الأولى عام 1330 هجرية».

ويبقى علينا أن نبحث في الأسباب التي كانت وراء اندلاع العصيان واستخلاص العبر منها.

لقد اعتبر السيد رينو تمرد الطوابير حادثاً فجائياً وعزاه إلى أسباب عسكرية خالصة. وأما الجنرال موانيي فذهب به الاعتقاد إلى أن هذا التمرد كان كله من تدبير المخزن. وقد كان هذان التصوران بعيدين اثناهما عن الحقيقة.

وأما السبب العميق الذي كان من وراء تمرد الجنود المخزنيين ووراء الاعتداء الذي استهدف السفارة وقت مغادرتها لفاس، والهجوم اللاحق على العاصمة من القبائل، فكان الحالةَ النفسية التي لم أفتأ أثير إليها الانتباه في رسائلي إلى صحيفة «**الطان**»، والتي وصلت آخرتُها، المؤرخة في 12 أبريل، إلى باريس في 20 [أبريل]، بعد ثلاثة أيام من بداية التمرد. هذه الحالة النفسية صارت كالعدوى تنتشر في جميع طبقات السكان، التي كان منها بطبيعة الحال العساكر الذين جنِّدوا من بين الرعاع، وبقوا على اتصال بهم.

وما مر وقت يسيرٌ حتى سمعنا السيد بارثو يجهر بهذه الحقيقة من على منصة البرلمان، وهو يومئذٍ رئيس لجنة الشؤون الخارجية :

«... إن ما ينبغي قوله هو أن أحداثاً خاصة قد وقعت في جو من الاستياء - حتى لا نستعمل عبارة أخرى - وإن ما يبعثنا على الاستغراب أن نرى السلطات المكلفة بتمثيل فرنسا في المغرب لم يستثرها هذا الأمر... وقد كان يجدر بها أن تتخذ له بعض الاحتياطات... ومما يدعو إلى الأسف أن يكون منا أناسٌ يعيشون في المغرب منذ وقت طويل، ثم لا تراهم يعون شيئاً من أوضاعه...».

ومن المؤكد أن السلطان يتحمل نصيباً عظيماً من المسؤولية في هذا الانحراف، فقد ساهم فيه بالموقف الذي كان منه قبل مجيء السيد رينو وتعجله مغادرة فاس بعد توقيعه على معاهدة الحماية، ومزاعمه للعلماء أنه لم يذعن [للتوقيع] إلا اضطراراً. وليس ببعيد أن يكون هذا الكلام تعرَّض للتحريف والتهويل من وسَط مستاء من مجيء نظام للأمن ولا ببعيد كذلك أن يكون بعض كبار الموظفين والقادة العسكريين من الأهالي لم يبذلوا الحمية المطلوبة في مواجهة العصيان العارم، أكان ذلك منهم بدافع النكاية، أو الخوف، أو لمجرد التهاون والخمول، فعجزوا عن إخماده. غير أن ما قلنا لا يبرر تجريمهم بدفع الجنود إلى التمرد.

كان العساكر قد بلغ منهم الاستياء العام كل مبلغ. وأما ما دفعهم للخروج، في آخر الأمر، إلى التمرد فإجراءاتٌ عسكرية شتى، سأقتصر على الإشارة منها إلى اثنين رئيسيين؛ الجراب والإطعام المشترك. فلئن كانت الجرابات في الواقع لم توزَّع بعدُ فإن الجنود قد أمكن لهم أن يروها في المشور، في صناديق كبيرة ذات فتحات، وكانوا يعرفون أنها موجهة إليهم. والحال أن العسكري المغربي كان يرى الجراب لافرق بينه وبين البردعة، ويرى في حمله إهانة لم يكن ليرضاها لنفسه بأي حال. وأما مسألة الإطعام المشترك فها هي ذي أبيِّنها في غير ما إطالة. إن الجنود المخزنيين، ومعظمهم كانوا يعيشون بمعية نساء، قد انخرطوا في الجندية طواعية، بموجب ضابط (عقد) يضمن لهم أجرة من خمسة بليونات (حوالي فرنك) في اليوم. فكانوا يطعَمون حسب ما يستطيعون، وكثيراً ما يكون طعامهم رديئاً. فتقرَّر لتحاشي هذا الأمر أن يُرفع من أجرهم اليومي إلى ستة بليونات، والاحتفاظ بنصفها، وحتى ثلثيها، لتُدفَع في الإطعام المشترك. وقد أعلن هذا الإجراء إلى الطوابير، من دون إعداد، وقت أن كان يتم دفع أجر يوم 17 أبريل.

فكانت تلك هي الشرارة التي أشعلت النار في الهشيم. فلم ير الجنود غير الأمر الفظيع المتمثل في إنقاص أجرهم، فمنهم من خرج إلى الاحتجاج ومن تجرأ بفعل ما رأى فرفع صوته بالاستنكار؛ وبعد أن كانوا يدمدمون بما في صدورهم لم يلبثوا أن خرجوا إلى الصراخ، وبعد أن كانوا يكتفون بالصخب والجلبة إذا هم قد أخذوا في إطلاق العيارات النارية في الهواء. وقد توجه وفد عنهم إلى السلطان للاحتجاج على وقف الضابط. فدعاهم للالتجاء إلى مسجد مولاي عبد الله، ووعدهم بحل النزاع مع المدربين. غير أن هذا الجواب من السلطان لم يُرضِ المتظاهرين فانتشروا في المدينة يدعون المسلمين إلى الجهاد. فانضمت إليهم الدهماء وابتدأت المجازر وأعمال النهب.

لقد اندلع التمرد كطلقة بارود في سماء هادئة، في الظاهر على الأقل. وإذا كان الأمر قد حصل على هذا المنوال، فلأن مدربينا ما عادوا يراعون حال جنودهم. لقد فقد رؤساء البعثة العسكرية، من فرط انهماكهم في مشروع تنظيم الجيش الشريف، كل اتصال بقواتهم، وأما معظم الضباط الذين كانوا يلجأون إليهم في التدريب فلم تكن لديهم الخبرة اللازمة. وقد رأينا في فصل سابق من هذا الكتاب* الصعابَ التي واجهت البعثة العسكرية في الحصول على مدرِّبين. حتى إذا قررت وزارة الحربية أن تستجيب، بعد لأي، إلى هذا الأمر إذا هي تختار معظم المدربين من الفيالق الموجودة في العاصمة. فكانت غلطة شنيعة؛ إذ لابد للمرء ليتولى قيادة الجنود الأهالي أن تكون له الحنكة والمهارة اللازمتان، وهي حنكة ومهارة لا تُكتسَبان بغير التعلم الدؤوب.

* (هـ.م) ذلك هو الفصل الخامس عشر.

الفصل الحادي والعشرون

الجنرال ليوطي

قضت الأحداث التي وقعت في ما بين 17 و21 أبريل على آخر ما تبقى من السلطة الشريفة. وإذا السلطان قد صار من حنقه يهددنا بفضيحة، إن نحن لم نهيء له على الفور سبيل الرحيل إلى الرباط. وتفكك المخزن واختل، فما عاد لنا فيه من نفع، وجرِّد الجنود المخزنيون من أسلحتهم ووضِعوا تحت المراقبة في ثكناتهم. وفي فاس نفسها لم يكن الهدوء الذي أفلح جنودنا في نشره إلا سطحياً، فيما كان التمرد من حولها ضارياً، والقبائل تتهيأ للهجوم على العاصمة. وكان السلاح الذي بأيدينا لا يكاد يزيد عن خمسة آلاف بندقية لمواجهة هذا الطوفان العارم.

وقد تكون خطورة الوضع أوحت إلى السلطتين المدنية والعسكرية بتكثيف التعاون على كافة الهيئات. فلم يتحقق شيء من ذلك التعاون فعلاقاتهما التي لم تكن في يوم من الأيام بالعلاقات الجيدة قد زادت توتراً في تلك الأثناء. وكان الجنرال موانيي موقناً من الخيانة يلقاها من السلطان ومن المخزن ومن ساكنة فاس قاطبة، فكان في نيته أن يعلن حالة الحصار ويقوم بأعمال انتقامية وينزل بالسكان الضرائب الثقيلة ليُسخرها للحرب. وأما السيد رينو، المضطلع بوظائف المقيم العام وإن لم يقلَّد لقبَه، فقد كان يعارض هذه الإجراءات، ويبرر اعتراضه، وهو فيه محقٌ بالضرر الفادح الذي ستنزله ببورجوازية فاس؛ يريد بها القسمَ الصالح من السكان الذي لم يشارك في المذابح التي استهدفت مواطنينا، بل إن من

هذه البورجوازية أفراداً قدموا الحماية لكثير من مواطنينا وأنقذوا حياتهم وكان لهم في ما بعد إسهام كبير في استتباب الهدوء والنظام.

ولقد أجازت الحكومة إعلان حالة الحصار ومنعت الانتقامات، وأمرت بتأجيل العمل في تحصيل أي تعويض. وأدركت الحكومة الحاجة المستعجلة لجمع القوات في يد واحدة لا يمكن أن تكون، ولو مؤقتاً على الأقل، إلا يد رجل عسكري. وقد كان اختيارها، الذي اقترحه السيدان بوانكاري وميليران ولقي التأييد من السيدين بريان وبورجوا، وحظي بالتصديق بعد شيء من التردد من السيد فالبير، كان هذا الاختيار هو الأنسب في تلك الظروف. فقد جاء مرسوم بتاريخ في 27 أبريل يعين الجنرال ليوطي مفوضاً مقيماً عاماً للجمهورية الفرنسية في المغرب. وها هو ذا أخيراً الرجل المناسب في المكان المناسب!

كان تمرد القبائل في تلك الأثناء يأخذ في الاتساع، وهدفها في الاتضاح والتجلي. وقد جاءني أحد أصدقائي من بني سادن في 12 ماي أو نحوه يخبرني بأن حرْكة تكونها قوات من كافة القبائل من جهتي الشمال والشرق تحتشد عند أولاد الحاج في عين بومرشد على بعد أقل من عشرين كيلومتراً من فاس. وإن هي إلا بضعة أيام حتى جاءني هذا الصديق يقول لي إن الحركة قد باتت قريبة من فاس، وإنها أقامت محلتها في الحجرة الكحيلة على وادي سبو، وإن قوامها عشرة آلاف رجل، وإنها تتلقى في كل يوم تعزيزات جديدة، وإن سوقات أخرى معادية تتمركز من حول صفرو.

وقد أخبرت السيد رينو بالأمر. لكن على الرغم من المعلومات المتوافقة للبعثة العسكرية والقائد لاموث قائد الاستخبارات في هذه النازلة، وعلى الرغم من الدرس الذي لقّن لنا في 17 أبريل، فإن وزيرنا ظل تحت تأثير «وسيط الوحي» وعلى تفاؤله المكين لا يريد الرضوخ للأمر الواقع.

كان نزول الجنرال ليوطي في الدار البيضاء في 13 ماي ووصوله إلى فاس في الساعة الخامسة من مساء يوم 24 منه. وقد خرج السيد رينو والوزير الصدر والسيد كايار والجنرالان موانيي وبرولار لملاقاته على مقربة من نزالة فراجي وإطلاعه على الأوضاع كلاً حسب ما يريد له أن يعرف من تلك الأوضاع.

وكنت أزمع الذهاب لأقدم نفسي إليه في دار المنبهي حيث كان يُنتظر وصوله. لكن أحد الضباط المرافقين له نبهني براً إحساناً أنه «متكدر المزاج»، وقد وجدته بالفعل في أسوإ ما يكون مزاجاً، يدور في صحن تلك الدار يحكي أسداً في قفص؛ يجهد دون جدوى للتوفيق بين المعلومات المتناقضة التي جاءته بها السلطات المدنية والأخرى العسكرية. كان يدمدم متذمراً :

– ها أنذا مشلول لا أعرف لي وجهة؛ فواحد يقول لي إن الأمور كلها على ما يرام وآخر يقول إننا خـ...[اسرون]*.

ثم توقف فجأة قبالتي وقال :

– وأنت يا وايسجربر ما رأيك؟

فلم أجد بداً من أن أكرر على مسامعه ما نقل إليَّ مخبري الذي من بني سادن، ثم زدت عليه قولي إن الهجوم على فاس يبدو لي وشيكاً وإن نجاحه أو فشله يتوقف أكثر ما يتوقف على عدد المدافع والبنادق التي يمكننا مواجهته بها.

وقد كررت هذا الجواب على مسمع السيد رينو فما استساغه معاونوه. وصارت «الحرْكة» التي تحدثت عنها موضوعاً للتندر الرخيص، وصرت

* (هـ.م) «Nous somme [...]».



المريشال ليوطي

أُنعَت باليائس، بله الممسوسِ المهووس. وإني لعمري براء من التشاؤم براءتي من المس والهوس. لقد كنت أحمل هماً وطنياً خالصاً، فما وجدت إلى ذلك اليوم من يقاسمني إياه ممن يعنيهم الأمر. وكنت أواكب الأحداث باهتمام مشبوب لإدراكي أني كنت أعيش لحظة عظيمة الأهمية على مستقبل فرنسا والمغرب.

جاء الجنرال ليوطي بمجموعة من الكتائب يقودها الكولونيل كورو. وما كاد يصل حتى أدرك أن المدينة المحاصرة من كل الجهات بأسوارها المهدمة البالغ قطرها خمسة عشر كيلومتراً والمغمور جزء منها بأدغال كثيفة من حدائق وبساتين إنما هي مصيدة هائلة، وأنه لاسبيل إلى الدفاع عنها إلا باحتلال كافة المرتفعات المحيطةِ بها ومهاجمة المحاصِرين. فأعطى أوامرَه لهذا الغرض، فتشكل رتل في دار دبيبغ، وأخذ الأهبةَ لمهاجمة التجمعات المعادية التي كان وسيط الوحي ينكر وجودها. لكن الأحداث باتت تسير في تسارع.

وفي 25 ماي قدم السيد رينو الجنرالَ [ليوطي] رسمياً إلى السلطان الذي أقام على شرفه حفل شاي في حدائق بوجلود على ضفاف وادي فاس، وصار يجهد في تبديد الانطباع السيء الذي يمكن أن يكون خلفه عند ضيفه التعبير عن الاستياء الواضح الذي كان منه لدى تلقيه خبر تعيينه.

وأقام السفير والسيدة رينو في المساء حفل عشاء في دار الكلاوي على شرف الجنرال ليوطي. فانسحب الجنرال في وقت مبكر ليعطي أوامره إلى الرتل المتحرك الذي كان يتعين أن يرحل في اليوم الذي بعد، وكان سائر الضيوف يتأهبون هم أيضاً للانصراف. وبينما كنت أودع ضيوفنا إذا أحد أعضاء السفارة يبادرني بالسؤال الذي بات مألوفاً :

- كيف حال حرْكتك يا دكتور؟

في تلك اللحظة بالذات - وقد نظرت في معصمي فكانت الساعة العاشرة - سمِعت فرقعة قصف في الظلام منبعثة من موضع في ناحية الشمال.

فأجبته :

- ها هي ذي!

ولم يلبث أن انضاف إلى صوت البنادق هريرُ الرشاشات، وسار القصف في تصاعد، وطال قسطاً كبيراً من الليل.

ونما إلى علمنا في اليوم الذي بعد أن فاساً البالي قد تعرضت لهجوم ساحق، ولاسيما طرفها الشرقي، واتصل الهجوم من باب الجيسة حتى باب فتوح، وتولت الدفاع عن الجبهة التي تعرضت للهجوم كتيبتا فيليپو ولابوردوري. وقد صمدت مراكزنا التي في باب فتوح وباب سيدي بوجيدة غير أن المهاجمين لم يلبثوا أن اخترقوا نواحي هذه الباب الأخيرة من خلال الفتحات التي في الأسوار وتحقق لهم اكتساح المدينة السفلية والنفاذ إلى قشلة تامدرت بجوار باب فتوح ولبثوا فيها، لم يُدفعوا عنها إلا في زهاء الساعة السابعة صباحاً، بعد الاستعانة بالتعزيزات المرسلة من دار دبيبغ.

لقد أفلح المهاجمون في ارتقاء المسجد المطل على باب الجيسة باستعمال الحبال والكلاليب، فأمكن لهم أن ينزلوا الخسائر الثقيلة بالفوجين من فرقة الرماة الرابعة اللذين كانا يتوليان الدفاع عن تلك الباب. فلما جاءت التجريدات المرسلة لتخليصهما في الفجر وجدت في صفوفهما 17 قتيلاً و25 جريحاً، بينهم الملازم شاردوني، قائد المركز، الذي وجدوه مصاباً إصابات مميتة.

وقد أفلح الرماة في الصباح في تصحيح الرمي، فتمكنوا من تشتيت المهاجمين. حتى إذا تم لهم تخليص نواحي المدينة كلياً، قام الكولونيل مازيلير، تسنده المدافع، بدفع المهاجمين حتى وادي سبو.

لقد أوقع هذا الهجوم الليلي في صفوف قواتنا في الإجمال 38 قتيلاً بينهم ضابطان و85 جريحاً بينهم 6 ضباط.

فاس، 28 ماي

جاءني صديقي سودان في الساعة الثانية بعد الزوال يدعوني إلى ارتقاء السطح، فرأينا من هناك تجمعاً عظيماً عند ممر زلاغ المسمى باب بوزطاطة*. وسرعان ما امتلأت قمته، وإذا الجبل قد صار يحكي خلية نحل. وسارع ألوف الأهالي صوب المدينة في مجموعات صغيرة وأخذوا يتقاطرون على الوهاد والأودية. وشرع الرماة من حصن الشمال وبطارية المرينيين من حصن الجنوب يرشونهم بغزارة لكن دون أن يحققوا نتيجة ذات بال، أو أنهمَ لم يفلحوا في وقفهم على كل حال.

وظلت الحشود على تلك الحال حتى الساعة الخامسة. ففي تلك اللحظة خلت جوانب زلاغ، إذ احتشد جميع المهاجمين في الحدائق التي في شرقي المدينة. وبُعيْد ذلك تجدد الهجوم على باب الجيسة وعلى باب فتوح ثم على حصن الشمال. لكننا كنا قد شرعنا منذ 25 [ماي] في تنظيم دفاع المدينة. فأمكن لنا أن ندفع العدو إلى الواجهتين الشمالية والجنوبية. وفي الساعة السادسة انتهز المهاجمون من الواجهة الشرقية سبيل الدخول التي وجدوها في مجرى أحد روافد وادي فاس عند مخرجه من المدينة فنجحوا في النفاذ حتى وسط المدينة.

* (هـ.م) كتب Boudtata.

صارت الوضعية حرجة. وقد أوكل الجنرال ليوطي إلى الجنرالين موانيي وبرولار بالدفاع عن الأسوار وكلف الجنرال كورو بتأمين الدفاع الداخلي عن القسم العلوي من المدينة بإقامة حاجز حصين من الجنود في سائر الأزقة المنحدرة من المدينة السفلية ليعترض هناك سبيل المتمردين في انتظار أن يصير في المستطاع إزاحتهم عنها بالقصف. ثم كوم الجنرال في صحن الدار جميع الأغراض التي لا ينبغي أن تقع بأي حال في أيدي المهاجمين ووضع إلى جوارها صفيحة بنزين ليتسنى له إحراقها عند الاقتضاء.

وخيم الليل على المدينة التي احتل الأعداء جزءاً منها، والتي ربما تكون قد صار مقدراً عليها التدمير.

29 ماي

استيقظتُ في الصباح الباكر على غناء الطيور... المدافع صامتة خرساء وليس من صدى لطلقة بندقية. صمت شامل في صبيحة ربيعية.

وفي الساعة السادسة ذهبت للاستعلام، فعلمت أن العدو قد أخلى المدينة وتراجع إلى ما وراء جبل زلاغ ووادي سبو، لِـما قد يكونُ استولى عليه من اليأس بفعل الخسائر التي تكبدها في اليوم الذي قبلُ والخيبة التي لقيها في موقف الفاسيين الذين لم يقدموا له كل ما كان يعول عليه من العون، وكذا الوحشة التي وجدها في متاهة أزقة فاس المظلمة.

لم تزد خسائرنا في اليوم الذي قبل عن 6 قتلى و26 جريحاً، وأما الخسائر التي وقعت في صفوف العدو فقدرت بنحو ألف قتيل. فصرت ترى ضواحي باب الجيسة خاصة وقد صارت أشبه ما يكون بمدفن للعظام. فيكون رماتنا قد انتقموا شر انتقام لضحاياهم الذين وقعوا في هجوم 25 [ماي].

وأقام السلطان حفل فطور للجنرال وأعوانه. فكانت وجبة تخللتها طلقات البنادق من نواحي المدينة كلها. فلما فرغ الجنرال من الفطور دار بينه ومولاي عبد الحفيظ حديث خاص استغرق وقتاً طويلاً. ثم ذهب ليتفقد الجرحى في المستشفى.

30 ماي

ظلت الأوضاع في تفاحش. فقد كانت محاصرة المدينة تسير نحو الاكتمال في جهتي الشمال والغرب. وانقطعت خيوط البرق على طريق مكناس. وانقطع البريد وتعرض الرقاصة للتعليق في الأشجار أو فوق الخوازق. وبات السكان يشتكون من ندرة بعض المواد والسلع الضرورية.

كان المتمردون يشكلون معسكرات كثيرة في السفح الشمالي من زلاغ، بدءاً من سيدي أحمد البرنوصي حتى وادي سبو وفي الحجرة الكحيلة حيث يوجد المركز العام لقائدهم، الذي سمى نفسه الشريف سيدي محمد الحجامي. لكن لم يكن يعرف بحقيقته أحدٌ. واحتشد عساكر آخرون ممن يأتمرون بأوامر الفقيه سيدي رحو في الجنوب الشرقي من فاس خلف بن جليق. وكانت عصابات من الخيالة تجوب سهل سايس تنهب العزيب وتسلب القوافل وتقتّل الحراس.

وأما الحاميتان المخزنيتان اللتان في صفرو والحاجب، فقد بقيتا على وفائهما [لنا]. وقد تعرضت اثنتاهما لهجومات عنيفة فأفلحتا إلى ذلك الحين في ردها.

وبمجرد وصول الجنرال شرع في الاتصال بالسلطات وأعيان المدينة من باشوات وقضاة وعلماء وتجار، وأمكن له عن طريقهم أن يرد إلى العناصر المسلمة من السكان الثقة التي أبانوا لنا عنها في السنة التي قبل، وقت

أن قام الجنرال موانيي بفك الحصار عن فاس، لكنهم فقدوها كلياً في ما بعد.

لكن إذا كان الهدوء قد تحقق في المدينة نفسها، فإن الأوضاع خارجها كانت لا تزال يعمها الاضطراب. فقد ثار علينا الشمال عن بكرة أبيه. وكان سوقات القبائل المهيجون بالنداءات إلى الجهاد يطلقها روكي جديد يعسكرون في نطاق قريب جداً منا، فهم يتأهبون لشن هجوم كاسح على العاصمة التي وقعت بأيدي الكفار. ولقد سعينا إلى تدارك ذلك الهجوم بإعداد رتل قوي ليقوم بالهجوم في صباح اليوم الذي بعد.

1 يوليوز

عند بزوغ النهار إذا رتل يتألف من 5 كتائب و9 فصائل من الفرسان و3 فرق مجهزة بمدافع من عيار 75 و3 من سلاح مدفيعة الجبال قد تجمعت عند باب فتوح وتوجهت ناحية الشرق يقودها الكولونيل كورو.

وفي الساعة السادسة اخترقت منطقة البساتين، وتجاوزت قنطرة وادي بوخرارب، المسماة قنطرة بن طاطو، واتصلت بطليعة العدو الذي كان يتوجه لمهاجمة المدينة. وأعمِل سلاح المدفعية، وبدأت المعركة على مسافة بعيدة. ثم دفع الرتلُ العدو أمامه، وصار يتقدم صوب الجهة الشمالية الشرقية فوق القناطر البالية على الضفة اليسرى من وادي سبو.

وفي حوالي الساعة الثامنة توقفت قواتنا من جديد بسبب وصول حشد المهاجمين. فقد تجمهر بين اثني عشر وخمسة عشر ألفاً من الرجال حسب القبائل من حول أعلامهم المفردة. وشرع الرماة في القصف فأشاعوا الاضطراب في صفوف المهاجمين، وكانت منهم بضع هجمات لم يصيبوا بها أهدافاً، ثم أخذوا في التراجع. وفي الساعة العاشرة وصل الرتل

إلى أعالي ضريح سيدي يعقوب على بعد فرسخ من فاس. ومن هناك تكشف له هدفه؛ معسكر الحجامي ورجاله ركوب على وادي سبو على بعد أربعة كيلومرات ناحية الشمال.

وبعد قصف شديد بالمدفعية، انتقل الرتل إلى الهجوم، ثم سار يتقدم بسرعة، إلى أن تم له اكتساح المعسكر. فاهتز كيان العدو وصار أفراده يفرون في خضم من الفوضى، تاركين الخيام والمؤونة والقذائف في أثرهم، ليلوذوا بالمرتفعات الجبلية في قنصرة وبورديم.

وجدنا في المحلة التي فر عنها أصحابها خيمة الحجامي، ووقعنا بين أوراقه على أمر بمهاجمة فاس قد أعد أحسن إعداد؛ فهو يحدد لكل قبيلة ومجموعة نطاقاً لهجومها؛ ونرى فيه أن سائر القبائل التي في مكناس والتي في تازة والتي في الريف والتي في الأطلس المتوسط كان لها تمثيل بين المهاجمين.

وبعد الاستراحة الطويلة أُضرمت النار في المعسكر. وسرعان ما عاد الرتل بهدوء إلى الجهة الجنوبية الغربية. إلى أن جاء إلى أعالي سيدي شافع خلف الرعن الشرقي من زلاغ، وهناك أقام معسكره.

2 يونيو

بعد أن قام ذلك الرتل بتخليص السفح الشمالي من زلاغ وتشتيت العدو عن لمطة؛ حيث وقع على آثار لعدة خيام قد فر عنها أصحابها على عجل، توجه الرتل إلى فاس عبر الممرات نفسها التي كنا رأينا حشود العدو خمسة أيام قبل تنزل منها علينا. وفي الساعة الرابعة وصل الكولونيل كورو وقواته الشجاعة إلى باب الجيسة حيث كان بانتظارهم الجنرال ليوطي. وهناك تلقوا التهانئ التي هم جديرون بها حقاً من لدن السلطات المدنية والعسكرية الفرنسية والمحلية.

لقد كبدتنا تلك العملية 10 قتلى كان بينهم الملازم أول ماص من القوات السنغالية ومدرب القوات الشريفة الأنجليزي ريدمان سليل أعرق أسرة أوروبية في مدينة الجديدة، والذي تم اعتماده من لدن بعثتنا العسكرية، و28 جريحاً بينهم 4 ضباط.

وفي اليوم الذي بعدُ تلقينا الخبر السعيد بأن الحكومة قد منحت الكولونيل كورو النجمتين اللتين بوأتاه لأن يصير وهو في سن السادسة والأربعين أصغر جنرال في صفوف الجيش الفرنسي.

لقد حققت عمليته النتيجة المبتغاة؛ فقد تم إبعاد المتمردين إلى عشرين كيلومتراً عن المدينة، وخمدت لديهم العزائم القتالية بصورة تدعو إلى الاستغراب. فإذا مدينة فاس قد عادت إلى حياتها المعتادة وعادت تنعم بالهدوء، بما يسمح للمقيم العام بالانكباب على تنظيم شؤون الحماية.

وقد حصل في البداية من مولاي عبد الحفيظ على تعهد بألا يكلمه لشهور ثلاثة في التخلي عن العرش، والتزم الجنرال في المقابل بأن يؤمن له سلامة الرحيل إلى الرباط.

وفي 6 يونيو رحل السلطان عن فاس وخلَّف عليها أخاه مولاي يوسف. وفي الوقت نفسه رحل السيد رينو. وافترق الموكبان عند زكوطة فاتجه أحدهما صوب الرباط واتجه الآخر صوب طنجة؛ حيث كانت «الدوشايلا» في انتظار الوزير لتقله إلى فرنسا.

وها إن الجو قد خلا للجنرال ليوطي ليطلق العنان لعبقريته في التنظيم.

فقد عمد إلى بقايا الحامية المخزنية المسرَّحة وإلى ألف من الرجال من غير الذين كان لهم ضلوع في الهياج الذي وقع في 17 أبريل، فشكل منهم نواة القوات المساعدة المغربية (وصيرهم في ما بعد إلى الرماة والفرسان

المغاربة). ووزعهم إلى أربع كتائب وسريتين وفرقة لسلاح المدفعية وفرقة لسلاح الهندسة العسكرية. وسرعان ما قُبلوا للقتال إلى جانب جنودنا فكانوا يبلون البلاء الحسن. وعلى هذا المنوال جرى تحويل طوابير صفرو والحاجب وعرباوة.

لقد قُطعت أشواط بعيدة في الأعمال الموجهة لحماية فاس من التعرض لهجومات جديدة في الوقت الذي كانت أرتالنا تجوب تلك الناحية لتُخضع القبائل فتعزز النتائج الأولية التي أحرزها رتل كورو.

وفي الوقت نفسه واصل الجنرال ليوطي غزوه المعنوي للفاسيين. وانبرى يعيد تثبيت سلطة المخزن حيثما أمكن لنا أن نسيطر على الأوضاع. وقد أسقط الغرامة التي كانت أنزِلت بساكنة فاس، ثم قام بإلغاء بعض الضرائب غير الشرعية ولا الشعبية، والتي إنما كان الغرض منها إثراء الأفراد على حساب الجماهير المفروضة عليهم. وكانت له محادثات كثيرة مع السلطات وأعيان المدينة لتبادل وجهات النظر واتصلت بينه وبينهم أواصر الصداقة والمودة.

والمحصَّل أن آيات الاعتبار والتوقير التي أحاط بها [نظام الحماية] في جميع الظروف السلطانَ وممثله في فاس، وإعادة تكوين الموظفين الإداريين المخزنيين، واستئناف الجلسات اليومية في المشور، واحترام الدين والعادات؛ كلها أمور أظهرت للساكنة عزمنا على حفظ الهيبة الشريفة وقضت على الخرافة القائلة إن السلطان سجين لدى فرنسا المعادية [للمغرب] والمناهضة للإسلام.

وسرعان ما ظهرت نتائج هذه السياسة، لكنها كانت لا تزال مقصورة على الصعيد المحلي، وأما بقية أنحاء البلاد فقد بقيت، في ما خلا الشاوية والرباط، تحمل لنا العداء المكين.

الفصل الثاني والعشرون

تمرد الهيبة

في فاتح يوليوز 1912، وقد صادق مجلس النواب على معاهدة الحماية بـ 44 صوتاً مقابل 85، بعد شهر من تفرق محلة الحجامي، كانت الوضعية على النحو التالي :

إن العمليات التي قام بها رتلا كورو ودالبيي في ناحيتي فاس ومكناس والعمل السياسي الذي كان من بعض الشرفاء، بعد أن أفلح المقيم العام في ضمهم إلى جانبنا، قد مكنت من إخضاع جهات تمتد على نطاق من ثلاثين إلى أربعين كلومتراً من حول هاتين المدينتين. وأما ما عداهما فقد ظل نهباً لفوضى عارمة.

ثم إن عملية إخضاع القبائل المجاورة للمدن قد كانت لا تزال في مبتدئها. وأما جبالة الذين على ضفاف وادي تازة وفي الأطلس المتوسط والذين تم إبعادهم مؤقتاً، فقد لبثوا على مدافعتهم لنا. فقد أقلعوا عن نزاعاتهم الداخلية وتبادلوا البرانس عنواناً للتحالف بينهم. ومن حسن حظنا أن كانوا يخضعون لثلاثة رؤساء أو أربعة لم يكن أي منهم يرضى بالائتمار بأوامر الآخرين. لكن كان يكفي أن يظهر عليهم رجل واحد كعبد القادر أو حتى روكي مثل بوحمارة، .... ليقوم علينا خمسون ألفاً من المتعصبين المسلحين العازمين على القتال «في سبيل الله» والفوز بالجنة.

كانت قبائل السهول الساحلية، في ما عدا الشاوية، تتخبط في فوضى عارمة. ثم إن الوضع في سهل الشاوية لم يكن بمختلف كلياً؛ فقد صار نفوذنا على هذه الناحية منذ أن انسحبت قواتنا المتحركة ينحصر في العمل والولاء اللذين كنا نجدهما من بعض أولئك الذينه جعلناهم عليها من الأطر السياسية والاجتماعية. وبتنا نلاحظ في ذلك النطاق كله سعياً من تادلة والسراغنة والرحامنة ودكالة إلى الاستزادة في الخيل والأسلحة والذخيرة.

وأما قبائل الحوز المحيطة بمراكش؛ حيث يوجد خليفة للسلطان من غير سلطة وباشا بلاحول ولاقوة فقد كانت في تنازع طاحن بفعل النزاعات المشتعلة بين كلاوة والمتوكي. فقد كان سي المدني لا يزال حتى السنة التي قبلُ هو الصدر الأعظم وأخوه الحاج التهامي باشا على مراكش فكان كلاوة يتصرفون كأنهم أسياد بدون منازع على القسم الأكبر من جنوب المغرب. فلما نزعهما مولاي عبد الحفيظ من السلطة اهتبل سي عبد الملك المتوكي نكبتهما فانتزع منهما التفوق، لكن الصراع ظل قائماً بين القبائل من اللفين المتعاديين.

وكنا نمسك بزمام الأمور في المنطقة الممتدة من ساحل أزمور إلى المهدية وناحية فاس ومكناس، وخط يربط بين المنطقتين من محطات لا تزال بعد لا يعمها الأمن، تتخللها بعض المراكز المحصنة : مونو وتيفلت والخميسات وسوق الأربعاء وبهت وعين الخروبة تخللتها وبعض المراكز المتقدمة، بما مجموعه عشرون ألف كيلومتر مربع؛ أي أقل من عشرين في المائة من تراب المغرب.

كان بيد الجنرال ليوطي وقتها 31 كتيبة و13 سرية و12 بطارية بمجموع قليل جداً من الرجال؛ إذ لم يكن عددهم يزيد عن 24.000 رجل. وكان القسم الكبير من هذه القوات يُجعل لحماية الموكب الذي كانت في

جيئة وذهاب كل يوم بين سلا وفاس. ثم إنه كان يتحتم التقليل من عدد المستخدمين والأعداد العظيمة من المرضى والجرحى، بعد أن ضاقت بهم الوحدات الصحية. فهذا مستشفى فاس وحده قد ضم منهم 400.

كانت هذه القوات لا تكاد تكفي حتى لضمان الأمن في المناطق التي أمكن لنا احتلالها والشروع في عملية إعادة التنظيم السياسي والاقتصادي لمجال ترابي يمتد من حدود المنطقة الإسبانية حتى وادي أم الربيع ومن المحيط الأطلسي إلى سفوح الأطلس المتوسط. لكن كان يبدو من المستحيل تحويل أقل وحدة من هذه القوات إلى هدف آخر.

وقد ظلت فاس، بفعل التهديد المتواصل عليها من الجماعات التي كانت تتكون في شرق سبو وفي جنوب صفرو، هي المنطقة الأضعف. فكان أن عسكر فيها المقيم العام بصورة مؤقتة، فعهد إلى الجنرال موانيي أن يقوم على تأمين اتصالاته بالساحل. وأما الجنوب؛ حيث لم يكن لعملنا العسكري من وجود، فقد كان يتعين علينا أن نقتصر فيه على القيام بعمل عن بُعد، يكون مبطلاً لمفعول ذلك الهياج، بتسخير القياد العظام وبذل جهدنا لتوحيد مصالحهم مع مصالحنا.

وفي ذلك الحين وصلت إلى فاس أنباء صارت تزداد إنذاراً عن الأحداث التي كانت تشهدها منطقة سوس؛ حيث نجح الفتّان الهيبة في إثارة موجة من العداء باتت تهدد بإشعال الحوز كله.

والسي أحمد الهيبة هو رابع أبناء [الولي] الذائع الصيت ماء العينين الذي يعود بأصوله إلى تيكنة في الصحراء، قبل أن يطرده الجنرال كورو من تخوم موريتانيا، فنزل في المنطقة الحدودية الجنوبية للمغرب. فأقام أولاً في السمارة بالساقية الحمراء ثم انتقل إلى تزنيت. وماء العينين هو نجل سيدي محمد الفاضل، وقد كانت له شهرة مكينة كولي كبير فهذا

جعله موضع إجلال وزاد من هيبته فكأنه ساحر من السحرة. فقد كان يُنسب إليه من الخوارق أنه يرسل بمشيئته سحائب من الجراد الفتاك على السهول الخصيبة في الحوز والغرب. وكان يأتي إلى بلاط السلطان في زيارات دورية يرافقه حشد من الرجال الزرق السغبين المتغطرسين. فكان يُتلقى بحفاوة كبيرة، لكن يُتعجل كثيراً في رده إلى دياره محمَّلاً من الهدايا الاسترضائية. ثم كانت وفاة ماء العينين سنة 1911، وبذلك انتقلت بركته إلى أحمد الهيبة.

كان أحمد الهيبة يومها يقترب من الخامسة والثلاثين، وكان ذكياً ومتفقهاً وعلى هيبة ونفوذ. وسرعان ما زاد رئيس الزاوية الجديد إلى رأسماله الروحي وسلطانه الدنيوي. وما أن علم إذ هو في سوس بإبرام معاهدة الحماية حتى أعلن نفسه سلطاناً على تزنيت وحصلت له البيعة من القبائل التي في تلك الناحية. لقد صار لها هو المهدي، «مول الوقت» فانطلق يدعو إلى مجاهدة المحتل والمخزن الفاسد.

وعلمنا في مستهل يوليوز أنه غادر تزنيت في قوات كثيرة العدد وأنه سار يصعد باتجاه الشمال. فإذا المغرب قد صار مهدداً بواحد من تلك الأحداث المزلزلة التي تقوم في أوقات معلومة، بدافع العصبية، من قبيل الحركة التي كانت من المرابطين والموحدين بعدهم ثم السعديين. فالواحدة من هذه الدول تقوم على أنقاض سابقتها. ومن ذلك أن الأخيرين قضوا على المرينيين واستولوا على ما كان بأيدي البرتغاليين.

لقد بات نظام الحماية الوليد واقعاً بين التهديد بعصيان عام في الشمال واجتياح من الجنوب. فهذا جعله في وضع شديد الحرج. غير أن «الرجل صاحب العصا» كان في مستوى التحديات.

وحان الوقت للتعجيل بعمل يكون له أعظم تأثير على القياد العظام ولو كلفنا تقديم بعض التضحيات التي ليس منها مناص وتلبية بعض مطالبهم القابلة للتحقيق. وقد تلقى القائد ڤيرلي هانو الأمر بالتوجه إلى مراكش للتفاوض مع الكلاوي والمتوكي والكندافي في اعتراض سبيل الهيبة وحشوده أن تجتاز الأطلس. وأوكل إليَّ الجنرال بمهمة لاأيسر ولاأسهل؛ أن أذهب للتفاهم مع سي عيسى بن عمر قايد عبدة بشأن التدابير التي ينبغي اتخاذها لرد القبائل التي في المناطق الساحلية إلى الطاعة والعمل على ألا تخرج إلى العصيان. وتلك كانت بداية تكوُّن ما أصبح يُعرَف بـ «سياسة القياد العظام».

غادرت مدينة فاس يوم 3 يوليوز في فيلق وسريتين من القوات المغربية قد أعيد تنظيمها وكانت في طريقها للالتحاق بحامياتهم في مكناس وبرشيد، وأما الفيلق فكان يتوجه إلى الرباط. وكان موكبي الشخصي الصغير يتألف من خادم وسائسين وحصاني وثلاثة بغال وعير. وقد انطلقنا في الرابعة صباحاً ووصلنا إلى المرحلة الأولى من مسيرنا في حوالي الساعة التاسعة. وكنت على العموم أسير أرافق الفيلق (بقيادة ڤيدالان) الذي كان يسير في المقدمة.

ليس هنالك ما يستحق الذكر بشأن المراحل الأولى : وادي النجا ووادي الجديدة ومكناس. وفي هذه المرحلة الأخيرة لم يتبق من الرجال غير 400 أو ما يقرب من هذا العدد، بعد أن مضى الجنرال دالبيي بكل القوات المتوفرة. وفي صباح اليوم الذي بعد سمعنا صوت مدافعه يدوي ناحية الجنوب عند أكوراي. وكانت المراحل الأخرى هي عين الخروبة وسوق الأربعاء في وادي بهت حيث تنتشر الملاريا والحمى التيفوئيدية. وقد وقع بين أفراد الحامية، المتألفة من خمس سريات، 200 من المرضى.

وفي 8 يوليوز حططنا رحالنا في الخميسات. وفي 9 بلغنا تيفلت. وقد كانت فيها سريتان ونصف فيلق ونصف بطارية وفصيل من الرماة وفرقة واحدة من الكوم من الشاوية وثلاثون من المخازنية والمناصرين من أزمور و400 من المرافقين القبليين.

تيفلت، 10 يوليوز

أقمنا معسكرنا على بعد بضعة كيلومترات عن المركز. وقد كنت نصبت خيامي بجوار القوات المساعدة المغربية، لا يفصلني غير أربعين متراً عن جياد الفيلق التي يقوم عليها حراس كثيرون. وكان قائد المركز لا تزال تستحوذ عليه ذكرى [ما حدث في] 17 أبريل؛ فكان له رأي بالغ السوء في مرافقيّ، فلذلك زاد من عدد الحراس وصوب نحونا رشاشاته ليردينا عند أول محاولة للتمرد. فهذا أشعرني بأني أنعم بحراسة محكمة.

لكننا في الساعة الثالثة من هذا الصباح، وقتَ أن كان يجري الإعداد لتحميل الدواب، تبين أن حصاني وبغالي الثلاثة قد اختفت. فقد اغتنم بعض اللصوص من ذوي الجرأة العجيبة منخفضاً أرضياً ليسرقوها تحت أنظار خمسة حراس أو ستة، كانوا يحيطون بنا، وما تركوا لي غير العير.

رحل مرافقاي من دوني، وها أنذا في عطالة إلى أن يأتي موكب الرابع عشر، أكابد في مقاومة الحرارة والغبار والذباب والبراغيث والجرذان. وعندي متسع من الوقت لدراسة الحياة في مركز على خط مراحل المسير. لم يكن في مقامي هناك ما يبعث على التسلية، وقد كان الضباط والجنود يتكبدونها طوال شهور في خضم من الوحل شتاء والغبار صيفاً، ليقوموا على حراسة المعسكر وتؤمنوا الطريق ويوفروا التموين لرفاقهم في المقدمة فكانوا يحيون حياة لا يُحسدون عليها، لكنهم يتحملونها لا تفارقهم روح الدعابة المعهودة في الجندي الفرنسي.

وفي مساء 13، وكانت عشية العيد الكبير، سمعت الأبواق والنوبة وبدأ الطواف بالمشاعل. الأبحاث التي بوشرت لإيجاد دوابي لم تسفر عن شيء، فرحلت في الموكب الذي خرج في يوم 14، بعد أن استأجرت دواب أخرى. فلما توقفنا في معسكر مونو، الذي يحتله 40 من الجنود البحارة، سرقَنا متمردو أزمور حصانين وخمسة حمير وتسعة جمال. وفي يوم 15 وصلنا بسلام إلى الرباط. فتحتم عليَّ أن أمكث فيها حتى يوم 19؛ ففي ذلك اليوم أفلحت في الانتقال إلى الدار البيضاء أستقل إليها الباخرة الأنجليزية «الجبل الكبير»*.

الدار البيضاء، 20 يوليوز

أقلعت «الجبل الكبير» في اليوم الذي قبل على الساعة الحادية عشرة ليلاً.

وفي حوالي الساعة الثانية صباحاً، استيقظت على وقع اصطدام قوي تلته صرخات ووقع أقدام حافية تعدو فوق السطح القريب إلى رأسي. وصوت اصطفاق الماء بجدار السفينة، وكميات عظيمة من الماء تنفذ من خلال كوة حجرتي المفتوحة. فأسرعت الخطى لأرتقي السطح. وما عادت السفينة تتقدم بل صارت تدور على نفسها دوراناً عنيفاً. وقد اكتسحت مقدمتَها الأمواج. الساحل قريب جداً على يسار السفينة. نتبين فيه خطاً أبيض من الصخور ونسمع صخب ارتداد الأمواج.

القبطان أنجليزي بلغمي لا يتكلم غير لسانه الأم. وطاقمه الإسباني لا يفهم الأنجليزية. فكنت أجعل من نفسي ترجماناً بينهما. وقد أعطى الأوامر فقمت بنقلها وتم تنفيذها في الحال. فقد جهِّزت القوارب لتُجعَل في

* Djbel Kebir

البحر. ووجدت الصندوق المحتوي على صدارات النجدة، فقمت بتوزيع محتواه على الركاب من الأهالي وجعلت أشرح لهم الطريقة لاستعمالها.

تبين من المسبار أننا كنا على عمق عشرة أقدام. وأفرغ القبطان الصابورات. وارتفع مستوى المد... ليصل إلى أحد عشر قدما، ثم اثني عشر قدماً إلى الخلف! وأشعل غليونه. ثم ارتفع المد ليصل في الأخير إلى ثلاثة عشر قدماً! ثم أقلعنا في الساعة الثالثة وعشرين دقيقة. وبرز رئيس الميكانيكيين للحظة من تحت وقاء السلم المؤدي إلى موضعه من السفينة، فشد على يد القبطان في صمت ومسح على وجهه العريض المتفصد عرقاً واستنشق بضع نفحات من الهواء النقي ثم عاد ليختفي في جوف السفينة! [وارتفع صوت القبطان] : «بأقصى سرعة إلى الأمام!»*. وعادت «الجبل الكبير» لاستئناف مسيرها صوب الدار البيضاء، وعدت أنا لاستكمال نومي بعد انقطاع. وفي الساعة السادسة وصلنا المدينة.

في يوم 22 استقللت والقبطان ڤيرلي هانو سفينة «الفريان»* (بقيادة لوكوري)، المتوجهة إلى الجنوب والتي ستنزلنا في آسفي. وفي اليوم الذي بعد توجهنا إلى الجديدة لحضور [مراسيم] وصول الكولونيل شـ. مانجان الذي يتولى قيادة القوات المحتشدة على الضفة اليمنى من وادي أم الربيع في سيدي علي. فجاء يخفره الكوم الذين في هذا المركز ليبلغ باشا الجديدة عزمنا الحازم على إنهاء الأفعال المشينة التي يأتيها المدعو القايد التريّع. ودوى المدفع وشكل طابور الشرطة سياجاً عند مدخل المدينة.

وكانت «الفريان» تتأهب للإقلاع، فجاءها الأمر في الساعة الثانية بواسطة إرسال المورس أن تتجاوز عن آسفي ولا تتوقف عندها، وأن تتجه رأساً إلى الصويرة لملاقاة «الكوسماو» (وقبطانها كرانكليمون)، التي ينبغي

* *Full speed ahead!*

* Friant

أن تأتي إليها للتزود من الفحم بعد أن تكون قصفت أكادير وماسة. فلما جئنا إلى الصويرة في يوم 23 وجدنا الناقلة «پرادو»* محملة بثلاثمائة طن من الفحم لأجل «الكوسماو». ولم تكن هذه الأخيرة وصلت بعدُ. وفي يوم 25 تلقت «الفريان» الأمر بالتوجه لتحل محلها قبالة أكادير. فأنزلنا القبطان ڤيرلي هانو وحملنا القبطان ماسوتيي رئيس طابور الشرطة في الصويرة.

الرسو قبالة أكادير، 26 يوليوز

غادرت «الفريان» مدينة الصويرة في الساعة الخامسة من صباح هذا اليوم وجاءت لتلقي مرساتها في الزوال عند رأس غير. ثم لم يمض وقت يسير حتى التحقت بها «الكوسماو» إلى ذلك الموضع. وقدم القبطان كرانكليمون على متن «الفريان»؛ فكان يرى أن قصف أكادير وماسة لم يؤت نتائج ذات بال، وأنه ينبغي القيام بالإنزال أو مغادرة أكادير. وفي انتظار أن تأتي الأوامر من المقيم العام ستمضي «الكوسماو» لتأخذ شحنتها من الفحم من الصويرة، وستتولى «الفريان» المراقبة قبالة أكادير إلى أن تعود.

ونـمَت إلى علمنا تفاصيل جديدة عن أفعال الهيبة وتحركاته، هو الذي حققت قضيته نجاحات كبيرة في تلك الأيام. فكأننا بسوس قد دان له كله، في ما عدا أولاد احماد أموسى وأتباع سيدي أحمد بناصر، والتحق به أتباع كثر من وادي نون ومن درعة وحتى من الصحراء وتخوم موريتانيا. واحتلت أكادير وتارودانت قواتٌ يقودها أخوان له. وكان هو نفسه يعسكر في بيوكرة التي لا تبعد كثيراً إلى الجنوب الشرقي من أكادير في محلة عظيمة، وقد عقد العزم في ما يبدو على اجتياح الحوز، الذي لا يبعد أن يكون قد صار له فيه أنصار كثيرون ومروجون، ولاسيما من الزاوية العيساوية والزاوية الحمدوشية، وربما تهيأ له أنصار من الزاوية الدرقاوية أيضاً.

* Prado

كان أمامه ثلاث سبل : واحدة تسير بطول الساحل وتخترق أراضي الكيلولي وأنفلوس، والثانية تمر بخنق أمسكرود وتخترق قيادة المتوكي والثالثة تمر بصعيد سوس ووادي نفيس فتخترق أراضي الكندافي. فأيّ سبيل تراه سيختار؟

لبثنا في رسوٍّ في «رأس غير» حتى السادسة من صباح اليوم الذي بعد. فلما أزمعنا الإقلاع إذا باخرة غامضة تبرز في الأفق وهي تتجه صوب أكادير بسرعة شديدة. فما أن لمحنا قبطانها حتى غير وجهتها وأخذ يبتعد بها باتجاه الغرب. تلك كانت بكل تأكيد سفينة للتهريب، ربما كانت ألمانية قد ظن قبطانها لدى رؤيته «الكوسماو» تتجه صوب الشمال أن السبيل أصبحت أمامه خالية.

وفي الثامنة صباحاً ألقينا المرساة قبالة أكادير، لا تفصلنا إلا مسافة دون الكيلومتر عن البر. فلاحت لنا قرية فونتي مهجورة. وأما القصبة المشرفة على قمة شديدة الوعورة والقمم المجاورة فقد احتلتها مجموعات مسلحة كثيرة.

أقمنا الحراسة في 27 و28 قبالة أكادير، ولبثنا نباشر دورياتنا بطول الساحل حتى وادي ماسة. فكنا كلما عدنا إلى الظهور أمام المدينة إذا المدافعون عنها، ومعظمهم في أزياء قد نصَل لونها فوق جلودهم، ولذلك سموا الرجال الزرق، وقد كان مقياس المسافة يتيح لنا أن نستبين أقل حركة يقومون بها، كانوا يخرجون من القصبة ويندفعون لاحتلال مواقعهم خلف الصخور تحسباً لأي إنزال.

وفي مساء 28 عادت «الكوسماو» من الصويرة فانطلقت بنا «الفريان» رأساً إلى آسفي، فوصلناها في ظهيرة اليوم الذي بعد. ونزلتُ في بحر هائج يغمرني شعور قوي بالامتنان إلى لوكوري القبطان ومساعده السيد دروجون والضباط العاملين على متنها؛ فلقد جعلوا من هذه الرحلة الاضطرارية التي طالت بنا ثمانية أيام على متن هذه السفينة بحق رحلة ملؤها المتعة والسرور.

الفصل الثالث والعشرون

عيسى بن عمر

قدّمت إليَّ إذ أنا في آسفي معلومات إضافية بشأن مهمتي يمكن إجمالها في : التوجه عند سي عيسى بن عمر قايد عبده في قصبته بتمارة وإقناعه بالانخراط في قضيتنا ونشر الأمن لدى عبدة ودعوته إلى إعمال نفوذه لتحقيق الهدف نفسه في المناطق المجاورة (دكالة واحمر وحاحا والشياظمة)، والحصول على تعاونه العسكري في العملية المشتركة المحتملة بين قياد الجنوب العظام ضد الهيبة، وأن أتشاور مع قنصلنا في آسفي ومع رئيس طابور الشرطة في جميع التدابير والإجراءات الواجب اتخاذها لضمان الهدوء في المنطقة الساحلية من الحوز.

كان سي عيسى بن عمر يومها يقترب من السبعين. وهو سليل أسرة تعود بأصولها إلى الحجاز. إنه نموذج كامل للسيد العربي العظيم بوجهه الجميل ذي الملامح المتوقدة وأساريره العقفاء السمراء الداكنة، ووجهه الذي تحفه لحية رمادية قصيرة ورأسه الذي تغطيه رزة من الموسلين بيضاء قد لفها من حوله لفات. والرجل ربعة لا يحمل جسده أوقية واحدة من شحم زائد. وهو لا يُرى إلا وقد لف جسمه في حايك أبيض ناصع. وقد كان شديد العناية بتطبيب يديه ورجليه كدأب كبار الارستقراطيين إذ كان يعاني من داء المفاصل ومن إصابة قديمة في ساقه؛ فهو لذلك يجد صعوبة في المشي، لكنه لا يزال فارساً مقداماً لا يستهول أن يخب بجوادة لمسافات طويلة قد تصل إلى مائة كيلومتر. وكان، وهو المحارب الكبير والصياد الخبير

مولعاً بالجياد وبالأسلحة الجميلة والسروج الفاخرة والسلاقي والصقور. ولكن في ما عدا ذلك كان ذوقة بسيطاً وعاداته خشنة. فلم يحدث أن جازت شيخة أو راقص من الشلوح عتبة قصبته أو دخلا واحداً من بيوته في فاس أو في مراكش. وهو غامر اللطف وصديق وفي وخصم عنيد.

كان سي عيسى هو القايد الثالث في أسرته؛ فقد خلف في حوالي سنة 1875 أخاه لكبر سنه على قيادة البحاترة، أكبر فخدات عبدة. وزوّجه مولاي الحسن، وهو يومها في بداية حكمه، بإحدى أرامل أخيه سيدي محمد، فكانت تلك بداية نفوذه داخل البلاط الشريف. فلما تولى مولاي عبد العزيز الملك في سنة 1894 امتنعت آسفي من الاعتراف بالسلطان الشاب فقام سي عيسى بانتزاعه منها بالقوة، بعد أن أعمل القتل في رؤوس المعارضة. فكانت مكافأته بتوليته قيادة ربيعة وأولاد عمران ليصير بضمهما إلى البحاترة وقد اكتمل له الحكم على مجموع عبدة. ثم زاد إليها بعد ذلك حكم احمر. وفي الأخير صار يحكم كذلك مدينة آسفي.

وقد كنت تعرفت على سي عيسى في سنة 1898، في آخر حركة لمولاي عبد العزيز على القبائل المتمردة. وكان وقتها في أوج قوته. فكانت منطقة نفوذه تمتد من الوليدية إلى ما وراء تانسيفت ومن الساحل حتى 60 كلم من مراكش. وأما نفوذه فكان يصل إلى أبعد من ذلك بكثير؛ إذ كان له سلطان على قسم من دكالة والرحامنة وشيشاوة والشياظمة وحاحا. وقد أمكن له أن يصير بفضل خصاله الشخصية والضمان الذي يحظى به من السلطان ومن باحماد، وبفضل قواته الباسلة، وخاصة فرسانه ذوي الشهرة الواسعة في المغرب، أهم قائد محلي في المملكة الشريفة. وكان تابعاً مخلصاً لسيده، يؤدي له الضريبة ويتبعه في جميع حملاته على رأس فرسانه الذين كانوا يتمتعون بامتياز العسكرة مع قبائل الكيش.

فإذا لم يكن ما يستبقيه في البلاط أو في المحلة الشريفة كنت تجده في قصبة تمارة على بعد ثلاثين كيلومتراً من آسفي؛ يحيا حياة سيد إقطاعي عظيم؛ فهو يدير إقطاعته ويقضي بين الناس ويدير شؤون أراضيه ويصيد بالطيور أو بالكلاب؛ وقد أحاط به أبناؤه وإخوته وأصهاره وأبناء عمومته وخؤولته وعبيده، يقيمون له حراسة شخصية بما لا يقل عن مائة فارس قد ركبوا أفضل الجياد المعروفة في المغرب.

فقد اشتهر الرجل بين الناس بإسطبلاته التي حوت ما يقرب من مائة جواد ورهطه المتكون من ماءتي سلوقي وطيوره القانصة من ذات التحليق العالي والخفيض المجلوبة من شتى الأصقاع؛ من جزيرة الصويرة وحتى الخليج الفارسي، قدرما اشتهر بسخائه وكرم ضيافته. فقد كان يُذبح عنده في كل يوم ثور وعشرون خروفاً والمآت من الدجاج للوفاء باحتياجات البيت وإطعام من يطرقه من الضيوف. ولم يحدث أن قضى مسيحي من أهل العلم والأخلاق الليل في ضيافة سي عيسى دون أن يُهدى له عند رحيله حصان من إسطبلات مضيفه. وقد كان تقليداً راسخاً، فلما لم يراع في حق أحد الأوروبيين، لما قد يكون بدر منه من الأفعال المشينة، راح يشتكي الأمر إلى مفوضية بلده!

ظل سي عيسى لوقت طويل يقوم أقوى سند لمولاي عبد العزيز. فلما تمت البيعة لمولاي عبد الحفيظ في سنة 1907 لم ينحش إليه إلا بعد طول تردد، وإن بقي على صلاته المتميزة بالسلطان السابق، وظل يمني النفس بعودته إلى الملك. ثم كان تعيينه في المخزن الجديد وزيراً للشؤون الخارجية فأدى مهامه باستقامة يشهد له بها الجميع، وربطته بقنصلنا في فاس السيد كايار وبالسيد ميرسيي القنصل الذي كان قبله علاقات شخصية بوأته إلى أن يكون لوقت طويل صديقنا المخلص الوحيد داخل مخزن مولاي

عبد الحفيظ. وقد عاد عليه هذا الموقف منا وعلاقاته بمولاي عبد العزيز بالحقد من الصدر الأعظم، وأدت في الأخير إلى عزله من وظائف القايد والوزير.

كان يعيش في فاس في شيء من التكدر، إلى أن حصل السيد رينو من السلطان على الموافقة بأن يعيد إليه القيادة التي كانت له على عبدة. فلما كان تمرد 17 أبريل تولى بحمايته كثيراً من مواطنينا وحملهم إلى القنصلية بعد مذابح فاس. ثم عاد بعيدها إلى القصبة فاستعاد القيادة التي كانت له والتي نقصت فصارت لا تتعدى احمر ومدينة آسفي.

فلما فرغت من مشاوراتي مع قنصلنا السيد هوف والقائد شولتز رئيس طابور الشرطة توجهت إلى دار سي عيسى. فأرسل القايد بمائة فارس لملاقاتي وتلقاني هو بباب قصبته وأفاض عليَّ من آيات الحفاوة والترحيب.

وأدير علينا الشاي فجعلت أعرض عليه الهدف من مهمتي ومهمة القائد ڤيرلي هانو في مراكش. فأنصت إليَّ باهتمام، ثم قال إنه سيفكر في ما حدثته به وسيعطيني جوابه في اليوم الذي بعدُ.

وفي اليوم الموعود جاءني في الصباح الباكر إلى الجناح الذي خصني به. حتى إذا أبعد الآذان المفشية للأسرار جعل يفضي إليَّ بخواطره.

فقد قال لي :

- يمكنك أن تخبر الجنرال أنني أنا أضمن النظام لدى عبدة. وسأُعمل نفوذي كذلك على دكالة ليتلزموا الهدوء؛ وكم كانت هذه المهمة ستكون سهلة يسيرة لو كانت النية في عزل القياد الكثيرين الذين عينهم مولاي عبد الحفيظ في هذه الآونة الأخيرة، بما يتنافى والعقل السليم، واستبدالهم ببعض الرجال المنتقين بعناية من بين القادرين على فرض الطاعة على

من هم تحت إمرتهم. وأما احمر فإن سلطاني عليهم قد بات اليوم دون أن أستطيع به مقاتلة القايد محبوب، صنيعة مولاي عبد الحفيظ، والقضاء على الميول التي أسفرت عنها القبيلة في موالاة الهيبة. وأما في جنوب تانسيفت فلن يكون بمقدوري أن أؤثر على غير الكيلولي. وأما أنفلوس الذي تخطئون إذ تعدونه من أصدقائكم فإنه لن يفعل إلا ما يروق له. وأما جاري القريب الحاجي فهو عدوي اللدود ورجل المتوكي المخلص الوفي فكل ما سيفعله سيكون امتثالاً لأوامر رئيسه».

«تقول لي إن قائداً توجه إلى مراكش للتشاور مع الكلاوي والكندافي والمتوكي، فلن يفلح في شيء وإياهم. فسيعطونه شتى الوعود المعسولة من أجل أن يبتزوه مزيداً من الأسلحة والذخيرة وأكثر ما يمكن من المال لكنهم لن يفعلوا شيئاً لوقف زحف الهيبة؛ المتوكي لأنه لا يريد والآخران لأنهما لا يستطيعان. وسيعبر الهيبة الأطلس من خنق أمسكرود برضا وعون من المتوكي، الذي انضم إليه أخوه الحاج المودن في أربعين فارساً».

«فلا أرى غير وسيلة واحدة للحيلولة دون اجتياح الحوز وهي بمباغتة المتوكي بالهجوم؛ فإذا تحقق ذلك النجاح الأول صار بالمستطاع السعي في الحصول على تعاون الكلاوي والكندافي للإعداد لعمل جماعي ضد الهيبة في الجبل. وأنا على استعداد لركوب هذه المغامرة. وإن بحوزتي 3.000 من الجنود وما يكفي من الأسلحة. وبيدي كذلك قدر من الخرطوش يكفيني للمشاركة في الهجوم، لكن ستكون حاجتي إلى مستودع للذخيرة في آسفي. كما ستكون حاجتي في من يشغل قصبتي أثناء غيابي، حتى لا يهاجمها القايد الحاجي. وقد قلت لي إن الجنرال لا يريد أن يرسل بالجيوش إلى جنوب وادي أم الربيع. فلابأس؛ فإن لديكم طابوراً من الشرطة في آسفي، فليُزَد إليه عند الحاجة ولْيُرسَل بعضه

إلى هنا. وأما في ما يتعلق بي فسأكون على استعداد لبدء المسير بعد يومين من صدور الأمر إليَّ».

ولقد بادرت من فوري إلى إعلام الإقامة العامة بمحادثتي وسي عيسى بن عمر. لكن في الليلة التي بعد جفاني النوم من تفكيري في المشاركة في الحرب للدفاع عن عملنا في المغرب، أنا الفرنسي الوحيد وسط الآلاف من الجنود الأهالي! وقد كنت لا أزال على شيء من الشباب والحماسة زينًا لي الاستمتاع بجاذبية تلك المغامرة... لكنني وسي عيسى لم نحسب حساباً لبعض الطوارئ والاحتمالات.

***

في يوم 4 غشت تعرض سوق أحد أولاد عمران للنهب من متمردي دكالة، وعُلِم أن هؤلاء سيقدمون على مهاجمة قصبة سي عيسى صديق الفرنسيين، بذريعة أن سلطاتنا العسكرية تريد أن تفرض عليهم قياداً حديثي تعيين من لدن مولاي عبد الحفيظ. لكن أنصار سي عيسى تصدوا لهذا المشروع، وقتلوا مدبره، المدعو ولد محمد العوني، وكثيراً من أتباعه.

وفي اليوم الذي بعدُ حضر مندوبو مختلف قبائل دكالة بدعوة من سي عيسى إلى القصبة. فكانوا يشتكون جميعاً عسف قيادهم وهم على يقين من أننا ندعمهم ونساندهم. فنصح لهم سي عيسى جميعاً بالتوجه عند الكولونيل مانجان، ودعاهم إلى الدخول في الطاعة وطمأنهم إلى نوايا فرنسا نحوهم، وشجعهم على مقاومة من يثير الفتن. وقد صرت كلما رأيت من هذه الوفود يزداد يقيني أنه يكفي إبعاد القياد المطعون فيهم ليستتب النظام بين الأهالي المسالمين بطبعهم.

ولقد كتبت بهذا الفحوى إلى الكولونيل مانجان في سيدي علي وأعلمته بمجيء مناديب أولاد اعمر وأولاد عمران وأولاد بوعزيز وأولاد بوزرارة.

وزدت إلى ذلك قولي : «إنهم لم يجرؤوا أن يقصدوك خشية أن تفرض عليهم القياد الذين قاموا بطردهم والذين التجأوا إلى أزمور. وقد كلمهم سي عيسى كلاماً جمع التشجيع إلى التطمين ونصح لهم أن يقصدوك. وزدت إلى كلامه قولي إننا لسنا مساندين بأي حال للقياد الذين قاموا بطردهم، وتركت لهم أن يستنتجوا - من دون أن أعدهم بشيء - أنك ستنظر في ما يمكن أن يحملوا إليك من مقترحات تتعلق باستبدال أولئك القياد. وأكدت لهم أن بإمكانهم أن يقصدوك فلا يخشوا أي انتقام فوعدوا أن يفعلوا...».

لكن في 10 أكتوبر وصلتني رسالة من الكولونيل مانجان تحمل جواباً مسبقاً عن رسالتي؛ في ما يلي أهم فقراتها.

الجديدة، 7 غشت 1912

«سيدي العزيز،

إنني سعيد جداً بالتعاون وإياك لتنظيم هذه الناحية، وسيكون لي عون ثمين في معرفتك العامة بالبلد وبالسكان، أنا المبتدئ في الشؤون المغربية.

إن بلاد دكالة مواتية كثيراً لعودة النعرات الانقسامية إليها. وأما طريقة إدارتها الحالية بأيدي ستة عشر قايداً وباشوين فستكون مهمة صعبة وعسيرة، وستضطرنا إلى أن نظل نقوم بما لاعد له من الأعمال المباشرة التي هي نقيض سياسة المقيم العام. وأما اختيار سي عيسى بن عمر لتولي القيادة الجديدة(؟) فما هو بالأمر المحتوم... لكن لا توجد شخصية أخرى تفوقه أو تكافئه. فلنُبق عليه ما دام يُشار علينا به، مع البقاء معتبرين أننا سيكون علينا أن ندعمه، لا أن نعوّل عليه. لقد باتت الظروف مواتية له كثيراً بفعل الأحداث الأخيرة، وإن نفوذه سيصير في تزايد كل يوم...

إن وقوع تعسفات فاحشة من قياد كثر قد دفعت برعاياهم إلى طردهم. غير أن هذه السيبة يغلب عليها الطابع السلمي، وسيكون من السهل إنهاؤها بخلع هؤلاء القياد. غير أني لا أدعو إلى هذا الإجراء، وأشرح موقفي هذا بالقول إنهم إن يكونوا أفرطوا في استغلال الرعية فبسبب ظهائر التعيين التي ارتفعت أسعارها. ومن المؤكد أن بعض القياد قد قاموا بتوقيع سندات لفائدة بعض تجار فاس لاستخلاص الأموال التي دفعوها في شراء مهامهم؛ بما يعني أن مولاي عبد الحفيظ قد باع ملكه بالتقسيط فيمكنه الآن أن ينسحب...

لذلك أرجأت إعادة التنظيم إلى يوم قريب، لا يعود فيه بيع للظهائر وقلت للخارجين في هذه السيبة : «فلتُبقوا على قيادكم، فلقد تلقوا مؤخراً درساً قاسياً؛ ولو جعِل عليكم موظفون جدد فسيعملون على أن يستخلصوا منكم الأموال التي دفعوها في شراء وظائفهم؛ فتكون لهم ذريعة للجور والعسف». ولقد وجدت مشاق عديدة في الامتناع من المشاركة في الإدارة المباشرة (التي يطالب بها الجميع ولا ينبغي أن نمكنهم منها) والابتعاد بنفسي عن آلتها الرهيبة.

يمكن لهذه الوضعية أن تطول بنا كثيراً من دون أن يكون لها أن تضر بهيبتنا في بقية أنحاء المغرب. فهذا حادث سعيد وقع في دكالة قد عزز من هذه الهيبة في البلاد قاطبة. فالتريِّع، قاطع الطرق الرهيب، قد اقترف جرماً فاق به جرائمه السابقة إذ قبض على ثلاثة رجال من قبيلته بجريرة أن لهم علاقات بشيخ قد التجأ إلينا ونكل بهم. فدمرنا قصبته. ثم التجأ إلى الجديدة ليعاود الفرار منها بعدئذ. وعلى الرغم من هذا الهرب الذي نأسف له فالواقع أننا قد أعملنا المدافع في دكالة، وقد خلا لنا الجو فيها لنفعل ما نشاء.

وكتب سي عيسى برسائل كثيرة يدعو فيها رجاله أن ينضموا إليه لكن ما اطلعت عليه منها وجدته شديد الغموض، ليس فيه ما يفيد دعوتهم إلى ملاقاتي. إن أعداءه يتهمونه صراحة بإطالة عمر السيبة بغرض أن يصير هو الوسيط والمعول عليه في كل شيء. وأنا إن كنت لا أذهب في اتهامه إلى هذا الحد، ففي ظني أنه يبالغ في الابتعاد بنفسه. وأعتقد أنه سيكون من الأليق تنبيهه تلميحاً إلى هذا الأمر؛ ودعوته إلى أن يظل على تأثيره على رعاياه الداخلين في العصيان السلمي وأن ينصحهم؛ فليس أفضل من هذا السلوك، لكنه سيفسد هذا العمل لو ظنوا أنه خصم لنا. فالناس ضد القياد لكنهم منحاشون إلينا.

فإذا بدا لك من جدوى في أن نلتقي فسأسعد بالذهاب لملاقاتك في الموضع الذي تختار. إننا ونحن ننظر إلى المشهد نفسه من زاويتين مختلفتين فلاشك أنه سيكون من النافع أن نشارك بعضنا وجهات نظرنا في الأشخاص بوجه خاص.

وتفضل بقبول آيات احترامي الصادق.

شـ. مانجان

هذه الرسالة جاءت تنطق بتباين في وجهتيّ النظر بيني والكولونيل ما جعلني أستعجل ملاقاته عساي أرده إلى رأيي. فالعصيان الذي خرج إليه دكالة لم يكن في حد ذاته بالأمر الخطر بأي حال، بل الخشية كلها في الإبقاء على قياد مبغوضين من الناس بما يؤدي إلى اشتداد العداء لنا ويدفع بدكالة دفعاً إلى الارتماء في أحضان الهيبة. وأما الرسائل التي كان سي عيسى يبعث بها إلى دكالة فقد كانت تأتي بما يطابق التعليمات التي كنت أرسلها إليه، وما كانت تزيد عن دعوات إلى الالتحاق به في قصبته.

ومع أن سي عيسى لم يكن قد ولِّيَ أي قيادة فقد جاءوه جميعاً، إلا من أولاد فرج والعونات. وتطلب الأمر مشاورات كثيرة لحملهم على الانحياش إلى جانب الكولونيل. ولم يكن للنصائح تُبعَث في رسائل أن تحقق من مفعول.

كان يلزم شرح ذلك كله للكولونيل مانجان، الذي لم يكن يستعلم عن شيء إلا من أفواه القياد المطرودين من قبائلهم والملتجئين إلى حمايته. فكاتبته في الأمر، وعرضت عليه أن أذهب لملاقاته في الجديدة أو في سيدي علي. لكن رسالتي وصلته وهو في طريقه في كامل قواته إلى مشرع بن عبو. حتى أذا بلغه لم تمهله الأحداث التي وقعت في مراكش ليهتم بأمر دكالة.

ولم يكن في مقدور سي عيسى أن يتدخل مباشرة؛ فاقتصر على دعوة دكالة إلى الهدوء وتحذيرهم من مكائد الهيبة. لكن السيبة كانت لا تزداد إلا تفاحشاً واستفحالاً. فهذا استدعى إرسال الشريف الأمراني عم السلطان وتجريدة بقيادة الكولونيل جوزيف. بيد أن الأول لم يكن يرى في مهمته غير وسيلة لجمع المال. وتم الإبقاء على القياد غير المرغوب فيهم بواسطة المال، وتم تعيين اثني عشر آخرين بالشروط نفسها. وقد كان الأمراني يقضي وقته في أبناك الجديدة يعد الدوروات. وكان في دكالة ثلاثون قايداً قد جعِلوا على ساكنة لا تزيد عن 300.000 نسمة؛ فعمت الفوضى ومهدت السبيل لشتى النعرات التخريبية.

وأما عبدة فلم تشهد اضطراباً فوق ما كانت تعرف في سائر الأوقات العادية بفضل ما كان لسي عيسى من سطوة ونفوذ والحزم الذي كان يواجه به كل حركة مريبة مهما كانت هينة.

13 غشت – نقلت إليَّ قنصلية آسفي برقية من المقيم العام تفيد أن سي عيسى بن عمر سيعاد إلى قيادته وستُرد إليه القيادة على احمر وآسفي وأنه يجري التشاور لإيداع الذخيرة في هذه المدينة، وأن تعزيز الطابور الذي في هذه المدينة بأخذ بعض القوات منَ الطابور الذي في الدار البيضاء أمرٌ تعترضه بعض الصعاب لكن القائد شولتز سيفلح في اتخاذ التدابير اللازمة للحلول بقصبة سي عيسى في حال خرج القايد في حملة.

وابتداء من تلك اللحظة تسارعت وتيرة الأحداث. وسأقتصر ههنا على إيراد الملاحظات التي سجلتها عنها في مفكرتي.

15 غشت – في هذا اليوم، الأول من شهر رمضان من سنة 1330هـ علمنا برحيل مولاي عبد الحفيظ إلى فرنسا على متن «دوشايلا» (12 غشت) وتلقّي مولاي يوسف البيعة من علماء فاس. هذا الخبر الأخير أحزن كثيراً سي عيسى، هو الذي كان يتشوّف لعودة مولاي عبد العزيز إلى الملك.

16 غشت – علمنا أن الهيبة اجتاز الأطلس من خنق أمسكرود، وأن طلائعه قد تكون بلغت الشاوية. ونبا إلى علمنا كذلك أن معه أخوين للمتوكي هما العربي والحاج المودن في سوقات كثيرة العدد. ويوجد سي عبد المالك المتوكي نفسه في مراكش مثلما يوجد فيها الأخوان الكلاوي. وإلى آسفي التجأ أمس الأوروبيون واليهود في مواكب كثيرة بعد أن تعرضوا للابتزاز من احمر في الطريق.

17 غشت – قام احمر، باستثناء اللوبيرات، بإيعاز من القايد محبوب وأهل زاوية بوسنة، بإعلان الولاء للهيبة وأمدوه برجال كثر. وربما بات الروكي على بعد مرحلتين من مراكش.

19 غشت - انتشر الخبر بوصول الهيبة إلى مراكش؛ وأنه لقي من سكانها حفاوة كبيرة وأن كبار القياد هبوا لملاقاته مرحبين عند وادي نفيس. وقد وقعت بين يديه مجموعة صغيرة من الفرنسيين لم يتمكنوا من مغادرة المدينة قبل فوات الأوان.

20 غشت - سرت شائعة أن الهيبة قتل مواطنينا، وقال آخرون إنه اقتلع أعينهم. لكنه نبأ فنده أحد رجال سي عيسى الثقات كان يراسله كل يوم ليطلعه على مجريات تلك الأحداث.

ووصلتني بواسطة السفينة «جول فيري»* رسالة من الجنرال ليوطي مؤرخة في يوم 18 من الرباط، تخبرني بمجيئه إلى مشرع بن عبو في يوم 20 وقد كان هو ذلك اليوم، وتعلمني بقربٍ زيارته لأسفي ليقيم هنالك فيلقاً ما أن يتلقى بعض التعزيزات. وزاد قائلاً :

«أرى أنه طالما كان من المستحيل منع الهيبة من الوصول إلى مراكش فلاأقل من أن نعيد معالجة هذا الأمر بإقامة حاجز قوي مع عبدة ودكالة يصل آسفي بمشرع بن عبو، ويمكن أن نسير في توسعته بالتدريج، فيكون لنا فيه ضغط على مراكش من ناحية الغرب، فيما تقوم قواتي بعمل (؟) سياسي للضغط على المدينة من جهة الشمال».

وتحدثت في الأمر إلى سي عيسى، بقوله :

- سيكون ذلك ممكناً في حال قرر سي الأمراني في الأخير أن يفرغ من هذه السيبة ويرأس دكالة؛ لولا أنه قد باتِ كل همه أن يملأ جيوبه. وإلى أن يحصل ذلك سأستمر في استدعاء فرساني».

21 غشت - أعلن الشياظمة وحاحا بيعتهم للهيبة. وقيل إن القايد الحاجي توجه إلى مراكش في قوات وأسلحة وذخيرة كانت مخزنة لديه من

* Jules Ferry

سنة 1908؛ وقت أن تم إنزالها في الصويرة القديمة على مقربة من مصب تانسيفت ليستعملها المتوكي في المحاولة الأخيرة التي كانت من مولاي عبد العزيز لاستعادة سلطته.

وقد كان قنصلنا في آسفي يخشى من حركة شعبية تقوم لمناصرة الهيبة. لكن سي عيسى يؤكد لي أن المدينة، التي يحتها طابور من الشرطة والواقعة بين قيادته والبحر، لن تحرك ساكناً.

22 غشت - صارت القصبة مركز المعسكر حيث اجتمع ألفان من الفرسان استعداداً للخروج في حملة. وقد أعلن سي عيسى في محضرهم ولاءه لمولاي يوسف. فإذا جميع الحاضرين قد جعلوا يطلقون العيارات النارية ويتصايحون : «الله ينصر سيدنا مولاي يوسف!»*. وقام اثنان من أعيان عبدة بالتوقيع على البيعة للسلطان الجديد.

24 غشت - سرت شائعة بوقوع معركة في أوحام بين الجيوش الفرنسية ومتمردي الرحامنة، في مقدم أربعاء الصخور؛ حيث يعسكر حالياً الكولونيل مانجان.

31 غشت - أعلِن عن نشوب معركة جديدة في بن جرير بين الكولونيل مانجان وطلائع الهيبة. وقيل إن الجيوش الفرنسية عادت بعدها إلى معسكرها في أربعاء الصخور. وتلقى سائر شيوخ عبدة رسائل تحمل طابع «السلطان» الهيبة تدعوهم إلى الدخول في الجهاد بما يملكون من قوات.

* Allah donne la victoire à notre seigneur Moulay Youssef!

الفصل الرابع والعشرون

احتلال مراكش

في أواخر شهر غشت خرج الجنوب عن بكرة أبيه إلى العصيان في ما خلا عبدة التي ظلت مطيعة بفضل سي عيسى بن عمر والمدن الساحلية التي أخضعتها طوابير الشرطة وطراداتنا. وقد فشلت الجهود المبذولة لتهدئة دكالة والمساعي التي كانت بعدها من أجل تكوين تجمع صلب متين من القبائل المطيعة ليكون حاجزاً في مقدم الشاوية. وكان جشع الأمراني السبب في ذلك الفشل.

وفي مراكش وقع ستة فرنسيين في قبضة الهيبة بعد أن مُنوا بالوعود الكاذبة، وهم : القنصل السيد ميكري والدكتور كيشار الطبيب الرئيسي في مستشفى موشام والقائد ڤيرلي هانو المكلف بمهمة سياسية والمستشار بالقنصلية السيد مونج والملازم أول هارين والملازم كوادي من القوات المغربية. بينما لبث سابعهم الرقيب في سلاح المدفعية فيوري مختبئاً لدى الحاج التهامي الكلاوي ؛ فأفلح من هناك في التراسل مع السجناء ومع فيلق مانجان.

فأما القياد العظام، في ما خلا المتوكي وسي محبوب المتواطئين مع الهيبة بلاحساب، فقد رأوا في الروكي مقوضاً لسلطاتهم فكانوا يلحون في طلبنا لنجدتهم، وأما الساكنة المراكشية الغاضبة من المعاملة السيئة والسلب والنهب التي وقعت عليها من الرجال الزرق فقد بدأت تشعر بالضيق والانزعاج من سيدها الجديد. وكان الهيبة يستعد للزحف على الشاوية لكنه لما وصل معسكر أربعاء الصخور على مقربة من مشرع بن

عبو على رأس 5.000 من الرجال وقد تسلح بـ 12 مدفعاً و8 رشاشات اعترض سبيله فيلق مانجان وأوقف تقدمه.

لم يكن مضى على العقيد مانجان في المغرب شهران أو يزيدان قليلاً وقد كان - حسبما صرح لي بنفسه - لا يزال على غير اطلاع كاف على شؤون البلاد. وليس ما ينتقص من منجزات هذا الجندي الفذ أن نقول إنه لم تكن له معرفة بالصعاب الجسيمة التي كانت تعترض قائده. فقد أضلته تجربته الباهرة مع الاحتلال فتوهم أن المغرب كمثل أي سلطنة من السلطنات قليلة الشأن في إفريقيا الوسطى، وحسب أنه ببعض الكتائب من السنغاليين وبعض السرايا من الجنود البحارة قادرٌ على غزو هذا البلد. ولم يكن للنصر اليسير الذي تحقق له على الهيبة إلا أن يزيده تمادياً في ذلك الاعتقاد. وما تكشف له خطله إلا في وقت لاحق، أعني في القصيبة خلال شهر يوينو من سنة 1913.

كان الزحف على مراكش في واقع الأمر عملية في غاية المخاطرة. عدا أنه أمر منعته الحكومة. لكن يوم أن تجاوز الجنرال ليوطي عن هذا المنع وأبرق إلى العقيد مانجان بالأمر أن «ازحف ولا تتردد»، صارت تلك العملية أمراً محتماً ليس عنها محيد. فلما تقرر تنفيذها لم يكن بد من إيكالها إلى القائد مانجان؛ فلم يكن بين قادتنا من هو أمهر منه.

مرت الأيام الأولى من شهر شتنبر، سواء على آسفي أو على دار سي عيسى، في جو من الهدوء المنذر بشتى الاحتمالات. وفي يوم 6، ثم 8 من بعده، وردت علينا الأخبار تأخذ بتلابيب بعضها. فقد علمنا بتقدم فيلق مانجان ومعركة سيدي بوعثمان (6 شتنبر)، والغارة الجريئة التي قام بها القائد سيمون، وفرار الهيبة وتخليص مواطنينا ودخول قواتنا مدينة مراكش (في 7 شتنبر 1912، وهي الذكرى المئوية لمعركة موسكوفا).

لم يكن لتحكم سي عيسى في عبدة أن يحصن أهلها جميعاً من حماقة الهيبة، فإذا بعض الأفراد منهم، خاصة من فخدة المويسات، قد خرجوا سراً يريدون الجهاد. فجعل أولئك منهم الذين عادوا من سيدي بوعثمان يصورون تلك المعركة في صورة مفزعة لتقويض الخرافات الرائجة عن الهيبة وصرف بعض أبناء قبيلتهم عن الأوهام التي تزين لهم الاشتراك في الحرب.

لقد خيِّل للحشود التي مع الهيبة أن ما تحمل من تمائم والبركة التي بيد قائدها يقومان لها حصناً حصيناً، فإذا أفرادها قد أقبلوا على الهجوم في جماعات كبيرة، سافرة في أراض منبسطة، وهم على يقين أن القذائف الفرنسية لا تلبث أن تتكور عند أقدامهم فتصير شماماً وبطيخاً أحمر، وأن رصاصنا إذا مسهم يتحول مرشات من ماء الورد والزهر. حتى إذا صاروا على بعد بضع مآت الأمتار من التشكيلة المربعة تلقتهم قواتنا بنيران ماحقة وحصدتهم طلقات القربينات والرشاشات وسحقتهم طلقات المدفعية ثم قطّعوا إرباً إرباً [بسيوف] الفرسان. وقد قام الرجال الزرق وحلفاؤهم من الأطلس والحوز بعدة هجومات ثم لم يلبثوا أن أطلقوا سيقانهم للريح فراراً من ساحة المعركة بعد أن غصت بالجرحى والقتلى. لكن يعن لنا تساؤل يا ترى ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أن هؤلاء المتعصبين كانوا أقل سذاجة؛ فلم يهاجموا متكتلين وفي الأراضي المنبسطة، بل ترصدوا ذلك الفيلق على بعد بضعة كيلومترات من المكان الذي دارت فيه رحى المعركة؛ كأن يكمنوا له في شعاب الجبيلات أو في حدائق النخيل القريبة من مراكش؟

كان في النصر الذي تحقق لقواتنا في سيدي بوعثمان، على الصورة التي جرت بها تلك المعركة، قضاء مبرم على حلم الهيبة الخاطف بالملك

وأشرع في وجهنا أبواب الحوز. ففي مساء ذلك اليوم نفسه اندفع القائد هـ.[ـنري] سيمون على رأس فيلق خفيف حتى قنطرة وادي تانسيفت. ثم استأنف في اليوم الذي بعد زحفه في الصباح الباكر على مراكش، فوصلها في حوالي الثامنة صباحاً. وكان الهيبة قد فر ومن تبقى من حشوده في الساعات الأولى من الفجر، تاركين سجناءهم بين يدي باشا مراكش سي دريس بن منو. وفي وقت متأخر من زوال ذلك اليوم وصل فيلق مانجان إلى جليز. وفي مساء اليوم نفسه استعاد الحاج التهامي الكلاوي مهام الباشوية على مراكش.

وفي انتظار زيارة الجنرال ليوطي لآسفي لبثت عند سي عيسى بن عمر لأيسر له الاتصال بالسلطات العسكرية لمنطقة دكالة-عبدة حديثة الإنشاء.

في 16 شتنبر قدم الجنرال على متن سفينة «جول فيري»، التي أنزلت سريتين من الجنود الزواويين. فتلقاه سي عيسى في 800 من الفرسان وتلقى منه التهنئة التي يستحقها على موقفه الصادق الذي ظل عليه لم يفرط فيه على الرغم من المساومات والتهديدات التي تعرض لها.

وكلّف سي عيسى بنشر الأمن على الطريق من آسفي إلى مراكش فأنجز تلك المهمة في ما لا تزيد عن خمسة عشر يوماً. وعلمنا في 3 أكتوبر أن الجنرال ليوطي في طريقه إلى مراكش فقصدناها نحن أنفسنا في 300 من الفرسان.

بلغنا المدينة في 5 [أكتوبر]، بعد أقل من شهر من وصول فيلق مانجان إليها. فكانت عاصمة الجنوب قد استعادت هيأتها المعهودة، لكن القياد العظام لم يكونوا قد استعادوا توازنهم وثقتهم بأنفسهم. فقد كانوا مدركين للمواقف المريبة التي كانت منهم، بل كانت من بعضهم مواقف خسيسة

تجاه القائد ڤيرلي هانو. غير أنهم أفلحوا بفضل المساعي الحميدة للترجمان الوحيد للرتل في الحصول على العفو من الكولونيل مانجان وإن لبثوا على قلقهم وانشغالهم بشأن الاستقبال الذي سيجدونه من الجنرال فجاءوا تباعاً لزيارة سي عيسى يتوسلون إليه التدخل لأجلهم عنده.

ولو أننا كنا قادرين على التكهن بالمستقبل، وكنا أفضل اطلاعاً على ذهنية أهل الحوز، فلربما كان يمكننا في ذلك الحين أن نقضي على نظام الإقطاعيين الكبار. لولا أن خوفنا من المجهول وعدم توفرنا على القوات اللازمة لاحتلال التراب الشاسع الذي انفتح في وجهنا وحرصنا على تلافي مطبات إدارة مباشرة كنا في عوز شديد إلى الموظفين فيها وحاجتنا في حاجز عند الأطلس، [كلها اعتبارات] لم تترك للمقيم العام بداً من الاقتصار على العمل بالموجود من الإمكانيات، وأن يوكل إلى القياد العظام بنصيب كبير جداً من إدارة البلاد.

ولقد سبق للقارئ أن تعرف على معظم هذه الشخصيات : سي عيسى بن عمر وسي المدني الكلاوي وأخوه الحاج التهامي. ويبقى علي أن أقدم له المتوكي والكندافي والرحماني.

فأما سي عبد المالك المتوكي فهو انتهازي عجوز، لم يفعل شيئاً إلا أن تكون له فيه مصلحة شخصية. فهو لم يتورع في سنة 1907 عن الانحياش إلى قضية مولاي عبد الحفيظ. ثم لم يلبث أن ارتد عنه في السنة التي بعدها، وزحف على مراكش. ولما فشل مولاي عبد العزيز في مسعاه لاسترداد الملك سارع إلى التصالح مع مولاي عبد الحفيظ الذي دعاه إلى فاس. فمكث بها ثلاث سنوات أبعدته عن مراكش، فاهتبل الأخوان الكلاوي، اللذان أصبحا يومها مطلقي السلطة في المدينة، ذلك الغياب منه، فجردوه من قسم من منطقة نفوذه. وبدا وقتها كأنه قنع بدور الذيل

التابع، في ترقب صبور أن يحين الوقت لاسترداد ما ضاع منه. فكانت النكبة التي حاقت بكلاوة سنة 1911 فرصتَه للانتقام منهما. فعاد إلى الجنوب، ثم لم يلبث أن استعاد ما كان له من نفوذ. بل إنه استطاع أن يبذ منافسيه القويين ويتفوق عليهما. ثم لما ظهر الهيبة لم يقاتله، كما كان قطع العهد به، بل قدم له الأسلحة والذخيرة وأمده بالقوات. وقد متعه الكولونيل مانجان بظروف التخفيف وأبقى عليه على رأس قيادته.

وأما سي الطيب الكندافي فقد كان يقترب من الستين؛ يتميز وجهه ذكاء، بملامح تميل شبهاً إلى وجوه الأهالي من الحضر لا إلى ملامح القائد الأمازيغي، وتسم وجهه ندبة بارزة من جرح قديم أصابه خلال حروبه في سوس. وقد كان في سنة 1907 كذلك من بين أوائل المبايعين لمولاي عبد الحفيظ. لكن لم تُسنَد إليه أي وظيفة مهمة داخل المخزن الجديد يومذاك فانسحب إلى الجبال؛ حيث حافظ على استقلاليته، ومنها كان مجيئه إلى مراكش لأول مرة خمسَ سنوات من قبلُ، ليقدم التحية إلى المقيم العام. ولقد لبث أثناء وجود الهيبة في الحوز على حياده، وكل ما يمكننا مؤاخذته به أنه يسّر له أمر الفرار؛ إذ تركه يمر بأراضيه ليتمكن من العودة إلى سوس.

وأما العيادي الرحماني فهو لا يزال في مقتبل العمر، يتميز ذكاء وإقداماً. إنه رجل عربي طويل القامة نحيف ذو وجه قاطع كالسكين وفم ينم عن قسوة وتحفه لحية فاحمة السواد. وقد كان فقد ذراعه اليمنى من طلقة نارية. والرجل كان من قبل قاطع طريق شديد البأس فتعقّل ثم صار يرتبط بسلطاتنا العسكرية التي في الشاوية بعلاقات جيدة. وفي سنة 1911 جهز محلة حاربت مع جنودنا وجعل على رأسها أحد إخوته، فكان فيها مقتله. وقد بذل العيادي قصاراه خلال المرحلة الأخيرة من الغارة التي

شنها رتل مانجان للمساعدة على تنفيذ تلك العمليات، فكافأته سلطتنا بأن جعلت له السلطة العليا على سائر قياد الرحامنة.

استقبل الجنرال ليوطي عشية عودته إلى الرباط في 11 أكتوبر في قصر «الدار البيضا»، مولاي بوبكر أخا السلطان الأكبر وخليفته على الحوز والقياد الذين في منطقة مراكش، وهم سي عيسى بن عمر وسي المدني الكلاوي والحاج التهامي الكلاوي وسي عبد المالك المتوكي وسي الطيب الكندافي وسي العيادي الرحماني، وعشرة سادة آخرين دون هؤلاء أهمية.

وقد عرض عليهم الجنرال الخطوط الكبرى لسياسته في لغة جمعت الحزم إلى المودة، كانت أمراً جديداً كلياً عليهم، ودعاهم إلى التعاون الصادق وإياه على إعادة الحياة إلى المغرب. وبين لهم كذلك الحسنات التي يمكن أن تعود عليهم من النظام الجديد؛ من زيادة سلطانهم والأمن على ممتلكاتهم وأشخاصهم، وأن وجود قواتنا ههنا هو للسهر على النظام والأمن لكن يمكنها كذلك أن تعمل عند الاقتضاء على زجر أولئك منهم الذين ربما حاولوا أن يستغلوا نفوذهم على رعاياهم. وأعاد الجنرال التأكيد على احترامه للسلطة الشريفة ومعتقدات السكان وعاداتهم، ثم ختم كلمته بدعوة حارة إلى التوافق بين العمال الفرنسيين والمغاربة في عمل مشترك أساسه العدل وغايته التقدم.

وقد اختير سي عيسى بن عمر ليكون الناطق باسم الجمع، فأجاب بالتأكيد للجنرال على ولاء القياد وعزمهم الشديد على التعاون الصادق من أجل تنفيذ البرنامج الذي عرضه عليهم. ثم زاد قائلاً : «وأنا بصفتي الشخصية أعاهدكم، وأقسم على رأسي وعيني على الوفاء بهذا العهد في جميع الظروف».

ذلك كان مبتدأَ سياسة القياد العظام. لكن مما يؤسف له أنه لم تلبث أن ظهرت مثالبها. وقد قام الكولونيل مانجان أسبوعين بعدُ بجولة عسكرية على امتداد السفوح الأطلسية من أمزميز إلى دمنات. فكانت القبائل تتلقاه بأفضل استقبال ظناً منها أنها تحررت من نير القياد العظام. لكنها لم تلبث أن فوجئت في اليوم الذي بعد بمجيء مبعوثي سي المدني الكلاوي معززين بقواتنا التي في تلك النواحي، فجعلوا ينهبون محاصيل مسفيوة وتكانة كلها من الزيتون.

فارقت سي عيسى بن عمر في 13 أكتوبر، وعدت أدراجي من مراكش إلى الرباط في خفر صغير من فرسان عبدة. وكأنني آنست أنها ستكون رحلتي الأخيرة على السبيل القديمة، فجعلت أطيلها أكثر ما يمكن. فقد سرت أتنقل على مراحل من ثلاثين إلى أربعين كيلومتراً، وأطيل مساري فأعرج على السراغنة وبني مسكين وامزاب والمداكرة والزيايدة.

مرت رحلتي من غير عناء كثير. وفي 22 من أكتوبر جئنا إلى الطريق الساحلية عند مصب وادي يكم وقت أن كان قطار صغير يمر مزمجراً مصفراً فوق الجسر الضيق. مشهد أصاب رفاقي بالذهول وجيادنا بالفزع الشديد. فلما توارى ذلك الشيء الغريب عن الأنظار بعد لأي إذا أحد الفرسان يقول مترجماً شعوره : «سلطاننا اليوم ها هو!». ثم دمدم بصوت خافت : «الله ينعل جدهوم!»* . ثم تابعنا مسيرنا إلى الرباط.

كانت العاصمة الإدارية لنظام الحماية تعمها حيوية عارمة. وقد جُعلت الإقامة في دارة صغيرة اشتُريت لهذا الغرض (أصبحت اليوم مقراً لإدارة الأشغال البلدية). وكان العمل من حولها جارياً على قدم وساق لبناء براريك لإيواء مختلف المصالح فقد كان معظمها لا يزال يؤوي إلى الخيام.

* *Allah inâl jeddhoum!*

مضت خمسة أشهر على استلام الجنرال ليوطي مهام المقيم العام. ولقد أمكنه أن ينجز خلال هذه الفترة الوجيزة عملاً عظيماً، وإن الذين رأو الرجل كيف كان يعمل في هذه الفترة هم وحدهم الذين يدركون مدى ما كان يتحلى به من حنكة ويتميز من طاقة وحيوية. ويمكن إجمال تلك المنجزات في قمع تمردين أقاما علينا البلاد قاطبة، واحتلال ما كان يعرف بـ «بلاد المخزن» كلها ونشر الهدوء فيها، في ما خلا سوس وتافيلالت وخنق تازة وترميم أركان الحكومة الشريفة والترسيخ لسلطة السلطان وتنظيم الإدارة المركزية لنظام الحماية.

لقد وجد المقيم العام المخزنَ في أسوإ حال؛ فكان من اللازم ترميم تصدعاته وتعضيده بمختلف مصالح نظام الحماية الذي جئنا به قبل مباشرة أي إصلاح فيه. ونحن نعلم كيف جرى تأخير هذا العمل التنظيمي أولاً بالمعارضة المحكمة التي كانت في البداية من مولاي عبد الحفيظ لكل سياسة تعاونية. وما كان في الإمكان الشروع في إعمال هذه السياسة بصورة جدية إلا بعد إرساء الإقامة في الرباط وتنازل مولاي عبد الحفيظ عن العرش ورحيله على متن «الدوشايلا» في 12 غشت وتولية مولاي يوسف.

لقد أضاع مولاي عبد الحفيظ الهيبة الشريفة بتجاوزاته والتسيب الذي طبع حياته الخاصة وما بدر منه في أواخر حكمه من استخفاف بجميع قواعد التشريف، فكان عزله أمراً اغتبط له الناس. غير أن البيعة التي عقدها لخَلَفه علماءُ فاس لم تلق حماساً. فلم يكن السلطان الجديد معروفاً لدى الكثيرين، وإنما يعرف الناس عنه أنه كان خليفة لمولاي عبد الحفيظ ما جعلهم على شيء من الريبة فيه. ولذلك كانت مفاجأة عظيمة للسكان أن اكتشفوا في مولاي يوسف الرجل المسلم الذي لا تشوبه شائبة والمراعي للتقاليد والزاهد في الملاهي الباطلة التي استغرقت سلفيه.



مولاي يوسف

وقد كانت ستة أسابيع من تولى ممارسة مولاي يوسف للسلطة في فاس كافية لتبدد جو الريبة الذي أحاط بتوليه الملك. فكان دخوله مكناس انتصاراً حقيقياً. وأما الاستقبال الذي خُص به في سلا والرباط فقد انطبع في مبتدئه بالتحفظ، لكن سرعان ما استمال السلطان الجديد الناس إليه بفضل ما تحلى به من رزانة ووقار في حياته العامة والخاصة واستقامة في المواقف والأفعال. وقد وجد مساعدة كبيرة في هذا الأمر من سياسة المقيم العام الحريص على تحاشي كل مظاهر من شأنها أن تسيء إلى الرأي العام وتنال من الهيبة الشريفة. وكانت احتفالات العيد الكبير في النصف الثاني من شهر نونبر عظيمة الدلالة، ونادراً ما حضرت احتفالاً من الصخب والحماسة الشعبية كذلك الذي أحاط بمرور السلطان وهو يجتاز شوارع الرباط إلى المسجد الذي في قصبة الأوداية.

وصار المخزن يباشر وظائفه بانتظام، بعد أن تمت له إعادة التنظيم. فلم يحتفظ من وزاراته الخمس التي كانت تضمها الحكومة الشريفة بغير ثلاث هي الصدارة العظمى أو وزارة الداخلية ووزارة المالية ووزارة العدل فيما أزيلت وزارة الشؤون الخارجية لأن المقيم العام قد صار هو الوسيط الوحيد بين السلطان والقوى الأجنبية. وفي المقابل جرى تحويل بنيقة العلاف إلى ما يشبه وكالة لوزارة الحرب. وأنشئت عدة أجهزة جديدة كإدارة الأشغال العمومية وإدارة التعليم، وهما معاً ملحقتان بالصدارة العظمى وإدارة الترتيب والأملاك التابعة لوزارة المالية وإدارة مستقلة للحبوس.

وفي 30 من نونبر توجه السلطان في قسم من مخزنه إلى مراكش. ولبث الصدر الأعظم الحاج محمد المقري في الرباط ومعه معظم موظفي مختلف المصالح ليقوموا على تصريف الأمور. وقد حرص السلطان قبل رحيله على استقبالي وخصني بحوار لأجل صحيفة «**الطان**» قال فيه :

«- يمكنك أن تنقل من خلال «**الطان**» امتناني العميق للحكومة الفرنسية وللمقيم العام بما كان منهما نحو شخصي ونحو بلدي. ولست بحاجة إلى أن أذكركم بالصعاب الجسيمة التي واجهتنا خلال الأيام الأخيرة. وقد أمكن تذليلها بفضل يقظة قواتكم. فلقد اندحر أعداء النظام بالقوة وأطمأن أهل الصلاح بالحلم والدماثة.

«ولولا المساعدة التي كانت من فرنسا لكان ضاع المغرب. فبفضلها أمكن أن يستتب الأمن والنظام وتتقوى السلطة الشريفة ويتكون مخزن جديد بهذا الاسم. وجزاء لهذه الأفعال الخيرة التي لا تقدر بثمن يمكن لفرنسا أن تعتمد على تعاوني الصادق ووفائي.

«لقد عاد مخزني في الوقت الحاضر إلى سيره العادي وهو يعمل في اتفاق تام مع الإقامة. وقد أسفر هذا العمل عن مجموعة من التدابير ذات النفع الكثير؛ أهمها هو المتعلق بتنظيم المالية وإعادة تكوين أملاك الدولة. وكذلك تم اتخاذ إجراء آخر من أجل إعادة تنظيم إدارة الحبوس ذات المنفعة العامة. ثم إننا سنقوم باتخاذ جميع التدابير اللازمة للتوسيع من نطاق إعمال الترتيب ليشمل سائر بلاد المخزن.

«وقد أعملت هذه التقنينات بما يتناسب ومبادئ الشريعة ويراعي مقتضيات المعاهدات التي أبرمها أسلافي. وأما في ما عدا ذلك فإنني ألتزم ما وسعني الإمكان بالتقاليد التي تركها لي والدي مولاي الحسن وأقتدي بسيرته. لذلك فبعد أن أقمت لبعض الوقت في فاس ومكناس والرباط أرى من اللازم أن أتوجه إلى مراكش التي بقي المخزن عنها بعيداً لما يقرب الخمس سنوات. وآمل أن أجد من أهل الحوز وعاصمتي في الجنوب الاستقبال نفسه الذي وجدته خلال مقامي في المدن الثلاث وعند سائر القبائل التي مررت بها».

وما كادت المحلة الشريفة تشرع في مسيرها حتى بدأت تمطر بعد طول ترقب. فما كان من البدو وهم يرون السلطان إلا أن يعزوا تلك المطرة الخيرة إلى البركة الشريفة. حتى إذا تخلص أهل الجنوب من سورة ذلك الاعتقاد المهدوي جاءوا يتلقون مولاي يوسف بآيات من التبجيل هي خليط من التعلق الشديد بشخص أمير المؤمنين والخشية الشديدة منه.

وفيما كان الجنرال ليوطي يباشر إعادة تكوين الحكومة الشريفة، كان ينشئ مصالح الحماية التي اقتصرت في بادئ الأمر عن ديوان المقيم العام ومكاتبه الدبلوماسي والعسكري والسياسي وكاتب عام (هو السيد كايار) وإدارتين عامتين هما إدارة المصالح المالية (التي تولاها السيد كالو) وإدارة الأشغال العمومية (التي تولاها السيد ديلور).

واضطلع الكاتب العام بالإدارة والشرطة والعدل والتعليم والشؤون الدينية هو صلة الوصل بين المخزن و[إدارة] الإقامة وجهازنا الرئيس لمراقبة السلطات الشريفة.

واختصت الإدارة العامة للمصالح المالية بالمالية في معناها الضيق، كما شمل القرض العمومي والأملاك والتجارة والجمرك والبريد والتلغراف والتليفون.

وأوكل إلى الإدارة العامة للأشغال العمومية بجميع الأشغال الداخلة في المصلحة العامة؛ من إنشاء الطرق ومد السكك الحديدية وإقامة الجسور وإنشاء المراسي وإنجاز الإنارة وغيرها، والفلاحة (التي تولاها السيد مالي) والمياه والغابات (التي تولاها السيد بودي) والسجل العقاري.

وقد كانت هذه المصالح تعمل كلها تحت إدارة المقيم العام بصفته الشخصية يساعده السيد أولير مفوض الإقامة المحنك الخبير.

ومنذ أواخر 1912، وفيما كانت قواتنا تعمل تحت إشراف فرانشي ديبري وكورو ومانجان وغيرهم كثر ممن حازوا الشهرة بعد ذلك، على إعادة تكوين ما كان يعرف ببلاد المخزن، وتقوم فيه على حفظ النظام والأمن كانت الآلة الإدارية قد بدأت في العمل وكان معظم دواليبها قد أنجز قدراً من الأعمال ذات النفع العميم.

وقد كانت الحماسة الكبيرة التي أبانت عنها الهيئة الفرنسية للاحتلال يوازيها النشاط الفعال الذي كان من الدواوين. وكنت ترى الجنرال ليوطي حاضراً في كل مكان؛ يشرف على كل شيء ويوجهه ويدفع بالجميع مَنْ إلى الأمام ومَنْ إلى الوراء، ويقضي قسماً من لياليه مستقلاً سيارته ويصرف للعمل لاأقل عن اثنتي عشرة ساعة في اليوم.

واتفق لي أن التقيته يوماً بأحد الأوراش، وحييته فرد على تحيتي برفع يده في حركة خاطفة إلى كبيَته الحربية قائلاً : «لقد تأزمت الأوضاع كما ترى! لكنني أعتقد أننا قريبون إلى النجاح. فماذا ترى؟». ثم مرق كالسهم.

إنها تصريحات لم يكن في الإمكان بأي حال أن أصوغها في صورة حوار. ومع ذلك فلم يكن أفضل منها في تلخيص تلك الأوضاع : لقد كنا قاب قوسين إلى النجاح مهما «تأزمت الأوضاع»، وبفضل هذا الرجل وتصوره الفذ لدور فرنسا في المغرب والود العميق لمحميينا والحماسة التي أمكنه أن يبثها في أفراد فريقه جميعاً؛ بفضل الإقبال الحازم على العمل.

فهرس

القسم الثاني

بين الغروب والفجر

القسم الثالث

فجر الحماية

عَلى عَتبَة المَغْرِب الحَدِيث

لا تخفى فائدة هذا الكتاب عن المهتم بتاريخ المغرب، ولاسيما في لحظته المفصلية المتمثلة في انهيار المخزن ووقوع البلاد فريسة للمستعمر في مطلع القرن العشرين، وما تلاه من تغيرات جذرية في تسيير شؤون المملكة وعلى وضعية المغرب الداخلية وصورته الخارجية. ولعل قسطاً كبيراً من أهمية هذا الكتاب يعود إليه من موقع مؤلفه السياسي والإعلامي وسعة اطلاعه على شؤون المغرب، واتساع نطاق حركته في جهاته المعروفة والأخرى التي يعود إليه فضل التعريف بها في ذلك الأوان.

وفضلاً عن الفائدة السياسية التي يمثلها هذا الكتاب، باعتباره سجلاً بالسنوات الأخيرة من حياة المغرب المستقل، وتأريخاً موسعاً بأطوار الصراع الداخلي على السلطة وملابسات الصراع الخارجي الدائر بين القوى الأوروبية العظمى على الظفر بموطئ قدم في الخريطة المغربية التي كان يجري الإعداد لها في ذلك الإبان، و بياناً بالمراحل الاولى للاستعمار الفرنسي، فضلاً عن ذلك كله يعتبر هذا الكتاب مرشداً فريداً للراغب اليوم في التعرف إلى معيش المغاربة في بداية القرن العشرين، وصور التحولات الطارئة يومئذ على المجتمع المغربي في شتى مناحي الحياة فيه.

ويعتبر كتاب «**على عتبة المغرب الحديث**» كذلك من الوثائق الأساسية في تاريخ المغرب السياسي والاجتماعي والعسكري أيضاً. وفي هذا مصدر الأهمية التي تمثلها ترجمته لتقريبه من القارئ العربي، أول المعنيين بقراءته وتمحيصه ونقده.

صورة الغلاف: السلطان إلى مسجد فاس لموريس رومبيرغ، 1920

80 د.